مَوضُوعَاتٌ صَالِحَةٌ

لِلخُطَبِ وَالمَوَاعِظِ

ⓗ ورثة الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن قاسم. محمد بن عبدالرحمن
موضوعات صالحة للخطب والمواعظ / محمد بن عبدالرحمن
ابن قاسم ـ ط٢ ـ الرياض، ١٤٣٣هـ
ص٣٣٣: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ ـ ٩٢٧٤ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

١ ـ الخطب الدينية ٢ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٣/١٥١٣

رقم الإيداع: ١٤٣٣/١٥١٣
ردمك: ١ ـ ٩٢٧٤ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ

موضوعات صالحة

للخطب والمواعظ

جمعها ورتبها

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

رحمه الله ت ١٤٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

«أحســن ما أُنفقــت فيه الأنفاس: هــو التَّفكُّر فــي آيات الله
وعجائبِ صنعه، والانتقــالُ منها إلى تعلُّق القلب والهمَّةِ به
دون شيء من مخلوقاته»

ابن القيّم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أَجمعين.

أما بعد:

«فإنَّ أحسن ما أُنفقت فيه الأنفاس: هو التَّفكُّر في آيات الله وعجائبِ صنعه، والانتقالُ منها إلى تعلُّق القلب والهمَّةِ به دون شيءٍ من مخلوقاته».

«وآيات الرَّبِّ: هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد، ويَعرفون أسماءه وصفاتِه، وأفعالَه وتوحيده، وأمرَه ونهيَه».

هاتان العبارتان ممَّا جادت به قريحة الإمام العلّامة محمد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٥١هـ)، وسَالَ به قلمه الذي طال النَّفع به الخلق الكثير.

وقال في الثَّناء على كتابه «مفتاح دار السَّعادة»: «إن شئتَ اقتبستَ منه معرفةَ الصَّانع بطرقٍ واضحاتٍ جليَّاتٍ، تَلِج القلوب بغير استئذان، ومعرفةَ حكمتِه في خلقه وأمره.

وإنْ شئتَ اْقتبستَ منه معرفةَ قَدْرِ الشَّريعة وشدَّةِ الحاجة إليها، ومعرفةَ جلالتِها وحكمتها.

وإنْ شئتَ اْقتبستَ منه معرفةَ النُّبوَّة وشدَّةِ الحاجة إليها؛ بل وضرورةَ الوجود إليها، وأنَّه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يُخْلي العالم منها.

وإنْ شئتَ اْقتبستَ منه ما فطر الله عليه العقولَ من تحسين الحَسَن وتقبيح القبيح، وأنَّ ذلك عقليٌّ وفطري» ا.هـ.

ومن هنا اْنطلقت؛ فاقتبست من هذا الكتاب ومن غيره من مؤلَّفاته ما يتعلق بمعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطرقه ودلائله، ومعرفةِ حكمته في خلقه وأمره، ومعرفةِ قدْر الشَّريعة من حيث العموم وفي مسائلَ معيَّنةٍ ذكرتها، ومعرفةِ معجزات النُّبوَّة، ومسائلَ تتعلَّق بأعمال القلوب، ومبدأ الإنسان وميزانِه ومصيره، إلى غير ذلك ممَّا ستراه مفصَّلاً بصور خُطب، وفيها عدد قليل ليس من كتبه.

وبما أنَّ هذه الخطب ـ السَّبع والثَّلاثين (٣٧) ـ ليست من إنشائي، وإنَّما اْخترتها، وجمعتها، ورتَّبتها، واْختصرت بعض العبارات، وربطت بينها، وعلَّقت عليها ببعض العبارات التي رأيت الحاجة داعية إليها من كلام اْبن القيِّم وغيره، وبعضها من عندي، وعزوت كلّاً إلى صاحبه، وذكرتُ مراجع كلِّ خطبة بعد نهايتها، فقد سمَّيتها (**موضوعات صالحة للخطب والوعظ**)؛ ليستعمل منها الخطيب والواعظ ما يريدانه.

وكان من همِّي قديماً: التَّطلُّع إلى ما يتعلق بإثبات وجود الله جَلَّجَلَالُهُ وتوحيد ربوبيَّته والرَّدِّ على الملحدين، فقد قال الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمَّا توحيد الرُّبوبيَّة فهو الأصل، ولا يغلط في الإلٰهيَّة إلا من لم يعطه حقَّه». وقد يسَّر الله في هذه كثيراً ممَّا أردت.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتى لا يُقال في الأرضِ: الله، الله**»[١]، وقال: «**ولا تقوم السَّاعة حتى تَعبُدَ فِئَامٌ من أمَّتي الأوثان**»، وقال أيضاً: «**لا تزال طائفة من أمَّتي على الحقِّ منصورة، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**»[٢].

وقد كان ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ من عبادة الأوثان في فِئَامٍ من الأمَّة، وجَدُّوا في تعظيم القبور وإحياء آثار أصحابها للتَّبرُّك بها.

ومن ناحية أخرى: وجود الزُّهد في العبادات في فِئَام أخرى من الأمَّة؛ هجروا ما جاء به الرَّسول ﷺ كُلِّياً وٱتَّخذوه وراءهم ظِهْرِيّاً، أو تخيَّروا فيما أنزل الله، فعملوا ببعض وتركوا بعضاً.

فأولئك في طرف، وهؤلاء في طرف.

والإسلام وسط بين طرفين، وهدىً بين ضلالتين.

ولا تزال طائفة من أمَّة محمَّدٍ ﷺ على الحقِّ منصورة؛ فنسأل اللهَ أن يجعلنا منهم، وألَّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، إنَّه هو الوهَّاب.

ومن مبادئ العزوف عن ذكر ٱسم الله تعالى: ما ٱعتاده بعض النَّاس من تبادل التَّحيَّات بينهم، كقوله: صباح النُّور، صباح الفل، مسا الخير، مسا النُّور، لا يقول: صبَّحكم الله بالخير، مسَّاكم الله بالخير، وبدلاً من أن يقول: في أمان الله، في حفظ الله، يقول: مع السَّلامة. فهذا يشبه «عِمْ صَبَاحاً».

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج٣/ ١٠٧.
(٢) رواه البرقاني في صحيحه.

وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1] إذا لاقاه أحد في الطَّريق فقال: صبَّحك الله بالخير، ردَّ عليه: «عليكم السَّلام» ليعلِّمه السُّنَّة، فكيف لو سمع: صباح الفُلّ، صباح الياسمين.

اللَّهمَّ ٱجعلنا ممَّن يقدِّرك حقَّ قدرك، وأعنَّا على ٱمتثال أمرك، وٱجعل أعمالنا خالصة لوجهك، وسبباً للنَّجاة من الجحيم والفوز بدار النَّعيم، فإنَّك رحيم كريم.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

٦/ ١٤١٩هـ

(١) الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المتوفى سنة ١٣٨٩هـ.

لا تشَكُّكَ في وجود اللّٰه

تبارك وتعالى

الحمد لله الذي يسَّر على الإنسان عِلْمَ ما هو محتاج إليه في معاشه ومعاده أتمَّ تيسير، وأهَّلَ من شاء لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرارِ دينه وشرعه، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، لا يستحقُّ العبادة إلَّا هو؛ لإحسانه إلى عباده، ولجلاله وجماله وكماله.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، بعثه وإخوانَه المرسلين مذكِّرين بهذا الحقِّ ومُعْذرين ومُنْذرين.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد: فيا عباد اللّٰه:

تأمَّلوا حِكمَ اللَّطيف الخبير؛ أن يسَّر على الإنسان طرق ما هو محتاج إليه من العلم، وكلَّما كانت حاجته إليه من العلم أعظم، كان تيسيره إيَّاه عليه أتمّ، فأعطاه معرفة خالقه وباريه ومبدعِه سبحانه والإقرارِ به؛ فكلّ ما تراه بعينك، أو تسمعه بأذنك، أو تعقله بقلبك، وكلّ ما يخطر ببالك،

وكلّ ما نالته حاسَّـة من حواسِّـك؛ فهو دليل على الرَّبِّ تعالى، ولهذا قالت الرُّسـل لأممهـم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يَخطُر له شكٌّ مَّا في وجود الله سبحانه، وإنَّما يكون الشَّكُّ فيما تخفى أدلَّتُه وتُشْكِل براهينُه، فأمَّا من له في كلِّ شيء ـ محسوسٍ أو معقولٍ ـ آية؛ بل آيات مؤدية عنه، شاهدة بأنَّه الله الذي لا إلٰه إلَّا هو ربّ العالمين، فكيف يكون فيه شكٌّ؟!

فالرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّـلام ـ إنَّما دَعَوْا أممهم إلى عبادته وحده، لا إلى الإقرار به؛ فوجودُه سبحانه وربوبيتُه وقدرتُه أظهر من كلِّ شيء؛ فهو أظهـر للبصائر من الشَّـمس للأبصار، وأبيـن للعقول من كلِّ مـا تَعْقِله وتُقرُّ بوجوده، فمـا ينكـره إلَّا مكابر بلسـانه من كلِّ جحـود كفور، وقلبُـه وعقلُهُ وفطرتُه كلُّها تكذِّبه.

فقد نصب سـبحانه ـ من الأدلَّة على وجـوده ووحدانيَّته وصفات كماله ـ الأدلَّـةَ على ٱختلاف أنواعها ما لا يُطيق حصرهـا إلا الله، ثمَّ رَكَزَ ذلك في الفطرة، ووضعـه في العقل جملـة، فإذا قال الدَّاعـي: يا الله! قـام بقلبه ربّاً، قيوماً بنفسـه، مسـتوياً على عرشـه، مكلِّمـاً، متكلماً، سـامعاً، رائيـاً، قديراً، مريـداً، فعَّالاً لما يشـاء، يسـمع دعـاء الدَّاعين، ويقضـي حوائج السَّـائلين، ويفـرِّج عـن المكروبيـن، تُرضيـه الطَّاعـات، وتُغضبـه المعاصـي، تعـرج الملائكة بالأمر إليـه، وتنزل بالأمر من عنده، قـال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠ـ٣١] هذه هي الفطرة.

وٱسـمعوا ـ عبـادَ الله ـ إلـى دلالـة العقـل، قـال تعالـى ـ منكـراً علـى المشـركين معه غيـره فـي العبـادة ـ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ

﴿خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥،٣٦] يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لَّم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالقٍ خلقهم؟! فهذا من المُحال الممتنع عند كلِّ من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانعٍ، ومخلوقٌ من غير خالقٍ. ولو مرَّ رجلٌ بأرضٍ قَفْرٍ لا بناءَ فيها، ثمَّ مرَّ بها فرأى فيها بنياناً وقصوراً وعماراتٍ محكّمةً، لم يخالجه شكٌّ ولا ريب أنَّ صانعاً صنعها وبانياً بناها.

ثمَّ قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد مُوجِداً خالقاً لنفسه، فإنَّ من لَّا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعاً واحداً، ولا ظفراً، ولا شعرة، كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟! وإذا بطل القِسْمانِ؛ تعيَّن أنَّ لهم خالقاً خلقهم، وفاطراً فطرهم.

ثمَّ قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وبيَّن بهذا القِسْم الثَّالث أنَّهم بعد أن وُجِدُوا وَخُلِقُوا؛ فهم عاجزون غيرُ خالقين، وأنَّ الواحد القهَّار الذي لا إلٰه غيره ولا ربَّ سواه هو الذي خلقهم وخلق السَّمواتِ والأرض، فهو المتفرِّد بخلقِ المَسْكَن والسَّاكن، بخلق العالم العلوي والسُّفلي وما فيه، فهو الإلٰه الحقُّ الذي يستحقُّ عليهم العبادةَ والشُّكر، فكيف يُشركون به إلٰهاً غيره وهو وحده الخالق لهم؟!

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ فَعَدَمُ إيقانهم هو الذي يحملهم على الشِّرك به في العبادة.

وهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ اَستدلَّ بأفعال الرَّبِّ حين حاجَّهُ النُّمرود ـ الكافرُ الجحود ـ، إذ قال لإبراهيم: أرأيت إلٰهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التي تعظِّمه بها على غيره ما هو؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ﴾ النُّمـرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فقـال له إبراهيـم: كيف تحيي وتميت؟! قال: آخُذ الرَّجلين قد ٱستوجبا القتل في حكمي، فأَقتُل أحدَهما فأكونُ قد أَمتُّه، وأعفو عن الآخر فأتركُه فأكون قد أحييته، أَوْهَمَ الحاضرين أنَّه يفعل مثل ما يفعله الله، فيكون ربّاً مثله.

فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فإن كنـتَ صادقـاً فافعل مثل فعلـه في طلوع الشَّـمس، فـإذا أَطْلَعهـا من جهةٍ فأَطْلِعها أنت من جهةٍ أخرى.

ٱستدلَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأفعال الرَّبِّ المشـهودة المحسوسة التي تستلزم وجودَه وكمـالَ قدرتِه ومشـيئتِه وعلمِـه، ووحدانيَّتَـه من الإحيـاء والإماتةِ المشـهودين اللَّذين لا يقدر عليهمـا إلَّا الله وحده، وإتيانِه تعالى بالشَّـمس من المشـرق، فتنصاع لقدرته ومشـيئته لا يقدر أحد سـواه على ذلك. فلمَّا علـم عـدوُّ الله صحَّة ذلـك وأنَّ مَنْ هذا شـأنه على كلِّ شـيءٍ قديـر؛ بُهت وأَمسـك، وظهر بطلان دعواه وكذبُـه، وأنَّه لا يصلـح للرُّبوبيَّة، وأهلكه الله وجنودَه، قال زيد بن أسـلم[1]: «جمع النُّمرود جيشَـه وجنودَه وقت طلوع الشَّـمس، وأرسـل الله عليهم باباً من البعوض فأكلت لحومهـم ودماءهم، وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدةٌ منها في مَنْخَرَي المَلِك، فمكثت فيه أربع مئة سنة، عذَّبه الله بها حتى أهلكه بها».

وٱقتدى بـه فرعون حيـن دعاه موسـى إلى ربِّـه وفاطره وخالقـه، الذي أوجده وربَّاه بنعمه ـ جنيناً، وصغيراً، وكبيـراً ـ، وآتاه الله المُلك؛ فقابل هذا بغاية الكفر والعناد، وٱدَّعى أنَّه ربُّ العالمين، هذا وهو يعلم أنَّه ليس بالذي خلق فسوَّى، ولا قدَّر فهدى، فكذَّب الخبر، وعصى الأمـر، ثمَّ أدبـر يسعى

(١) فيما رواه عنه عبدالرَّزاق. انظر: «تفسير ابن كثير» على الآية.

بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجـابـوه، ثمَّ نادى فيهم بأنَّه ربُّهم الأعلى، وٱستخفَّهم فأطاعوه، فبطش به جبَّارُ السَّموات والأرض بطشَ عزيزٍ مقتدرٍ، وأخذه نَكَالَ الآخرة والأولى؛ ليعتبر بذلك من يعتبر.

ولا يُستنكر الجحود ـ يا عباد الله ـ مع ظهور الأدلَّة، فهذا شأن النُّفوس الجاهلـة الظَّالمة، تجـد الرَّجل منغمسـاً في النِّعـم وقد أحاطت بـه من كلِّ جانب، وهـو يشـكو حاله ويتسـخَّط ممَّا هـو فيـه[1]، ورُبَّمـا أنكـر النِّعمة، فضلال النُّفوس وغيُّها لا حدَّ له تنتهي إليه.

ودلَّ الدَّليل العقلي والشَّـرعي علـى ٱنتهاء المخلوقـات والمصنوعات إلى خالـقٍ واحـدٍ، موصوفٍ بصفـات يؤثِّر بها فـي المخلوقـات ومقاديرها وأشـكالـهـا وهيئاتهـا، عن أبـي هـريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**لا عدوى، ولا طيـرة، ولا هَامَة، ولا صفـر**، فقال الأعرابي: يا رسـول الله! فما بال الإبل تكون في الرَّمل كأنها الظِّبـاء، فيجيءُ البعير الأجرب فيدخل فيها فَيَجْرَبُها كلَّها؟ قال: **فَمَنْ أجـرب الأول؟!** ـ وفي لفظ ـ: **أفرأيت الأوَّل مَنْ أعداه؟!**»[2].

فكلُّ مخلوقٍ له أوَّل، والخالق سـبحانه لا أوَّل له؛ فهـو وحده الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

ومن الأدلَّـة العقليـة: ما أبقـاه الله تعالى من آثـار عقوبات أهل الشِّـرك

---

(١) قلتُ: وإذا سُئل بعض هؤلاء كيف حالك؟ قال: ٱدعوا لي!!

(٢) بيّن ﷺ الدَّور والتسلسـل وقطعهما بأوجز لفظ وأبينِه، ففهم السـامع من هذا أن إعداء الأول إن كان مـن إعـداء غيره لـه، فإنه لم ينته إلى غاية، فهو التسلسـل في المؤثـرات، وهو باطل بصريح العقل.
وإن ٱنتهى إلى غاية وقد استفادت الجَرَب من إِعداءٍ من جَربٍ به له، فهو الدَّور الممتنع.

وآثار ديارهم وما حلَّ بهم، وما أبقاه من نصر أهل التَّوحيد وإعزازِهم وجَعْلِ العاقبة لهم، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٢، ٥٣]، وقال عن قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥].

وقال بعض الأعراب وقد سُئل: ما الدَّليل على وجود الله تعالى؟ فقال: «يا سبحان الله! إنَّ البعر ليدلُّ على البعير، وإنَّ أثر الأقدام ليدلُّ على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، أَلَا يدلُّ ذلك على وجود اللَّطيف الخبير؟!» فاستدلَّ الأعرابي بالأثر على المؤثِّر؛ كقوله تعالى لمن قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصّلَت: ١٥].

وحُكي عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ بعض الزَّنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: «دعوني فإنِّي مفكِّر في أمرٍ قد أُخبرت عنه، ذَكروا لي أنَّ سفينة في البحر مُوقَرة[1]، فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلَّص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسُّفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟!» فبُهت القوم، ورجعوا إلى الحقِّ وأسلموا على يديه.

(١) أي: مُحَمَّلة بحملٍ ثقيل.

فالمخلوقات جميعُها وما تضمَّنته من التَّخصيصات والحِكَم والغايات مستلزمةٌ للخالق عيناً، فانتقال الذِّهن منها إلى العلم بالخالق، كانتقال الذِّهن من رؤية الدُّخان إلى أَنَّ تحته نار، ومن رؤية الجسم المتحرِّك قسراً إلى أنَّ له مُحرِّكاً، ومن رؤية شعاع الشَّمس إلى العلم بطلوعها، ونظائرُ ذلك؛ فَعَلِمَ العقلُ بوجود الخالق ـ كجرم الحسِّ ـ بما يشاهده من آياته المشهودة.

وآياته سبحانه هي: دلائله وبراهينه التي بها يَعْرفه العباد، وبها يعرفون أسماءَه وصفاتِه، وأفعالَه وتوحيدَه، وأمرَه ونهيَه.

فآياته سبحانه، وأدلَّة توحيده، وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من الأدلَّة لِصدق رسله، لا تحتاج إلى ما يزعمه كثير من النُّظَّار أنَّه دليل؛ كقولهم: «كلُّ ممكن مُفْتَقِر إلى واجب، وكلُّ مُحْدَثٍ مفتقر إلى مُحْدِثٍ»، فإنَّ هذه القضيَّةَ الكلِّيَّةَ بعد تعبهم في تقريرها ودفعِ ما يعارضها، لا تدلُّ على مطلوب معيَّن وخالق معيَّن، وإنَّما تدلُّ على واجبٍ مَّا ومُحْدِثٍ مَّا[(١)].

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ واحمدوه أَنْ علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، واذكروه يذكرْكم، واْشكروه يزدْكم.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) رؤي سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غَفَرَ لي وأَدْخَلَني الجنة. قيل: بأيِّ شيء؟ قال: بقولي: «الله أعرف المعارف». (سمعت هذا في صغري على لسان بعض طلبة العلم).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، يسَّـر كلّاً لِمَا خُلِق له وربُّك أعلـم وأحكـم، وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبـده ورسـوله، سـيّدُ الخلـق أجمـع، صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم على الأثر.

أما بعد: فيا عباد الله:

حاجـة العباد إلـى معرفة ربِّهـم وفاطِرهـم ومعبودِهم ﷻ فـوقَ مراتب الحاجات كلِّها؛ فإنَّه لا سـعادةَ لهـم ولا فلاحَ ولا صلاحَ ولا نعيـمَ إلَّا بأَنْ يعرفـوه ويعبدوه، ويكـونَ هو وحده غايـةَ مطلوبهم ونهايةَ مرادهـم، وذِكْرُه والتَّقرُّبُ إليه قرَّةَ عيونِهم وحياةَ قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك كانوا أسـوأَ حالاً من الأنعـام بكثيـر، وكانت الأنعـام أطيبَ عيشـاً منهم في العاجل، وأسـلمَ عاقبةً في الآجل.

ثـمَّ إنَّ الله ﷻ كمـا يسَّـر علـى الإنسـان طُـرُق المعرفـة بربِّه تبـارك وتعالى، فقد يسَّـر عليـه معرفة ما يجـب عليه مـن «أفعالـه التَّكليفيَّة»؛ بيَّن بكلامه وكلام رسـوله جميـعَ ما أمر بـه، وجميعَ مـا نهى عنـه، وجميعَ ما أحلَّه، وجميـعَ ما حرَّمه، وجميعَ ما عفا عنه؛ وبهـذا يكون دينُه كاملاً، كما

قـال تعالـى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائـدة: ٣].

وكذلك أعطاهم سـبحانه من العلوم المتعلِّقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم؛ كعلم الطِّبِّ والحسـاب، وعلمِ الزِّراعة، وضروبِ الصَّنائع، واْستنباطِ المياه، وعقدِ الأبنية، وصَنعةِ السُّفن، واْستخراجِ المعادن، وتهيئتِها لما يُـراد منها، وتركيبِ الأدويـة، وصَنْعةِ الأطعمة، ومعرفـةِ ضروب الحيل في صيد الوحـش والـطَّير ودوابِّ المـاء، والتَّصرُّفِ في وجـوه التِّجارات، ومعرفة وجوه المكاسب، وغيرِ ذلك مما فيه قيام معايشهم.

ثـمَّ مَنَعَهم سـبحانه عِلْـمَ ما سـوى ذلك ممَّا ليـس من شـأنهم، ولا فيه مصلحـةٌ لهـم، ولا نشـأتهم قابلـةٌ لـه؛ فَجَهْلُهم بـه لا يضرُّ، وعلمهـم به لا ينتفعون به اْنتفاعاً طائـلاً؛ كعِلْم الغيب، وعِلْم ما كان وكلِّ ما يكون، والعلمِ بعـدد القطـر، وأمـواجِ البحـر، وذرَّاتِ الرِّمـال، ومسـاقطِ الأوراق، وعـددِ الكواكـب ومقاديرهـا، وعلمِ ما فـوق السَّـموات وما تحت الثَّـرى، وما في لجج البحار، وأقطارِ العالم، ومـا يُكنُّه النَّاس في صدورهم، وما تحمل كلُّ أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، إلى سائر ما عزب عنهم علمه.

ومَنَعهم من العلم: علمَ السَّـاعة، ومعرفةَ آجالِهم؛ فإن كان قصيرَ العمر لم يتهنـأ بالعيش وخَرِبـت الدُّنيـا؛ لأنَّ عمارتهـا بالآمـال، وإِنْ تحقَّقَ طولُ عمرِه لم يبـال بالانهماك في الشَّـهوات وأنواع الفسـاد وتأخيـر التَّوبة، وقد قـال تعالـى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٨][(١)].

(١) المراجـع: مفتاح دار السَّـعادة جـ ١/ ٢٨٠، ٢٣٧، شـفاء العليـل ١٥٦، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، التبيـان ص ١٥٩، إعـلام الموقعين جــ ١/ ٣٣٢، بدائع الفوائد جــ ٤/ ١٧٤، ١٧٥، فتاوى ابن تيمية جـ ١٦/ ٣٥٧.

إنَّ أصدقَ الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّد ﷺ(١).

(١) قلت: ويضيف الخطيب في كلِّ خطبة أخيرة، ما هو مشهور في الخطب الموثوقة من العبارات الجامعة المأثورة، والتَّرضِّي عن الصَّحابة جميعاً، وتخصيص الخلفاء الرَّاشدين بالأئمَّة المهديِّين الذين قَضَوْا بالحقِّ وبه كانوا يعدلون ـ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ـ ينص على أسمائهم وإمامتهم وخلافتهم.
وإذا صلَّى على النَّبيِّ ﷺ لا يخصُّ الآل؛ بل يجمع بين الصَّلاة على آله وأصحابه؛ ليخرج من البدعتين.
ولا يخصُّ الآلَ بالطَّهارة؛ لأن ما ورد فيهم ترغيب وأمر لا خبر، نبَّه على ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ونحن نعلم أنَّ مِنْ بني هاشم من ليس بمطهَّر، والله لم يخبر أنَّه طهَّر جميعَ أهلِ البيت، وأذهب عنهم الرِّجس؛ فإن هذا كذب على الله» ا.هـ. أو يترك هذه الجملة ـ الطيِّبين الطَّاهرين ـ وهو أولى.
ويوصي بالتَّقوى، ويصلِّي على النَّبيِّ ﷺ، ويدعو للمسلمين.
وإنَّما نبَّهت على هذا؛ لأنّي لم أذكره في آخر الخطب.

اللّٰه أكبرُ من كلّ شيءٍ وأعظم

الحمد لله الذي بهرت بدائعُ صنعه الألباب، وخضعت لجبروته الصِّعاب، فكلُّ محسوسٍ إلى ربوبيَّته هادٍ، وكلُّ موجود إلى وحدانيَّته داعٍ.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا مثلَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، بعثه الله وسائرَ النَّبيِّين قبله إلى من شاء من عباده، فجعلهم سفراءَ بينه وبين خلقه، وأمدَّهم بعونه، وحَبَا نبيَّنا من كرامته بالقِسْم الأفضل، ومن الأصحاب بالحظِّ الأوفر.

والحمد لله الذي كرَّمنا بتصديقه، وشرَّفنا باتِّباعه، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمانِ به، وبما دعا إليه وجاء به.

صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم أزكى صلواته، وأفضل سلامه، وأتمَّ تحيَّاتِه(١).

أمَّا بعد:

فقد روى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه: عن عدي بن حاتم الطَّائي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) تفسير ابن جرير «المقدمة».

في قصَّة إسلامه، قال: «أتيت النَّبيَّ ﷺ وهو جالس في المسجد ـ وكنت نصرانياً ـ فقام فَلَقِيَتْهُ امرأةٌ وصبيٌّ معها، فقالا: إنَّ لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتَهما، ثمَّ أخذ بيدي حتى أتى داره، فَأُلقِيَتْ له وسادةٌ فجلس عليها، وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «**ما يُفِرُّكَ أن تقول: لا إلٰه إلَّا الله؟** ـ أي: ما يحملك على الفرار إلَّا التَّوحيد ـ **فهل تعلمُ من إلٰهٍ سوى الله؟** قال: قلت: لا. ثُمَّ تكلَّم ساعة، ثمَّ قال: **يا عدي! ما يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أن يُقالَ: الله أكبر؟! فهل تعلم شيئاً أكبرَ من الله؟** قال: قلت: لا، قال: **فإنَّ اليهود مغضوب عليهم، والنَّصارى ضُلَّال**، قال: قلت: فإنِّي حنيفٌ مسلمٌ، قال: فرأيتُ وجهه ينبسط فرحاً».

ففي هذا الحديث ـ يا عباد الله ـ أعظمُ دلالةً على عظمة الله تبارك وتعالى، وأنَّه أكبر من كلِّ شيء ـ ذاتاً، وصفة، وأفعالاً ـ[(١)].

والعالم العلوي والسُّفلي بالنِّسبة إلى الخالق سبحانه في غاية الصِّغر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] فالأرض والسَّماءُ الدُّنيا فوقَها، محيطةٌ بها من كلِّ جانب، وكذا الباقي، والكرسي فوق السَّموات كلِّها بين يدي العرش.

ونسبة السَّموات وما فيها إلى الكرسيِّ؛ كحَلْقةٍ في فلاة، والجملة

---

(١) وأخبرنا بأنَّه «الكبير»، فقال تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرّعد: ٩].
وبأنه «الأكبر» كما في الألفاظ المشروعة في الأذان والصَّلاة وغيرهما. وهي أفعل تفضيل، يقتضي كونَه أكبرَ من كلِّ شيء بجميع الاعتبارات.
فالله أكبر من كلِّ شيءٍ ـ في ذاته، وصفاته، وأفعاله ـ، كما هو فوق كلِّ شيء وعالٍ على كلِّ شيء، وأعظمُ من كلِّ شيء، وأجلُّ من كلِّ شيء ـ في ذاته، وصفاته، وأفعاله ـ.
فللّه سبحانه العلو الذَّاتي والمعنوي، والعظمة الذاتيَّة والمعنويَّة، والجلال والجمال الذَّاتي والمعنوي.

بالنِّسبة إلى العرش؛ كحَلْقةٍ في فلاة، والعرش فوق جميع المخلوقات، مُقبَّبٌ له قوائم، وهو سقف الجنَّة، وتحته بحر.

هذا العرش العظيم ـ الذي هو أعلا المخلوقات ـ خَلْقٌ من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى عظمة الله وكبريائه، كما في الحديث الذي رواه أبو داود: عن جبير بن مطعم قال: أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله! جُهدت الأنفس، وجاع العيال ـ وذكر الحديث ـ إلى أن قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله على عرشه، وإنَّ عرشَه على سمواته لهكذا** ـ وقال بأصابعه: مثل القبَّة ـ»، ورُوي عن ابن عبَّاس قال: «ما السَّمواتُ السَّبع والأرضون السَّبعُ في كفِّ الرَّحمن، إلا كخردلة في يد أحدكم».

وروى البخاريُّ: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمَّد! إنَّا نجد أنَّ الله عز وجل يجعل السَّموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشَّجر على أصبع، والماء والثَّرى على أصبع، وسائرَ الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه؛ تصديقاً لقول الحَبْر، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]» المعنى: ما عظَّم المشركون الله حقَّ عظمته حين عبدوا معه غيرَه، ونسبوا له الصَّاحبة والولد، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادرُ على كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحت قهره وقدرته.

ومن عظمته سبحانه: أنَّ الخلق كلَّهم يرونه من غير خفاءٍ ولا ازدحام، رَوى أبو داود في «سننه»: عن أبي رَزينٍ العُقَيْليّ قال: قلت: يا رسولَ الله! أَكُلُّنا يرى ربَّه مَخْلِيّاً به يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**يا أبا رَزين! أليس كلُّكم يرى القمر ليلة البدر مَخْلِيّاً به**؟ قال: بلى، قال: **فإنَّما هو خلق من خلق الله، فالله أجلُّ وأعظم**»؛ فكلٌّ منهم

يخلـو بـه كمـا يخلـو الرَّجـلُ بالقمـر ليلـة البـدر، فيقـرِّره بذنوبـه.

ومن عظمته سـبحانه: أنَّه لمَّا تجلَّى منه ما تجلَّى للجبل سَـاخَ الجبلُ في الأرض وتَدَكْدَكَ لعظمة ما رأى، واسـتغفر موسـى من ذلك السُّـؤال، وسـبَّح ربَّه تبـارك وتعالـى، والجبـل أكبر من موسـى وأعظم خلقـاً، قال ابن عبَّـاس رضي الله عنهما: «مـا تجلَّى منـه للجبـل إلا قـدر الخنصر فجعـل الجبل ترابـاً». قـال الله تعالـى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعرف: ١٤٣].

وفـي الحديث الذي رواه البخـاريُّ: «**حجابه النُّور، لو كشـفه لأحرقت سُـبُحَاتُ وجهِه ما انتهـى إليه بصرُه من خلقـه**»، فإذا كانت سُـبُحَاتُ وجهه ـ وهي جلاله ونـوره ـ لا يقوم لها شـيءٌ من خلقه، فما الظَّـنُّ بجلال ذلك الوجهِ الكريم وعظمتِه وكبريائه وكمالِه وجلالِه وجماله؟!

وفـي حديثِ حذيفةَ فـي رؤية المؤمنيـن ربَّهم في الجنَّة: «**فيكشـف الله الحجـب؛ فيتجلَّى لهم، فيغشـاهم من نوره مـا لولا أنَّ الله قضـى ألَّا يموتوا لاحترقوا**»[(١)].

ومن عظمته سـبحانه: سعةُ سـمعه، يسـمع كلامَ عبادِه كلَّه مع اختلافِ لغاتهم وتَفَنُّنِ حاجاتهم؛ يسـمع دعاءهم سَمْعَ إجابة، ويسمع كلَّ ما يقولونه سَمْعَ علمٍ وإحاطة، لا يَشْغَلُه سمعٌ عن سمع، ولا تُغْلِطُه المسائل، ولا يَتبرَّمُ بإلحاح الملحِّين ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

---

(١) فحجابـه النُّـور مخلـوق. وأما أنـوار الذَّات التي يَحْجُـبُ عن إدراكها، فـذاك صفة للذَّات لا تفارق ذات الرَّبِّ جل جلاله. وليس كمثله شيء من الأنوار، كما أن ذاته ليست كشيءٍ من الذَّوات.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كلَّ شيءٍ، إنِّي لَأَسْمَعُ كلامَ خولةَ بنتِ ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه ـ وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ـ، وهي تقول: يا رسول الله! أَكَلَ مالي، وأفنى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَت سنِّي، وانقطع ولدي، ظَاهَرَ مِنِّي!! اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك، قالت: فما بَرِحَتْ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ الآيات [المجادلة: ١ ـ ٤]».

وكذلك ما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يقول الله: قَسَمْت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين: فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله: مجَّدني عبدي. فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذه بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل**».

فهذا يقوله سبحانه وتعالى لكلِّ مصلٍّ قرأ الفاتحة، فلو صلَّى الرَّجل ما صلَّى من الرَّكعات قيل له ذلك، وفي تلك السَّاعة يصلِّي من يقرأ الفاتحة من لَّا يُحصي عددَه إلا الله، وكلُّ واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا.

وكرسيُّه قد وسع السَّموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، فإذا كان لا يؤوده خلقُه ورزقُه على هذه التَّفاصيل؛ فكيف يؤوده العلمُ بذلك، أو سَمْعُ كلامِهم، أو رؤيةُ أفعالِهم، أو إجابةُ دعائِهم؟!!

ومن عظمته سبحانه: أنَّه يكلِّمُ العباد يوم القيامة ويحاسبُهم، لا يَشْغَلُه هذا عن هذا. وذلك المحاسَبُ لا يرى أنّه يُحاسِب غيره، قيل لابن عبَّاس: كيف يحاسبهم في ساعة واحدة؟! قال: «كما يرزقهم في ساعة واحدة».

ومن عظمته سبحانه: أنَّ الخلق كلَّهم لا يحيطون به، روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النَّبيِّ ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: «**لو أنَّ الجنَّ والإنس والشَّياطين والملائكة منذ خُلقوا إلى أَنْ فَنَوْا، صفُّوا صفّاً واحداً، ما أحاطوا بالله أبداً**».

ومن صفاته العظيمة: غناه التَّام؛ فإنَّه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وفي قراءة: «**ولا يَطْعَمُ**» بفتح الياء، فهو الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه.

ومن مخلوقاته: الملائكة، وهم صَمَدٌ لا يأكلون ولا يشربون، كما ذكر الله ذلك عنهم في قصَّة ضيفِ إبراهيم: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هُود: ٧٠].

عباد الله:

هذه الآيات والأحاديث وما في معناها تدلُّ بداهةً على وجود الله تبارك وتعالى وعظمتِه، وأنَّه محسوس لبعض الخلق ببعض الحواسِّ الخمس؛ فقد أدرك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامَه بحاسَّةِ سَمْعِه ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء: ١٦٤]، وآدمُ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وتسمع كلامَه الملائكة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سَبَأ: ٢٣]، وأنَّه يمكن الإحساسُ به فيُرى يوم القيامة، ويُسمعُ كلامُه. والإنسان يُقِرُّ بوجودِ أشياءَ لا يَحُسُّ بها هو؛ كوجود بعض

الأماكن والأمم، وأجـدادِه الذين لـم يدركْهم؛ بل ومادَّته التي كُوِّن منها لا يَحُسُّ بها هـو ولا ينكرها عاقل(١)، لكنَّه يمكن أن يَحُسَّ بها غيرُه. أما ما لا يُحَسُّ ولا يُمكن الإحساس به فلا يكون موجوداً.

عباد الله:

ولا يكفـي الإيمانُ بـأنّ لهذا الكـون خالقـاً، ولا الإيمـانُ بـأنّ وراءَ هذا الكون قـوَّةً مدبِّرة(٢)؛ بـل لا بدَّ من الإيمـان بالله بالأوصاف التـي وصف بها نفسـه ووصفه بها رسـولُه ﷺ، وأنَّه هـو خالق هـذا الكون وحـده، والأمرُ له وحـده، والعبـادةُ له وحده، ولا بـدَّ من وجود العبـادة له وحده علـى وفق ما شرعه سبحانه.

عباد الله:

إنَّ العلم والإقـرار بصفات الله تعالـى وعظمته، يدعو الإنسـانَ إلى المبادرة بفعـل الأوامر، والابتعـادِ عـن المناهي، قـال بعض السَّـلف: «ما عصـى اللهَ إلَّا جاهل».

---

(١) قلت: وهذه الشُّبهة ـ أن ما لا يُحَسّ بالحواسِّ الخمس، أو بأحدها لا يُؤمَنُ به ـ قديمةٌ حديثة. قد شبَّه بها الدَّهريُّون على الجَهْم بن صفوان؛ فتحيَّر، قالوا له: هل رأيت إلٰهك؟ هل سمعت كلامه؟ إلخ، فقال: لا. ولم يوفق لأن يَذْكُرَ سـماعَ موسـى وآدم، وتَدكدُكَ الجبل، وأن النَّاس يرون ربَّهم يوم القيامة إلخ.
وقـال أحـد الأسـاتذة الملحدين لتلاميذه: هـل رأيتم الله؟ قالوا: لا، قـال: إذاً ما هو موجود. فرفع أحد التَّلاميذ أصبعه وقال: ألك عقل يا أستاذ؟ قال: نعم، قال: هل رأيت عقلك؟ قال: لا، قال: إذاً ليس لك عقل. فَخَجِل لما خُصم. (قصة سمعتها من بعض أساتذةٍ هناك).

(٢) كمـا شـهد بالإيمـان لعلمـاء الصِّناعة والفلـك من شـهد، وأدخلوهم في آيـة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر:٢٨]، وهـم لم يَصِلوا بَعدُ إلى إيمان أبي جهـل وأضرابِه الذين أقرّوا بربوبيَّة الله وأنكروا إخلاصَ العبادة له.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي سبَّحت الكائناتُ بحمده، هو تعالى كما وصف نفسَه، وفوق ما يصفه به خلقُه، العالِمِ بالأسرار والخفيّات.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةً مبرَّأة من الإشراك في الأقوال والأعمال والنِّـيَّات.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، شهدت برسالته المعجزات، فعليه وعلى آله وأصحابه أكملُ السَّلام والصَّلوات.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

اتَّقوا الله تعالى؛ فتقواه دلالةٌ على أنَّ المرء قدَّر عِظَمَ الله، واعبدوه كأنّكم ترونه، ولو رأيتموه في هذه الحياة لبطل التَّكليف وارتفع الثَّواب.

روى الطَّبراني: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى يقول: ثلاث غيَّبتُهُنَّ عن عبادي، لو رآهنَّ رجلٌ ما عمل بسوء أبداً، لو كشفتُ غطائي فرآني حتَّى استيقن ويعلمَ كيف أفعل بخلقي إذا أَتيتُهم وقبضتُّ السَّمواتِ بيدي، ثمَّ قبضتُّ الأرضين، ثمَّ قلت: أنا الملك، من ذا الذي له المُلْكُ دوني؟ فأُريهم الجنَّةَ وما أعددتُّ لهم فيها من كلِّ خير فيستيقنونها، وأُريهم النَّار وما أعددتُّ لهم فيها من كلِّ شرٍّ فيستيقنونها،**

ولكنْ عمداً غيَّبتُ ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون؟ وقد بيَّنته لهم».

وٱعلموا ـ عباد الله ـ أنَّ صفاتِ الله تعالى ثابتةٌ له، معلومةُ المعاني، ولا تماثلُها صفاتُ المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

وأَكثِرُوا من الصَّلاة والسَّلام على البشير النَّذير ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التّوبَة: ١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]...[(١)]

(١) تفسير ابن جرير. صحيح ابن خزيمة. بدائع الفوائد ٤/ ١٧٤، ١٧٥. إعلام الموقِّعين جـ١/ ٣٣٢، ٢٨٢. الصَّواعق ص ١٣٧٨، ٤٣١، ٤٠٤، ٤٠٥، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ٤٣٢، ١٠٨٢. فتح الباري ١٣/ ٣٩٣. الوابل الصَّيِّب ص ١١٣. فتاوى ابن تيمية ٥/ ٢٤٦، ٤٧٨، ٤٨١، ٦/ ٤١٦، ٣٩٤.

محاســن ربِّنــا ﷻ

(أسماؤه وصفاته)

الحمد لله المتفرِّد بالعظمة والجلال، الكبيرِ المتعال، حيٌّ قيومٌ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، الكبرياءُ رداؤُه، والعظمةُ إزارُه.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، القائل: «**اللَّهمَّ لك الحمد كلُّه، ولك الملك كلُّه، بيدك الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه**».

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد وعلى آله وصحبه، المعظِّمين لأمر الله ونهيه.

أمَّا بعد: فيا أيُّها النَّاس:

اتَّقوا الله تعالى، واحمدوه أَنْ عرَّفكم بنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لتَقْدُروه حقَّ قدره، وتنالوا القربَ إليه والفوزَ بثوابه.

أَخبَرَكم سبحانه أنَّه: «**الأوَّل**» بلا بداية، فقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾، وروى البخاري والتِّرمذي: عن عمرانَ بنِ حصينٍ رضي الله عنه قال: دَخلْتُ على

النَّبيِّ ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتى ناس من بني تميم، فقال: «**اِقْبَلُوا البُشْرى يا بني تميم!** قالوا: بشَّرتنا فأعطنا ـ مرتين ـ، فتغيَّر وجهه، ثمَّ دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: **اِقْبَلُوا البشرى يا أهل اليمن! إِذْ لم يقبلْها بنو تميم**، قالوا: قبلنا يا رسول الله! ثمَّ قالوا: جئنا لنتفقَّه في الدِّين، ولنسألَك عن أوَّل هذا الأمر ما كان؟ قال: **كان الله ولم يكن شيءٌ قبلَه، وكان عرشُه على الماء، ثمَّ خلق السَّمواتِ والأرض، وكتب في الذِّكر كلَّ شيء**». لمَّا سألوه عن بداية هذا العالَمِ المشاهَدِ أخبرهم أنَّه تعالى كان قبل كلِّ شيء[(١)].

وفي الدُّعاء المشهور الذي رواه مسلم: «**أنت الأوَّلُ فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهرُ فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيءٌ**»، فأوَّليَّته سبحانه سابقة على أوَّليَّة ما سواه، وآخِريَّتُه بقاؤه بعد كلِّ شيء، وظاهريَّته سبحانه فوقيَّتُه وعلُوُّه على كلِّ شيء، وبطونُه سبحانه إحاطتُه بكلِّ شيء بحيث يكون أقربَ إليه من نفسه، فما من أوَّلٍ إلَّا والله قبله، وما من آخرٍ إلَّا والله بعده، والظَّاهر: علُوه وعظمته، والباطن: قربه ودنوُّه.

وعن أبي رَزينٍ العُقَيْليِّ قال: قلت: يا رسول الله! أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السَّموات والأرض؟ قال: «**كان في عَمَاءٍ، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثمَّ خلق عرشَه على الماء، ثمَّ استوى عليه**» رواه التِّرمذي

(١) وأمَّا ما خلقه قبل ذلك شيئاً فشيئاً، فهو بمنزلة ما سيخلقه بعد قيام السَّاعة ودخولِ أهلِ الجنَّة والنَّار منازلهما، وهذا ممّا لا سبيل للعباد إلى معرفته، وأخبرت الرُّسل بتقدم أسمائه وصفاته كما في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] ونحو ذلك، قال ابن عبَّاس: «كان ولا يزال». ولم يقيِّد «كونَه» بوقتٍ دون وقت، ويمتنع أن يُحْدِثَ له غيرُه صفةً.

وابن ماجه وغيرهما. والعَمَاء: هو السَّحاب الكثيف المُطْبِق؛ كقوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ولنستمع ـ يا عباد الله ـ إلى ذكر بعضِ محاسن ربِّنا جلَّ وعلا، المتمثِّلةِ في صفاته العليا وأسمائِه الحسنى، فمنها:

أنَّه ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الذي لكمال حياته وقيُّوميَّته لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

«**مالك السَّموات والأرض**» الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلَّا بإذنه.

«**العالمُ بكلِّ شيءٍ**» الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائقِ وما خلفَهم، فلا تسقطُ ورقةٌ إلَّا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرَّةٌ إلَّا بإذنه، يعلم دبيب الخواطرِ في القلوب حيث لا يطَّلع عليها المَلَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطَّلع عليه القلب.

«**البصير**» الذي لكمال بصره يرى تفاصيلَ خلقِ الذَّرَّةِ الصَّغيرةِ وأعضاءِها ولحمِها ودمِها ومخِّها وعروقِها، ويرى دبيبَها على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة الظَّلماء، ويرى ما تحت الأرضين السَّبع، كما يرى ما فوق السَّمواتِ السَّبع.

«**السَّميع**» الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وَسِعَ سمعُه الأصوات، فلا تختلف عليه أصواتُ الخلق، ولا تشتبه عليه، ولا يَشْغَلُه منها سَمْعٌ عن سمع، ولا تُغْلِطُه المسائل، ولا يَبْرَمُه كثرةُ السَّائلين قالت عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ: «الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وإنِّي ليخفى عليَّ بعضُ كلامِها؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا

وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»[١].

«**القدير**» الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، ويجعل المؤمنَ مؤمناً، والكافرَ كافراً، والبَّرَّ برّاً، والفاجرَ فاجراً، وهو الذي جعل إبراهيم وآلَه أئمَّةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه أئمَّةً يدعون إلى النَّار. ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشيءٍ من علمه إلَّا بما شاء سبحانه أن يُعلِّمه إيَّاه. ولكمال قدرته خلق السَّموات والأرض وما بينهما في ستَّة أيَّام وما مسَّه من لُغُوبٍ، ولا يُعْجِزُه أحدٌ من خلقه ولا يفوته.

ولكمال «**غناه**» استحال إضافةُ الولدِ والصَّاحبةِ والشَّريكِ والشَّفيع بدون إذنه إليه.

ولكمال «**عظمته وعلُوِّه**» وَسِعَ كرسيُّه السَّمواتِ والأرض، ولم تسعه أرضه ولا سمواته، ولم تُحِطْ به مخلوقاته؛ بل هو العالي على كلِّ شيء، وهو بكلِّ شيءٍ محيط.

ولا تنفد «**كلماته**» ولا تُبدَّل، ولو أنَّ البحر يمدُّه سبعةُ أَبْحُرٍ مداداً[٢]، وأشجارُ الأرض أقلاماً، فَكَتب بذلك المدادِ وبتلك الأقلام؛ لَنَفِدَ المدادُ وفَنِيَتِ الأقلامُ ولم تَنْفَدْ كلماتُه، إذ هي غير مخلوقة، ويستحيل أن يَفْنَى غيرُ المخلوق بالمخلوق.

وهو سبحانه «**يُحِبُّ**» رسلَه وعبادَه المؤمنين، ويحبُّونه؛ بل لا شيءَ أحبُّ إليهم منه، ولا أشوقَ إليهم من لقائه، ولا أقرَّ لأعينهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه.

---

(١) وتقدم هذا الحديث.

(٢) المداد: الحبر.

وأنَّه سبحانه له «**الحكمة البالغة**» في خلقه وأمره.

وله «**النِّعمة السَّابغة**» على خلقه، وكلُّ نعمة منه فضل، وكلُّ نِقمةٍ منه عدل.

وأنَّه أَرحمُ بعباده من الوالدة بولدها.

وأنَّه أفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرض المُهْلكة بعد فقدها واليأس منها.

وأنَّه سبحانه لم يكلِّف عباده إلَّا وُسْعَهم ـ وهو دونَ طاقتِهم ـ.

وأنَّه سبحانه لا يُعاقِب أحداً بغير ذنبٍ فعله، ولا يُعاقبُه على فعلِ غيره، ولا يُعاقبُه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على ما لا قدرة له على تركه.

وأنَّه **حليمٌ، كريمٌ، واجدٌ، محسنٌ، ودودٌ، صبورٌ، شكورٌ**، يُطاع فَيَشْكُر، ويُعصَى فَيَغْفِر، لا أحدَ أصبرُ على أذىً سَمِعَه من الله، ولا أحبَّ إليه المدح منه، ولا أَحبَّ إليه العذرُ منه، ولا أحد أحبُّ إليه الإحسان منه، فهو محسنٌ يحبُّ المحسنين، شكورٌ يحبُّ الشَّاكرين، جميلٌ يحبُّ الجمال، طيِّبٌ يحبُّ كلَّ طيِّب، نظيفٌ يحبُّ النَّظافة، عليمٌ يحبُّ العلماءَ من عباده، كريمٌ يحبُّ الكرماء، قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضَّعيف، بَرٌّ يحبُّ الأبرار، عدلٌ يحبُّ أهلَ العدل، حييٌّ ستِّيرٌ يحبُّ أهل الحياءِ والسِّتر، عفوٌّ غفورٌ يحبُّ من يعفو عن عباده ويغفرُ لهم، صادقٌ يحبُّ الصَّادقين، رفيقٌ يحبُّ الرِّفق، جوادٌ يحبُّ الجودَ وأهلَه، رحيمٌ يحبُّ الرُّحماء، وترٌ يحبُّ الوتر.

[**وبالجملة**]: فكلُّ صفةٍ عليا، واسمٍ حسن، وثناءٍ جميل، وكلُّ حمدٍ

ومدح، وتسبيحٍ وتنزيه، وتقديسٍ وجلالٍ وإكرام؛ فهو لله عَزَّ وَجَلَّ على أكمل الوجوه وأتمِّها وأدومها.

وجميع ما يُوصَفُ به، ويُذكَرُ به، ويُخبَرُ عنه به؛ فهو مَحامِدُ له وثناءٌ عليه وتسبيحٌ وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لكثرة صفاته وكمالها؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني به عليه خلقُه، فله الحمد أوَّلاً وآخراً، حمداً كثيراً طيِّباً مبارَكاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله، ورفيعِ مجدِه وعلوِّ جَدِّه.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وٱقْدُرُوهُ حقَّ قدره.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً على نعمائه، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له إقراراً بإلٰهيَّته، واعترافاً بما يجب على الخلق من الإذعان لربوبيَّته.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه وخليلُه، أكرمُ الخلق وأزكاهم، وأعرفهم بالله وأتقاهم.

صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه النَّبيِّين، والصَّحابةِ والتَّابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد: فيا عباد الله:

قد ذمَّ الله من لم يَقْدُرْه حقَّ قدره في ثلاثة مواضعَ من كتابه: فأخبر أنَّه لم يَقْدُرْه حقَّ قدره مَنْ أنكر إرسالَه للرُّسل وإنزالَ كتبِه عليهم.

ولم يَقْدُرْه حقَّ قدرِه مَنْ عَبَدَ معه إلٰهاً آخر.

ولم يَقْدُرْه حقَّ قدره مَنْ جحد صفاتِ كماله ونعوتَ جلاله.

والإيمان به سبحانه لا يتمُّ إلَّا بتعظيمه، ولا يتمُّ تعظيمه إلَّا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه، يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيمُ الأمر يدلُّ على تعظيم الآمر.

وأوَّل مراتب تعظيم الآمر: التَّصديقُ به، ثمَّ العـزمُ الجازمُ على امتثاله، ثمَّ المسارعةُ إليه والمبادرةُ إليه ـ رغم القواطع والموانع ـ، ثمَّ بذلُ الجُهْدِ والنُّصحِ في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثمَّ فعلُه لكونه مأموراً به، سـواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشَّـرع بذكر حكمةِ الأمر أو فَقِهَها العقـل، كانت زيادةً فـي البصيـرةِ والدَّاعيةِ إلـى الامتثال، وإن لَّـم تظهرْ له حكمتُه لم يُوهِن ذلك انقيادُه، ولم يقدح في امتثاله.

ولا يغترَّ المسـلم بمن حذق في العلوم الصِّناعيَّة والرِّياضيَّة، واستنبطوا بعقولهـم وَجَوْدةِ قرائحهم وصحَّـةِ أفكارهم ما عَجَز أكثـرُ النَّاس عن تعلُّمه واستنباطِه، فَيَظُنُّ أنَّ معرفتَهم بالعلوم الإلٰهيَّة والمعارف الرَّبَّانيَّة؛ كمعرفتهم بهذه العلوم الصِّناعيَّة والرِّياضيَّة.

فهـذا الظَّـنُّ أو هـذه البَليَّة، جـرَّأت كثيـراً مـن النُّفوس علـى تكذيب الرُّسـل واسـتجهالهم. وما عَرَف أصحابُ هذه الشُّـبهةِ أنَّ الله سبحانه قد يُعطي أجهلَ النَّاسِ به وبأسـمائه وصفاته من الحِذْق فـي العلوم الرِّياضيَّة والصَّنائـعِ العجيبة مـا تَعْجَز عنـه عقولُ أكثـر النَّاس ومعارفهـم، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، وقال بعض السَّـلف: «يَبْلُغ مِنْ عِلْمِ أحدِهم بالدُّنيا، أنَّـه ينقر الدِّرهم بظفره فيعلم وزنَه، ولا علم له بشـيءٍ من دينه»، وقال تعالـى ـ في علوم هؤلاء واغترارهم بها ـ : ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣][(١)].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) طريـق الهجرتيـن ص ١٢٥، ١٣٢، ١٧٥، ١٢٧، ٢٤. الصَّواعق ص ٤٤٤، ١٣٥٨، ١٥٦١. جامع الأصول جـ ٤/ ١٥. مجموع الفتاوى جـ ٥/ ٥٥، ٢٣٨، ٢٣٩، جـ ٢/ ٢٧٥.

اللهُ الخالقُ لا الطَّبيعة

تدبير الملائكة، تسبيح المخلوقات

الحمد لله الخالقِ البارئ المصوِّر، لا يستحقُّ هذه الأسماءَ الحسنى سواه، بَرَأ الخليقةَ وأوجدها، وأبدعها على غير مثال سبق لها، وأعطى العبد التَّصرُّفَ في بعض صفات ما أوجده الرَّبُّ وبراه، يغيّرها من حالٍ إلى حالٍ على وجه مخصوص لا يتعدَّاه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، لا ربَّ لشيءٍ من الأشياء إلَّا هو، وهو إلٰه كلِّ شيء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾ [الزّخرُف: ٨٤]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيَاء: ٢٢]، وسبحان الله عمَّا يقول الظَّالمون علوّاً كبيراً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسولُه، والواسطةُ بينه وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه وخبره؛ فلا يعرفون ما يحبُّه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه إلَّا بواسطة هذا الرَّسول الذي اصطفاه الله واجتباه.

صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، الذين يُضِيفون جميعَ الحوادث إلى مشيئة الله(١)، وسلَّم تسليماً كثيراً.

(١) ويقولون: شاء الله، أو يشاء الله. ولا يقولون: شاءت إرادة الله؛ كما قد كثر إطلاق هذه العبارة، فإن المشيئة صفةٌ من صفات الله ليست هي الله؛ بل الله بصفاته هو الذي يشاء ويريد.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

الخلق أعظم الأفعال، فإنَّه لا يَقْدِر عليه إلَّا الله، فالقدرة عليه أعظم من كلِّ قدرة، وليس له نظير في قَدْر المخلوقين، فما خلقه الله من أنواع الحيوان والنَّبات والمعدن ـ كالإنسان، والفرس، والحمار، والأنعام، والطَّير، والحيتان ـ، فإنَّ بني آدم لا يستطيعون أن يصنعوا مثل هذه الدَّواب.

وكذلك الحنطة والشَّعير، والباقلَّاء واللُّوبيا والعدس، والعنب والرُّطب، وأنواعُ الحبوب والثِّمار، لا يستطيع الآدميُّون أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله سبحانه وتعالى.

وكذلك المعادن ـ كالذَّهب والفضَّة، والحديد، والنّحاس، والرُّصاص ـ، لا يستطيع بنو آدم أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله، وإنَّما غايتهم أن يشبِّهوا من بعض الوجوه، فيصغِّرون وينقلون مع اختلاف الحقائق؛ فإنَّ الله سبحانه قال في كتابه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرّعد: ١٦]، وفي الصَّحيح: عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «**ومن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرَّة، أو ليخلقوا حبَّة، أو ليخلقوا شعيرة**»، وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه لعن المصوِّرين، وقال: «**من صوَّر صورة؛ كُلِّف أن يَنْفُخَ فيها الرُّوح، وليس بنافخ**»، ولهذا يُفرَّق في هذا التَّصوير ـ بين الحيوان وغير الحيوان ـ.

وما يصنعونه فهو لم يَخْلقْ لهم مثلَه؛ فإنَّه سبحانه أقدرهم على أن يصنعوا طعاماً مطبوخاً، ولباساً منسوجاً، وبيوتاً مبنية من الفَخَّار والزُّجاج، ونحو ذلك[1].

---

(١) وهذه القاعدة التي يدلُّ عليها استقراء الوجود، من أن «المخلوق لا يكون مصنوعاً، والمصنوع لا يكون مخلوقاً»، هي ثابتة عند المسلمين وعند أوائل المتفلسفة ـ الذين تكلَّموا في الطَّبائع وغيرها ـ.

قاعدة في المحجَّة لابن تيمية ص ٣٠، ٣١، ١٩٥، ١٩٧، ١٤، ٢٨.

عباد الله:

وليس الطَّبع خالقاً لشـيءٍ؛ لأنَّ كلَّ حركة في الوجود ناشئةٌ عن الإرادة والاختيـار، والطَّبـعُ لا إرادة له ولا ٱختيـار[١]؛ فبطل أن يُضاف خلقُ شـيءٍ من المخلوقـات ـ العَرَضِيَّـة فضلاً عـن الجوهريَّة ـ[٢] إلى الطَّبـع الذي في الأجسـام ـ مثل: أن يكـون الخالق للأجنَّة فـي الأرحام هو طبـع، والخالق للنَّبات هو طبع ـ؛ بل تضاف هذه الحوادث حتَّـى أفعالُ الحيوان إلى خلق الله ومشـيئته وربوبيَّته، وهذه طريقـة أهل العلم والإيمان، وهـم أصحُّ عقلاً وديناً.

فأمَّا كثير مـن النَّاس وأهـلُ الطَّبع المتفلسـفة وغيرُهم فيعلمـون ظاهراً مـن الحيـاة الدُّنيا، ويـرون ظاهر الحـركات والأعمـال التـي للموجودات، ويرون بعض أسـبابها القريبةِ وبعض حِكَمِها وغاياتِهـا القريبة، كما يذكرون في تشـريح الإنسـان وأعضائه وحركاته الباطنة والظَّاهرة، ومـا يذكرونه من

---

(١) والحركات: إمَّا إراديَّة، وإمَّا طبيعيَّة، وإما قسريَّة.
لأنَّ الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها؛ فهي الإراديَّة.
وإن لم يكن له شعور: فإن كانت على وفق طبع المتحرك؛ فهي الطَّبعيَّة.
وإن كانت على خلاف ذلك؛ فهي القسريَّة.
الطَّبع بمنزلة السُّكون وعدم الحركة.
وٱنظـر: العقـل والنقل جـ ٩ ص ٣٢٥ قال: «لأن الحركة إن كانت قسـريَّة؛ فلها قاسـر، وإن كانـت طبيعيَّـة؛ فالطَّبعيـة لا تكـون إلَّا إذا أُخرجـت بالعيـن عـن محلّها؛ فهي مقسـورة على الخروج».

(٢) الصُّورة قد تكون عَرَضاً؛ كالشَّكل. والصُّورة الصِّناعيَّة من هذا الباب.
وقد يعبَّر بالصُّورة عن نفس الشَّيءِ المصوَّر؛ كالإنسان. فالصُّورة هنا: جوهر قائم بنفسه ليس قائماً بجوهر آخر.
والقرآن ذكر خلق الله تعالى لما خلقه من الجواهر التي هي أعيانٌ قائمة بنفسها، مع ما نشهده من إحداث الصِّفات والأعراض أيضاً، والاستدلال بذلك على الخالق سبحانه. (انظر: العقل والنقل ٧ ص ٢٣٤).

القوى التي في الأجسام التي تكون بها الحركةُ، والقوَّة الجاذبة، والهاضمة، والغاذيـة، والدَّافعـة، والمولِّـدة، وغيـرُ ذلك، إلـى غير ذلك من الأسـباب والحِكَم مـا هو عبرة لأولي الأبصار، لكن يقع الغلـط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرَّد قوَّةٍ في جسم.

وتجـد هـؤلاء إذا تكلَّمـوا فـي الحـركات التـي بيـن السَّـماء والأرض ـ مثل: حركـةِ الرِّياحِ والسَّـحابِ والمطر، وحدوثِ المطر مـن الهواء الذي بين السَّماء والأرض تارة، ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة، وكذلك إضافةُ الزَّلزلة إلى ٱحتقان البخار، وإضافةُ حركة الرَّعد إلى مجرَّد ٱصطكاك أجرام السَّـحاب، إلى غير ذلك من الأسـباب ـ، فشـهدوا بعض الأسـباب المرئيَّة، وجهلوا أكثر الأسـباب، وأعرضوا عن الخالق المسبِّب لذلك كلِّه، فضلُّوا في ذلك ضلالاً مبيناً.

فإنَّ خلق الله سـبحانه للسَّـحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض؛ كخلقـه للحيـوان مـن المنيّ، وخلـقِ الشَّـجر من الحـبِّ والنَّوى؛ ومعلومٌ أنَّ المنيَّ جسم صغير لا يشبه الذي للحيوان من الأعضاء المكسوة والمتنوِّعة في أقدارهـا وصفاتها وحِكَمها وغاياتها، هل يقول عاقل: إنَّ هذا مضاف إلى عَرَضٍ وصفةِ حالٍ في جسـم صغيـر؟! أو يضافُ هذا إلى ذلك الجسم الصغير؟! هذا من أفسد الأمور في بديهة العقل.

ومعلومٌ أنَّه لا نسـبة إلى خلق هذا من هذا، وإلى مـا يصنعه بنو آدم من الصُّور التي يصنعونها من المداد ـ مثل: الكتابةِ بالمداد، ونسـيجِ الثِّياب من الغـزل، وصُنْـعِ الأطعمة والبنيـان من موادهـا ـ، وهم مع ذلك لـم يخلقوا المواد، وإنَّمـا غايتهم حركة خاصَّـة تعين على تلك الصُّـورة. ثمَّ لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان النَّاس جميعاً يستجهلونه ويستحمقونه،

فالذي يضيف خلق الحيوان والنَّبات إلى مادَّتها، أو ما في مادَّتها من الطَّبع، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر؟!!

وقد يُعارضهم طوائف من أهل الكلام؛ فيُنكرون طبائع الموجوداتِ وما فيها من القوى والأسباب، ويدفعون ما أرى الله عبادَه من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ممَّا شهد به في كتابه من أنَّه خلق هذا بهذا؛ كقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤][(١)].

عباد الله:

جميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجنِّ والبهائم، هي من عمل الملائكة وتحريكِها لما في السَّماء والأرض وما بينهما، فما في السَّموات والأرض وما بينهما ـ من حركة الأفلاك والشَّمسِ والقمر والنُّجوم، وحركةِ الرِّياح والسَّحاب والمطرِ والنَّباتِ، وغيرِ ذلك ـ؛ فإنَّما هو بملائكة الله تعالى الموكَّلة بالسَّموات والأرض الذين ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النَّازعات: ٥]، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذّاريات: ٤]، وكما دلَّ الكتاب والسُّنَّة على أصناف الملائكة وتوكُّلِهم بأصناف المخلوقات.

وجميع المخلوقات عابدةٌ لخالقها إلَّا ما كان من مَرَدة الثَّقلين، وليست عبادتُها إيَّاه قبولَها لتدبيره وتصريفه وخلقه، فإنَّ هذا عامٌّ لجميع المخلوقات حتى كفَّارُ بني آدم؛ بل عبادةُ المخلوقات وتسبيحُها هو من جهة إلٰهيَّته سبحانه وتعالى، وهي الغاية المقصودة منها وبها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا

(١) وكلا الطَّائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التي هي عبادة ربِّها، وتسبيحُه، والسُّجودُ له.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨ـ٥٠]، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وفي الصَّحيحين: من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلمَّا غربت الشَّمس قال: «**يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب هذه؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنَّها تذهب تستأذن في السُّجود فيُؤذَنُ لها، وكأنَّها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها**، ثمَّ قرأ «ذلك مُسْتَقَرٌّ لها» في قراءة عبد الله».

واتَّقوا الله ـ عباد الله ـ.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النُّور: ٤١].

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد القهَّار، يفعل ما يشاء ويختار.

وأشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله وحده لا شـريك له، إنَّما أمـره إذا أراد شـيئاً أن يقول له: كن، فإذا قال له: كن، كان.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله المختارُ من ولد عدنـان، اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم علـى عبـدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابـه ومـن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد: أيُّها المسلم:

إنْ سَـمِعْتَ من يقول: بأنَّ وجـود الحيوان والنَّبـات والمعادن من فعل الطَّبيعة، أو حركةِ الرِّياح والسَّحابِ والمطر، أو غيرِ ذلك من فعل الطَّبيعة.

فقل له: لو أراد الله أن يهديَك لسـألت نفسك بنفسك، وقلت: أخبريني عن هذه الطَّبيعة: أهي ذات قائمة بنفسها، لها عِلْمٌ وقدرةٌ على هذه الأفعال العجيبة؟ أم ليسـت كذلـك؟! بل عَـرَضٌ وصفةٌ قائمـة بالمطبـوع تابعةٌ له محمولةٌ فيه.

فإن قالـت لك: بل هي ذاتٌ قائمةٌ بنفسـها، لها العِلـم التَّامُّ والقدرة والإرادة والحكمة.

فقل لها: هذا هو الخالق البارئ المصوِّر، فلم تسمِّينه طبيعة؟! فإنَّ هذا الذي وصفتَ به الطَّبيعةَ، صفتُه تعالى.

وإنْ قالت لك: بل الطَّبيعة عَرَضٌ محمول مفتقِرٌ إلى حامل، وهذا كلُّه فعلها بغير علم منها ولا إرادةٍ ولا قدرةٍ ولا شعورٍ أصلاً، وقد شوهد من آثارها ما شوهد؟

فقل لها: هذا ما لا يصدِّقه ذو عقلٍ سليم، كيف تصدر هذه الأفعالُ العجيبةُ والحِكمُ الدَّقيقة التي تَعْجز عقولُ العقلاء عن معرفتها، وعن القدرة عليها ممَّن لا عقل له ولا قدرة ولا شعور؟ وهل التَّصديق بهذا إلا دخول في سلك المجانين والمُبَرْسَمِين؟!!

ثمَّ قل لها بعد ذلك: ولو ثبتَ لكِ ما ٱدَّعيْتِ؛ فمعلومٌ أنَّ مثل هذه الصِّفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها، فَمَن ربُّها ومبدعها وخالقها؟ ومن طَبَعها وجَعَلها تفعل ذلك؟ فهي إذاً من أدلِّ الدَّلائل على خالقها وبارئها وفاطرها، وكمالِ علمه وقدرتِه وحكمته، فلم يُجْدِ عليكِ تعطيلُكِ ربَّ العالَم، وجحودُكِ لصفاته وأفعاله إلَّا مخالفتُكِ العقلَ والفطرة.

فإن رجَعَتْ إلى العقل وقالت: لا يوجد حكمة إلَّا من حكيمٍ قادرٍ عليم، ولا تدبير متقن إلَّا من صانعٍ قادرٍ، مختارٍ مدبِّرٍ، عليمٍ بما يريد، قادرٍ عليه لا يعجزه ولا يؤوده.

قيل لك: فإذا أقررت وَيْحَك بالخلَّاق العظيم الذي لا إلٰه غيره ولا ربَّ سواه، فَدَعْ تسميته طبيعة، أو عقلاً فعَّالاً، أو مُوجِباً بذاته، وقُلْ: هذا هو الخالق البارئ المصوِّر، ربُّ العالمين وقيُّوم السَّموات والأرضين، وربُّ المشارق والمغارب، الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلقه وأتقن ما صنع، فما لك جحدتَّ أسماءَه وصفاتِه وذاتَه، وأضفتَ صنيعَه إلى غيره، وخلقه

إلى سواه، مع أنَّك مضطر إلى الإقرار به، وإضافةِ الإبداع والخلق والرُّبوبيَّة والتَّدبير إليه ولا بد. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

على أنَّك لـو تأمَّلـتَ معنى هـذه اللَّفظـةِ «طبيعـة» لدلَّك علـى الخالق البـاري لفظُها، كمـا دلَّ العقولَ عليـه معناهـا؛ لأنَّ «طبيعة» فعيلـة، بمعنى: مفعولـة ـ أي: مطبوعة ـ؛ لأنَّهـا على بناء الغرائـز التي رُكِّبت في الجسـم، ووضعـت فيه كالسَّـجيَّة والغريـزة والسَّـليقة، فالطَّبيعة هي التـي طُبع عليها الحيوان وطُبعت فيه، ومعلومٌ أنَّ طبيعةً من غير طابعٍ لها مُحال.

والمسلمون يقولون: إنَّ الطَّبيعة خَلقٌ من خلق الله مُسخَّر مربوب، وهي سنَّته في خليقته التي أجراها عليه، ثمَّ إنَّه يتصرَّف فيها كيف شاء وكما شاء، وإنَّ الطَّبيعـة التي أنتهى نظر الخفافيش إليها إنَّمـا هي خلق من خلقه بمنزلة سـائر مخلوقاته، فكيف يحسن بمن له حظٌّ من إنسانية أو عقل أن ينسى مَنْ طَبَعها وخلقها ويُحيـل الصُّنع والإبداع عليها؟!، ولم يزل سـبحانه يَسـلُبُها قدرتَهـا، ويُحيلها ويقلِّبها إلى ضدِّ ما جُعلت له، حتى يُـريَ عبادَه أنّها خلقُه وصُنْعُه مسخَّرةٌ بأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤][(١)].

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، واعلموا أنَّ أحسن الحديث...

---

(١) مفتاح دار السَّعادة ص ١٦١، ٣٨٨. شفاء العليل ص ١٣١، ٣٢. قاعدة في المحجة ص ١٤، ٢٣، ٢٦، ٣٠، ٣١، ١٩٥ ـ ١٩٧، ٢٨. فتاوى جـ ٢٩/ ٣٦٨ وجـ ١٦/ ٣٥٣. روضة المحبين.

* وإذا أردت زيـادة أدلـة علـى توحيد الرُّبوبيَّة ـ إثبات الصَّانع ـ وطريقةِ الرُّسـل وطرقِ الصَّائبة والمتفلسـفة والمتكلِّميـن والصُّوفية فـي إثباته. وبيانِ بطلان القولِ بقِدَم العالم أو شـيء منه. وذكرِ المواد التي خلقت منها السَّموات وآدمُ والجن. وبيانِ بطلان جحود الصَّانع.
إذا أَردت ذلـك: فانظـر المجلد ٣٦ فهارس مجموع فتاوى ابـن تيمية ص ٢١ ـ ٣١ تُطْلعك على ملخصها، وتدلُّك على أصولها في المجموع.

ما اتَّخذ اللّٰهُ من ولدٍ سبحانه

الأديان الخمسة

الحمـد لله الذي رضي لنا الإسـلام دينـاً، ونصب الدّلالـة على صحَّته، وأوضح السَّبيل إلى معرفته، وٱدَّخر لمن وافاه به أجراً جزيلاً، وفرض علينا الانقيادَ له ولأحكامه، والتَّمسُّـكَ بدعائمه وأركانه، وأبى أن يَقْبَل ديناً سواه، ولو بَذَلَ في المسير إليه جُهْدَه(١) وٱستفرغ قواه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، ولا ضدَّ له، ولا صاحبة له، ولا ولـد لـه، ولا كفو لـه، تعالـى عـن إفـك المبطليـن، وتنزَّه عن شـرك المشركين.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسـوله، وصفوتُه من خلقه، ٱبتعثـه بخير ملَّة وأحسنِ شِـرْعَة إلى جميع العالمين. بشَّـرت به الكتب السَّالفة، وأخبرت به الرُّسل الماضية ـ من عهد آدمَ أبي البشر، إلى عهد المسيح ٱبنِ البشر ـ.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه الذيـن ٱختارهـم الله لـه أعوانـاً وأنصاراً؛ فنشـروا ألويـةَ الإسـلام وأعلامَه، وحفظوا من التَّغيير والتَّبديل حدودَه وأحكامَه.

---

(١) غاية طاقته.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنّ الله جعل الإسـلام عصمة لمن لجـأ إليه، وحصناً لمن ٱستمسـك به وعـضَّ بالنَّواجذ عليـه؛ فهو حرمُـه الذي مَنْ دخلـه كان مـن الآمنين، ومَن ٱنقطع دونـه كان مـن الهالكين. أظهـره على الدِّيـن كلِّه حتى طبَّق مشـارقَ الأرض ومغاربَهـا، وتضاءلت له جميعُ الأديان، وجرت تحتـه الأممُ منقادةً بالخضوع والـذُّلّ والإذعان، حتـى بطلت دعوةُ الشَّـيطان، وتلاشـت عبادةُ الأوثان، وٱضمحلَّت عبادةُ النِّيران، وذلَّ المثلِّثةُ ـ عُبَّادُ الصُّلبان ـ، وتقطَّعت الأمَّةُ الغضبيَّةُ في الأرض كتقطُّع السَّراب في القيعان.

عباد الله:

إنَّ الله تبـارك وتعالى لمَّـا بعث محمَّـداً ﷺ كان أهـلُ الأرض صنفين: أهـلَ كتاب، ومـن لا كتابَ لهـم. وأهلُ الكتـاب نوعان: مغضـوب عليهم، وضالُّون.

فالأمَّـة الغضبيَّة: هم «**اليهود**»، يصفـون الله بالنَّقائص والعيوب[١]، وهم قَتَلَـةُ الأنبيـاء، وأَكَلَـةُ الرِّبا والرِّشـا، أخبـثُ الأمم طويَّـة، وأرداهم سَـجِيَّة، وأبعدُهم من الرَّحمة، وأقربُهم من النِّقمة، لا يرون لمن خالفهم حرمة، ولا يرقُبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمَّة. وهم أهل الكـذب والبُهْتِ، والغدرِ والمكر، والحيلِ والسِّحر.

(١) مع علمهم بأنَّها عيوبٌ ونقائص، كما صرَّحت به اليهود. من قولهم: إنَّه فقير، وإنَّه تعب لما خلق العالم، وإنَّه بكى على الطُّوفان حتى رَمِدت عيناه وعادَتْه الملائكة، وإنَّه ندم على خلقِ آدمَ وذريَّتِه ندماً عظيماً حتى عضَّ أناملَه، ويقولون في صلاتهم: يا إلٰهنا ٱنتبه من رقدتك كم تنام، ونحو ذلك.
و«الاتِّحادية» مصرِّحون بأنَّه موصوف بكلِّ صفة مذمومة عقلاً وعرفاً وشرعاً.
ومعلـومٌ أن هـذه النَّقائـصَ هـي التـي دلَّ العقل الصَّريح وٱتفاق المرسـلين ـ مـن أولهم إلى آخرهم ـ على نفيها عن الله وتنزيهه عنها. (الصواعق ٣/ ١٠١٠، ١٠١١).

والنَّوع الثَّاني: «**المُثلِّثة**» ـ أمَّةُ الضَّلال، وعُبَّاد الصَّليبِ ـ الذين سبُّوا الله مسبَّة ما سبَّه إيَّاها أحد من البشر، ولم يُقرُّوا بأنَّه الواحد الأحد، الفردُ الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد؛ بل أصل عقيدتهم: أنَّ الله ثالثُ ثلاثة، وأنَّ مريمَ صاحبتُه، وأنَّ المسيحَ ٱبنُه.

فدينهم: عبادةُ الصُّلبان، ودعاءُ الصُّوَرِ المنقوشةِ في الحيطان، يقولون في دعائهم: يا والدةَ الإلٰه ٱرزقينا، وٱغفري لنا وٱرحمينا.

ومن دينهم: شربُ الخمور، وأكلُ الخنزير، وتركُ الخِتان، والتَّعبُّدُ بالنَّجاسات، وٱستباحةُ كلِّ خبيثٍ ـ من الفِيلِ إلى البعوضة ـ، والحلالُ ما حلَّله القسُّ، والحرام ما حرَّمه، والدِّين ما شرعه، والذَّنب هو الذي غفره.

ويعتقدون أنَّ أرواح الأنبياء عليهم السلام كانت في الجحيم، في سجن إبليس ـ من عهد آدمَ إلى زمن المسيح ـ بسبب خطيئةِ آدمَ وأكلِه من الشَّجرة، وأنَّ كلَّ من مات من بني آدم أخذه إبليسُ وسجنه في النَّار بذنب أبيه، قالوا: ثُمَّ إنَّ الله لمَّا أراد رحمتهم وخلاصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة؛ فنزل عن عرشه، ودخل في رَحِمِ مريم، وأقام هناك تسعة أشهر بين الحيض والبول، ثمَّ خرج طفلاً صغيراً يرضع ويبكي، ويأكل ويشرب، ويبول وينام، ويألم؛ ثمَّ لمَّا كبِر وصار رجلاً، مَكَّنَ أعداءَه اليهودَ من نَفْسِه، حتى صلبوه، وسمَّرُوا يديه ورجليه، وصفعوه، ووضعوا الشَّوك على رأسه، فخلصهم بذلك من الشَّيطان، ولذلك سمَّوْه «المخلِّص».

قالوا: ومن أنكر صَلْبَه، أو شكَّ فيه، أو قال: بأنَّ الإلٰه يُجَلُّ عن ذلك؛ فهو في سجنِ إبليسَ معذَّب حتى يُقرَّ بذلك.

هذه قصَّة «**الفداء**» التي زعموا، يردِّدونها على رأس سنتهم الميلاديَّة ويُدَرِّسونَها؛ هي أهم دليل عندهم في الدَّعوة إلى التَّنصير؛ وهي ـ كما

تسـمعون ـ غايةُ النَّقص المنافـي لكمال الله حتى عند النَّصارى، ويسـتحيل في العقول السَّـليمة التَّصديقُ بها؛ إذ نسـبوا الإلٰه الحقَّ إلى ما يأنف أَسْـقَطُ النَّـاس وأقلُّهم عقـلاً أن يفعلـه بمملوكه أو خادمـه ـ تعالى الله عـن قولهم علُوّاً كبيراً ـ، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ تاب من الذَّنب؛ فتاب الله عليه، وإبليس أحقرُ ممَّا نسبوه إليه.

وأوَّل مـن ٱبتدع لهـم شـارةَ الصَّليـب: المَلِـكُ قُسْـطَنطين، وفـي زمنه وضعوا ما يسـمُّونه «الأمانة» ـ وهـي عقيدة التَّثليث ـ، عـن عديٍّ بن حاتم قال: «أتيـت النَّبيَّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقـال: «**يا عَدِيّ! ٱطرح عنك هذا الوثن**».

ولمَّـا كانت هذه أقـوال أعداءِ المسـيح ـ من اليهـود، والغاليـن فيه من النَّصارى ـ أنـزل الله تبـارك وتعالى على نبيِّه ﷺ مـا أزال الشُّـبهة في أمره، وكشـف الغُمَّة، وبرَّأ المسـيحَ وأُمَّه، ونزَّه ربَّ العالمين عمَّا ٱفتراه عليه عُبَّادُ الصَّليب؛ فآمن محمَّدٌ بأخيه المسـيح، وشـهد له بأنَّه عبدُ الله ورسـولُه، وأنَّ جسـمه خُلِقَ من أنثى بلا ذكر، وأنَّ الله أرسـل روحه جبريلَ إلى مريم فنفخ في جيب دِرْعها ـ وهو الطّوق الذي في العنق ـ فوصلت النَّفخة إلى الرَّحِم، ولم يكشف بدنها، وكانت تلك النَّفخةُ بمنزلة لقاح الأب والأم، فحملت به مريمُ العذراءُ الطَّاهرةُ الصِّدِّيقة، ثمَّ نُفخت فيـه الرُّوح التي تكون بعد مضيِّ أربعةِ أشهرٍ على خَلْق البدن كغيره.

وقـرَّر النَّبـيُّ ﷺ معجـزاتِ المسيحِ وآياتِـه، وأخبـر بكفـر النَّصـارى وتخليدهـم فـي النَّار إن لَّـم يتوبـوا ويسـتغفروا ربَّهـم، وأنَّ الله أكـرم عبدَه ورسـولَه أن ينال إخـوانُ القردة منـه ما زعمه النَّصـارى أنَّهم نالـوه منه؛ بل رفعه إليه وأسكنه السَّـماء، وسَيُعِيدُه إلى الأرض ينتقمُ به من مسيح الضَّلال

وأتباعِـه، ويكسِـر بـه الصَّليـب، ويقتـل الخنزير، ويضـع الجزيـة، ويعلو به الإسلام.

أمَّا صـلاة النَّصارى: فمفتاحها النَّجاسـة، وتحريمها التَّصليـب، وقِبلَتُها الشَّـرق، وشـعارها الشِّـرك؛ يقـوم أعبدهـم وأزهدهـم إليها ـ والبـولُ على سـاقه وأفخاذه ـ، فيسـتقبل المشـرق، ثمَّ يُصلِّب علـى وجهه ـ يَرْسُـم بين عينيه خطّيـن متخالفين ـ ويسـتفتح الصَّلاة بقولـه: «يا أبانا! أنـت الذي في السّموات تَقَدَّس ٱسمك[١]، وليأت مُلْكُك، ولتكن إرادتُك في السَّماء مثلَها في الأرض، أعطنا خبزَنا المُلائمَ لنا»، ثمَّ يدعو تلك الصُّورة التي هي صَنْعةُ يد الإنسـان، وهي الإله المصلـوب بزعمه[٢]، ويقرؤون فـي صلاتهم كلاماً قد لحَّنه لهم أئمتهم يجري مجرى النَّوح والأغاني.

أمّا فروعُ دينِهم وشـرائعُه: فهم مخالفون فيه للمسـيح؛ فالمسيح يتطهَّر ويغتسـل من الجنابـة ويُوجب غُسْـلَ الحائض، والمسـيح يقـرأ في صلاته مـا كان الأنبياء وبنـو إسـرائيل يقرؤونه فـي صلاتهم مـن التَّـوراة والزَّبور، والمسـيح يصلِّـي إلـى بيـت المقدس إلـى أن رفعـه الله ـ وهـي قبلـة داودَ والأنبيـاءِ قبلـه، وقبلةُ بنـي إسـرائيل ـ، والمسـيح ٱختتن، وأوجـب الختان كما أوجبه الأنبياءُ قبلَه، والمسـيحُ حـرَّم الخنزيرَ ولعن آكلَـه وبالغ في ذمِّه، والمسـيح لم يشـرع لهم هذا الصَّوم الـذي يصومونه ولا صامـه في عمره،

---

(١) «الإنجيل لربنا يسوعَ المسيح» هكذا مكتوب على غلافه.

(٢) قلـتُ: ومـن القـرَّاء مـن يكثر قـراءةَ قصَّة مريم في سـورة مريـم من قولـه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريـم: ١٦] إلى قولـه: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، ولا يقـرأ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٩].

ولا أكل في الصَّوم ما يأكلونه، ولا حرَّم فيه ما يحرمونه، ولا عطَّل السَّبت، ولا اتَّخذ الأحد عيداً، والمسيحُ سار ـ في الذَّبائح والمناكح والطَّلاق والمواريث والحدود ـ بسيرة الأنبياء قبله، والمسيحُ لم يفوِّض الأساقفة والبطاركة في التَّشريع، وكان أصحابُ المسيح بعده على نهجه قريباً من ثلاثِ مِئة سنة ـ وهم الذين أثنى الله عليهم في القرآن وعلى البقايا الصَّالحة منهم ـ، ثمَّ أخذوا في التَّغيير والتَّبديل والتَّقرُّب إلى النَّاس بما يَهْوون، ومكايدةِ اليهود ومناقضتِهم بما فيه تركُ دين المسيحِ والانسلاخُ منه جملة.

فهذا دين النَّصارى بعد البعثة وإلى اليوم، باطِلهُ أضعافُ أضعافِ حقِّه، وحقُّه منسوخ.

وأمَّا من لَّا كتاب له: فهو بين عابدِ أوثان، وعابدِ نيران، وعابدِ شيطان، وصابئي حيران؛ يجمعهم الشِّركُ وتكذيبُ الرُّسلِ وتعطيلُ الشَّرائع وإنكارُ المعاد وحشرُ الأجساد، لا يدينون للخالق بدين، ولا يعبدونه مع العابدين، ولا يوحِّدونه مع الموحِّدين. وأُمَّة المجوس منهم تفترش الأمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ، دَعِ العمَّاتِ والخالاتِ، دينُهم الزَّمْر، وطعامهم الميتة، وشرابهم الخمر، ومعبودهم النّار، ووليُّهم الشَّيطان.

الخلاصة ـ يا عباد الله ـ: أنَّ الله لمَّا بعث محمَّداً ﷺ رسولاً إلى أهل الأرض كانوا خمسة أصناف: يهود، ونصارى، ومجوس، وصابئة، ومشركون ـ ودين الحنفاء لا يُعرف فيهم إلَّا قليلاً ـ، وهذه الأديان الخمسة كلُّها للشَّيطان، وهذه الأديان الخمسة مذكورة في آية الفصل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحَجّ: ١٧]، ولكلٍّ قوم وارث.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وكونوا دائماً على بصيرة في الاعتقاد في

الله ﷻ وتقدَّست أسماؤه، وفي المسيحِ رسولِ الله، واْحذَرُوا وحذِّروا من دعاة التَّنصير الذين هذه بضاعَتُهم، ومع ذلك لم يَسْتَحْيُوا من الدَّعوة إليها ونشرها والإنفاق في سبيلها حين ظنُّوا أنَّ الجوَّ قد خلا لهم، وسَمَّوْا أنفسهم «المبشِّرون»، وهم المضلِّلون، وأَكْثَرُوا من الدِّعاية إلى التَّقريب بين الإسلام والنَّصرانيَّة، واْنخدع بهم كثير من ضعاف الإيمان، فظنُّوا أنَّ اليهوديَّة والنَّصرانيَّة في هذه الأزمان من الأديان السَّماوية، واْعتبروهم مؤمنين وإخواناً، وهم أعداء الله وأولياء الشَّيطان، جمعوا بين الكفر بالله، وتكذيبِ رسل الله، وعبادةِ غير الله.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٣]

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أنقذنا بمحمَّد ﷺ من تلك الظُّلمات، وفتح بابَ الهدى فلا يُغلقُ إلى يوم الميقات.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، أرانا أهـلَ الضَّلال وهم في ضلالهـم يتخبَّطون، وفي سَـكْرَتهم يعمهـون، وفي جهالتهـم يتقلَّبون، وفي رَيبهم يتـردَّدون. يؤمنون؛ ولكـن بالجبت والطَّاغـوت! يؤمنـون ويَعْدِلون؛ ولكن بربِّهـم يَعْدِلون! ويعلمـون ظاهراً مـن الحياة الدّنيا وهـم عن الآخرة هم غافلون، ويسجدون؛ ولكن للصَّليب والوثن يسجدون! ويمكرون؛ وما يمكرون إلَّا بأنفسهم وما يشعرون.

وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبـده ورسـوله، بعثـه الله إلى النَّـاس كافَّـة، وقال: «**والذي نفسـي بيده، لا يسـمعُ بي أحدٌ من هـذه الأمَّة يهـوديّ ولا نصرانيّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسـلت به؛ إلَّا كان مـن أصحاب النَّار**» أخرجه مسلم، قال سـعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ [هُود: ١٧]»، وكان غـلامٌ يهـودي يَخْـدُم النَّبـيَّ ﷺ فمرض، فأتـاه النَّبيُّ ﷺ يعوده فقعد عند رأسـه فقال له: «**أَسْـلِم**، فنظر إلـى أبيه وهـو عنده! فقال: أَطِعْ أبا القاسـم، فأسـلمَ، فخرج النَّبيُّ ﷺ وهو يقول: **الحمـد لله الذي أنقذه من النَّار**» أخرجـه البخاري، ومرَّ عمر بن

الخطَّاب رضي الله عنه بِدَيرِ راهبٍ فناداه: «يا راهب! فأشْرفَ، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] فذاك الذي أبكاني».

اللّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، الذي ٱستجاب له ولخلفائه أكثرُ الأديان طوعاً وٱختياراً، لا كَرْهاً وٱضطراراً، لمَّا بيّن لهم الهدى، وأنَّه رسول الله حقّاً. والسَّيف إنَّما جاء مُنَفِّذاً للحجَّة، مُقوِّماً للمعاند، وحدّاً للجاحد.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الله تعالى قد نوَّع خلقَ آدم وبنيه إظهاراً لقدرته، وأنَّه يفعل ما يشاء؛ فَخَلق آدمَ لا مِنْ ذَكَرٍ ولا من أنثى، وخلق زوجَه حوَّاءَ مِنْ ذَكَر لا من أنثى، وخلق عبدَه المسيحَ من أنثى لا من ذكر، وخلق سائرَ النَّوع من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: ٥٩][(١)].

وٱتّقوا الله عباد الله:

إنَّ أحسن الحديث...

(١) هداية الحيارى. الصَّواعق ص ١٠١٠، ١٠١١. فتاوى جـ ١٧، ص ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٨٣، ٢٨٢. والجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح ص ٢٦٢، ٢٨٢، ٢٨٣.

معجزات الأنبياء

من أعظم الأدلَّة على الخالق، وصفاتِه، وصدقِ رسله، واليومِ الآخر والقرآنُ أعظمها

الحمد لله الذي أرسل رسله ودلَّل على صدقهم بالمعجزات، والحُججِ الباهرات، والدَّلائلِ القاطعات.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، نوَّع طرقَ الهداية رحمةً منه بعباده ولُطفاً، ومحبَّةً منه لإقامة الحجَّة وعُذْراً ونُذْراً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، ميَّزه بخصائصَ على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شِرْعَةً ومنهاجاً أفضلَ شِرعةٍ وأكملَ منهاجٍ مبين.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

عباد الله:

آيات الرَّبِّ هي دلائله وبراهينه الَّتي بها يعرفه العباد، وبها يَعرفون

أسـماءَه وصفاتِه، وأفعالَـه وتوحيدَه، وأمـرَه ونهيَه، أخبر سـبحانه أنَّه يدلُّ بآياته الخَلْقيَّةِ «الأُفُقِيَّة» من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان(١).

«والنَّفسيَّةِ» ما الإنسـانُ مركَّـبٌ منه وفيـه وعليه من المـواد والأخلاط والهيئات العجيبة، وكذلك مـا هو مجبول عليه من الأخـلاق المتباينة، وما هو مُتَصَرَّف فيه من الأقدار التي لا يجوزها ولا يتعدَّاها.

يـدلُّ بهذه الآيـات على صـدق آياتـه القرآنيَّة وصدق رسـوله، ثـمَّ ذكر أعظم من ذلك وأجلَّ وهو شـهادته سـبحانه على كلِّ شـيءٍ شـهد لرسـوله بقوله ـ الـذي أظهر البراهين علـى صدقه فيه ـ، وبفعله وإقـراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار له بكماله سبحانه.

وفي كلِّ وقت يُحْدِث مـن الآيات الدَّالةِ على صدق رسـوله ما يُقِيم به الحجَّةَ، ويُزيل به العذر، ويَحْكُم له ولأتباعه بما وعدهم به من العزِّ والنَّجاة والظَّفـر والتَّأييد، ويَحْكُم علـى أعدائه ومكذبيه بما توعَّدهـم به من الخزي والنَّكال والعقوبات المعجَّلة.

وقـال تعالـى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقِعَة: ٨٠] اُسْـتَدَّل بكونـه ربَّ العالميـن، على ثبوتِ رسـالةِ رسـوله وصحَّـةِ ما جـاء به، وهـذا أقوى من الاستدلال بالمعجزات وخوارق العادات.

وكذلك آياتُ الأنبيـاء قبلَه وبراهينُهم وأدلَّتُهم، شـهادةٌ من الله سـبحانه لهـم بيَّنها لعباده غايةَ البيـان، وأظهرها لهم غايةَ الإظهـار بقوله وفعله، ففي الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**ما من نبيٍّ من الأنبياء إلَّا وقد أُوتي من الآيات ما**

(١) قلتُ: وهذا التَّفسـير يبيِّن خطأ من فسَّـر «الآفاق» بالنُّجوم والمَجرَّات وما إلى ذلك، مع أنَّهم أيضاً ينكرون السَّموات، ولا يُعرِّجون على ما فوقها، يثبتون النُّجومَ والمَجرَّاتِ فقط.

آمن على مثله البشـر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة».

وهذه الآيات التي تُسمَّى «المعجزات» مأخوذة من طُرُقِ الحِسِّ لِمَن شـاهدها، ومن طريق اسـتفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلمَّـا ثبتت النُّبوَّة صارت أصلاً فـي قبول ما دعا إليه النَّبيّ، فانقلاب عصـاً تُقِلُّها اليدُ ثعباناً عظيمـاً يبتلع ما بحضرته مـن حبالٍ وعِصِـيٍّ لا يحصيهـا إلَّا الله ثمَّ تعود عصاً كما كانت، مـن أدلِّ الدَّليل على وجود الله وحياتـه وقدرته وإرادته وعلمـه بالكلِّيَّـات والجزئيَّـات، وعلـى رسـالة الرَّسـول، وعلـى المبدأ والمعاد؛ فكلُّ قواعد الدِّين في هذه العصا.

وكذلك اليد التي أدخلها صاحبُ هذه العصا إلى جيبه ثمَّ أخرجها؛ فإذا لها كشُعاع الشَّـمس، وكذلك الكثيبُ العظيمُ الذي ضربه بعصاه؛ فاستحال قُمَّلاً سُلِّط على أهل بلد عظيم.

وفُلِقَ بحرٌ من بحار العالم لعسـكرٍ عظيمٍ اثني عشـر طريقاً، ثمَّ أُرسلت عليه الرِّيحُ فأيبسـته في سـاعة، وقام الماء بين تلك الطُّـرق كالحيطان، فلمَّا جاوزه وسلكه آخرون ضربه بعصاه فالتئم عليهم فلم يَفْلِتْ منهم إنسان.

ونُتِـقَ الجبـلُ مـن موضعـه، ورَفعَـه علـى قـدر العسـكر العظيـم فوق رؤوسـهم بين السَّـماء والأرض وهم ينظرون إليـه عِياناً، وقيـل لهم: إن لَّم تقبلوا ما أُمرتم به وإلَّا أُطْبِقَ عليكم، ثمَّ رُدَّ إلى مكانه.

وضُـرِب حجرٌ مُربَّع يُحمل مع قـوم فينفجر منه اْثنا عشـر نهراً، كلُّ نهر لطائفة عظيمة يختصُّون بمشربه لا يُشاركهم فيه الآخرون.

وكذلك سـائر آيات الأنبيـاء؛ كأمّةٍ كذَّبـت نبيَّها وسـألوه آيـة، فانْفَلَقَتْ

صخرةٌ بمَحْضَرٍ منهم وتمخَّضت عن ناقةٍ قائمةٍ من أعظم النُّوق وأحسنِها شكلاً وهيئة، فلمَّا تمادوا في تكذيبه، سمعوا صيحة من السَّماء قطّعت أكبادَهم وقلوبَهم في أجوافهم؛ فماتوا موتةَ رجلٍ واحد.

وكذلك تصوير طائرٍ من طين ثمَّ يَنْفُخ فيه النَّبيُّ؛ فينقلب طائراً ذا لحمٍ وريشٍ وأجنحةٍ يطير بمشْهَدٍ من النَّاس.

والمسحُ على عينِ الذي وُلِد أَكْمَهَ؛ فإذا به يُبْصر بعينين كالصَّحيح، وعلى الأبرصِ فيبرأ كأن لَّم يكن به بأس.

وكذلك النَّارُ العظيمة التي أُوقِدَتْ بُرْهَةً من الزَّمن حتَّى كان الطَّير يمرُّ عليها من عالٍ فيقع مشويّاً، أُلْقِي فيها رجلٌ مكتوفٌ فلم تُحْرِق منه شيئاً، وصارت عليه برداً وسلاماً، وعادت روضةً خضراءَ وماءً جارياً.

وكذلك المدائن التي قُلعت من أصولها كما يُقلع الشَّجر، ثمَّ رُفِعَت في الهواء، ثمَّ قُلِبَت بمن فيها، فماتوا مَوْتَةَ رجلٍ واحدٍ.

ورجلٌ دعا على قومه أَلَّا يَدَعَ اللهُ منهم على الأرض دَيَّاراً؛ فأُرسل الماءُ عليهم، وأُنبع الماء من تحتهم، حتى علا الماءُ فوق شواهق الجبال علُوّاً عظيماً، ثمَّ ٱبتلعته الأرض شيئاً فشيئاً حتَّى عادت يابساً.

ورجلٌ دعا على قومه ـ وهم أعظم النَّاس أجساماً وأشدُّهم قوَّة ـ؛ فأُرسلت عليهم بدعوته ريحٌ عاصف جعلت تحملهم بين السَّماء والأرض، ثمَّ تدقُّ أعناقهم.

ونبيٌّ كان يأمر بعسكره فيقعد على بساطٍ ـ ثلاثةِ أميالٍ في ثلاثةِ أميال[1] ـ فيأمر الرِّيح فترتفع به بين السَّماء والأرض، فتحمل العسكرَ على

(١) والميل: ألف وستّ مئة وتسعة أمتار وأربعة وثلاثون سنتاً (١٦٠٩,٣٤).

متنها مسـيرةَ شهرٍ مقبلة، ومسيرةَ شـهر مدبرةً في يوم واحد، وأنَّه أَمَرَ بسريرٍ عظيم لِمَلِكَةٍ فشقَّ الأرض وصار بين يديه في أسرع من رَدِّ الطَّرْف.

وكذلك إيماء الرَّسول إلى القمر في السَّـماء، لمَّا سأله قومُه آيةً؛ فانشقَّ فِلْقتين وهم يشـاهدونهما، ثمَّ عاد والْتَئَمَ، وقدم السُّـفَّار فأخبروا برؤية ذلك عِياناً.

وحُمِلَ من مكَّة إلى بيت المقدس، ثمَّ رُفِع حتَّى جاوز السَّمواتِ السَّبع، ثمَّ عاد إلى فراشـه في ليلته، وَقَبَضَ قبضةً من تـراب، ثمَّ رمى بها في وجوه عسكرٍ لا يلتقي طرفاه؛ فلم يبقَ منهم أحد إلَّا ملأت عينَه.

وكذلك وضعه يـدَه في مـاءٍ لا يَغْمُرها؛ فتَفجَّـرَ الماءُ من بيـن أصابعه، وصار كأمثال العيون حتى رَوِيَ منه عسكرٌ عظيمٌ جَرَّارٌ، ومَلَئوا منه كلَّ قِرْبةٍ وكلَّ إناءٍ معهم.

وأنَّ جماعةً شَـبِعت مـن بُرْمَةٍ بِقَدْر جِسْـمِ القَطا، وأنَّ جِذْعـاً حنَّ حنينَ النَّاقةِ العِشَـار إلـى ولدهـا، وأنَّ الحصا كان يسـبِّح في كفِّه وكـفِّ أصحابه تسبيحاً يسمعه الحاضرون.

وأنَّ الحَجَر كان يسلِّم عليه سـلاماً يسمعه بأذنه، وأنَّ بطنه شُقَّ من ثغرةِ نَحْره إلى أسـفله، ثمَّ اسـتُخْرِج قلبُه فغُسِـل، ثـمَّ أُعيد وهو حـيٌّ ينظر، وأنَّ شـجرتين دعا بهما فأقبلتـا تجرَّان الأرض حتـى قامتا بين يديـه فالتزقتا، ثمَّ رَجَعت كلُّ واحدةٍ منهما إلى مكانها.

إلـى أمثال ذلك من المعجـزات التي هي من أعظم الأدلَّـة على الخالق سبحانه، وصفاتِه وأفعالِه، وصدقِ رسله، واليومِ الآخر.

هذا وإنَّ القرآنَ وحده لمـن جعل الله له نوراً، أعظمُ آيـةٍ ودليلٍ وبرهانٍ

على هذه المطالب، قال تعالى ـ لمن طلب آية تدلُّ على صدق رسوله ـ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ ففيه الحجَّة والدَّلالة على أنَّه من الله، وعلى أنَّ الله سبحانه أرسل به رسوله، وأنَّ الذي جاء به أصدقُ خَلْقِ الله وأبرُّهم وأكملُهم علماً وعملاً ومعرفة، وفيه ـ ما يُوجب لمن اتَّبعه ـ السَّعادةُ ويُنجِّيه من العذاب.

فاتَّقوا الله، واعتبروا يا أولي الألباب.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٥].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، قيُّومِ السَّموات والأرضين، الموصوفِ بالكمال كلِّه، المنزَّهِ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وعن كلِّ شبيهٍ أو مثيلٍ في كماله.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وفَّق من شاءَ من عباده نعمةً منه وفضلاً، وخَذَلَ من أعرض عنه حكمةً وعدلاً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه المصطفى، المصدَّقُ بالآيات التي لا تُحصى، صلَّى الله عليه وعلى آله وجميع أصحابه، ومن سار على نهجهم واقتفى.

أمَّا بعد:

فإنَّ الله جلَّ وعلا نَوَّع طرق الهداية رحمةً منه بعباده ولطفاً بهم؛ لِتَفَاوت عقولِهم وأذهانهم وبصائرهم، فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به الرَّسولُ ودعا إليه من غير أن يَطْلُبَ منه برهاناً خارجاً عن ذلك، كحال الكُمَّل من الصَّحابة كالصِّدِّيق رضي الله عنه.

ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله صلى الله عليه وسلم وما فُطِر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأنَّ عادة الله ألا يُخزيَ من قامت به تلك الأوصافُ والأفعال، كما قالت أمُّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها له صلى الله عليه وسلم: «أبشر، فوالله لن

يخزيَك الله أبداً، إنَّك لتصل الرَّحم، وتَصْدُقُ الحديث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيف، وتُعين على نوائب الحقِّ»، وهذه المقامات في الإيمان، عجز عنها أكثر الخلق؛ فاحتاجوا إلى الآيات وخوارق العادات.

وأضعف النَّاس إيماناً: من كان إيمانه صادراً عن المظهرِ ورؤيةِ غَلَبَتِه ﷺ للنَّاس على صحَّة الرِّسالة،

وأضعف مِنْ هؤلاء إيماناً: مَن إيمانُه إيمانُ العادة والمَرْبأ والمنشأ، فإنَّه نشأ بين أبوينِ مسلمينِ وأقاربَ وجيرانٍ وأصحابٍ كذلك.

والله سبحانه قد فاوت بين البشَر؛ فبعضهم أفضل من الملائكة، وبعضهم لا يرضى به الشَّيطان وليّاً.

فاسألوا الله ـ عباد الله ـ أن يقوِّيَ إيمانكم بربِّكم، وتصديقَكم برسله؛ فالإيمانُ بالرَّسول هو تصديقه فيما أخبر، وطاعتُه فيما أمر، واْجتنابُ ما نهى عنه وزجر، وألَّا يُعبدَ اللهُ إلَّا بما شرع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفَال: ٢٤][(١)].

إنَّ أصدق الحديث كتابُ الله...

---

(١) مدارج جـ ٣/ ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٢٦. جـ ٤/ ١٠٥، ٤٥٣، ٤٧٠. التبيان ص ١٤٤، ١٤٥. الصَّواعق ١١٩٦، ٩٧٧، ٩٧٦، ١١٩٧، ٨٨٢. مفتاح ص ١٣، ١٤، ١٤٦. طريق الهجرتين ص ٣٣٨.

آياتُ اللّٰه في الأرض

الحمد لله الذي نصب الكائناتِ على وحدانيَّته دليلاً، ربِّ المشرق والمغرب لَّا إله إلَّا هو فاتَّخذه وكيلاً.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، حثَّ على التَّفكُّر في آياته المسموعة، وعلى التَّفكُّر في آياته المشهودة.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه إمامُ المتفكِّرين، وقدوةُ العاملين، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد اللّٰه:

أَكْثَرَ الله تعالى في كتابه الكريم من ذكر الأرض، ودعا عبادَه إلى النَّظر فيها والتَّفكُّرِ في خلقها. والنَّظرُ هو التفات القلب إلى المنظور فيه، فقال سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذّاريَات: ٢٠].

فآياتُ الأرض أنواعٌ كثيرةٌ جدّاً، إذا نظرت إليها رأيتها من أعظم آياتِ فاطِرها وبديعها.

منها: خَلْقُها وحدوثُها بعد عدمها، وشواهدُ الحدوثِ والافتقارِ إلى الصَّانع عليها لا تُجْحَد؛ فإنَّها شواهدُ قائمةٌ بها.

ومنها: بروز هذا الجانبِ من الأرض فيها عن الماء مع كون مُقْتَضى الطَّبيعةِ أن يكون مغموراً به.

ومنها: سَعَتُها وكِبَرُ خلقها.

ومنها: تسطيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغَاشِيَة: ٢٠]، ولا ينافي ذلك كونُها كرويَّة؛ فهي كرة في الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنَّه جعلها فراشاً؛ لتكون مقرّاً للحيوان ومساكنه.

وجعلها مهاداً ذلولاً تُوطَأُ بالأقدام، وتُضرَبُ بالمعاول والفؤوس، وتُحمل على ظهرها الأبنيةُ الثِّقال؛ فهي ذلولٌ مسخَّرة لما يُريد العبد منها.

وجعلها بساطاً. وجعلها كِفَاتاً للأحياء تضمُّهم على ظهرها، وللأموات تضمُّهم في بطنها.

وطحاها: فمدَّها وبسطها ووسَّعها. ودحاها: فهيَّئها لما يُراد منها؛ بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشقَّ فيها الأنهار، وجعل فيها السُّبل والفجاج.

ونبَّه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنةً واقفة، وذلك آية أخرى، إذْ لا دِعامة تحتها تُمسكها، ولا عَلَّاقة فوقَها، ولكنَّها لمَّا كانت على وجه الماء، كانت تَكَفَّأُ كما تَكَفَّأُ السَّفينة، فاقتضت العنايةُ الأزليَّةُ والحكمةُ الإلٰهيَّة أن وضع عليها رواسيَ يثبِّتها بها؛ لئلَّا تميد، وليستقرَّ عليها الأنامُ والحيوانُ والنَّباتُ والأمتعة، وتمكينُ الحيوانِ والنَّاسِ من السَّعي عليها في مآربهم، والجلوسِ لراحاتهم، والنَّومِ لهدوِّهم، والتَّمكُّنِ من أعمالهم[1].

---

(١) قلت: وفَرْقٌ بين القول: بكُرويَّة الأرض، وبين القول بدوران الأرض، قال سماحة الشَّيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أمَّا القول بكرويَّة الأرض: فهي كرويَّة الشَّكل، ولا ينافي كونَها بساطاً وسطحاً، وأشباهَ ذلك. ودوران الأرض قول باطل؛ فإنَّه لا يكاد يقوم عليه دليل يُسَلِّمه أحد، لكن أهل هذا الفنّ =

....

= اتَّبعوا الفلاسفة في هذا، وهي أمور ظنِّية، حتَّى هم لا يجزمون.
والقول بأنَّ الشَّمسَ واقفةٌ من أبطل الباطل، ومنافٍ للآية الكريمة ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس:٣٨]»، وغلَّط أيضاً من يقول: المراد: تجري حول نفسها. (فتاويه ورسائله انظر ١٣/ ١٠٧ ـ ١١٠).
ولِسماحة الشَّيخ عبدالعزيز بن باز كتاب «الأدلَّة النَّقليَّة والحسِّيَّة على جريان الشَّمس، وسكونِ الأرض، وإمكانِ الصُّعود إلى الكواكب»: استقصى فيه الأدلَّة، ورَدَّ فيه على المعترض ـ «من مطبوعات الجامعة الإسلامية ١٣٩٥هـ» ـ. ونقل فيه عن الكاتب الشَّهير محمد فريد وجدي بعد ذكره اختلافَ الفلكيِّين في كتابه «الإسلام في عصر العلم ٢/ ١٤١» قولَه: «ومن هنا ترى تأكيدَهم أنَّ الأرض تدور لا معنى له؛ لأنَّه لا يوجد ما يثبته بالتَّجربة».
ونقل عنه أيضاً قَوْلَه: «يُرى من تضارب أفكار أكبر علماء الأرض ـ يعني: الفلكيِّين والطَّبيعيِّين المتأخِّرين ـ أنَّ دوران الأرض غيرُ حاصل على ما يجعله من الأمور البديهية ـ إلى أن قال ـ: ولو كان المعلِّمون في أثناء تدريسهم للعلوم الطَّبيعيَّة يسلكون مسلك العلماء ـ علماء الفلك ـ في الإقرار بالجهل فيُرُون تلاميذَهم وجه الضَّعف في المعلومات الطَّبيعيَّة لأدَّوا إلى تلاميذهم أكبر خدمة؛ لأنَّهم بهذا يُعوِّدونهم على الأدب النَّفسي، فتنشأُ نفوسُهم معتادةً على التَّواضع أمام فخامةِ الكون وجلالتِه والسُّجودِ أمامَ مبدعه ومصوِّره، ولكنَّ أكثرهم يُدَرِّسُونَ لهم العلومَ المشكوك فيها والفروضَ الطَّبيعيَّة الظَّنِّيَةَ بصفة حقائقَ ثابتة، فيتذرع بها أولئك التَّلاميذ الأغرار متى كَبِروا إلى «الإلحاد، ونفي الرُّوح والخلود»، ولا يدرون أنَّهم يتمسَّكون بالظُّنون، وأنَّ الظَّنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً» ا.هـ.
قال سماحة الشَّيخ عبدالعزيز: «وما أحسن ما قاله هذا العلَّامة في شأن المدرِّسين، وأنَّ الواجب عليهم أن يوضِّحوا لتلاميذهم حقائقَ الأمور على ما هي عليه، ومدى علمهم بها، وأن يسلكوا مسلكَ العلماء في الاعتراف بالجهلِ بكثير من الأمور، حتى يعتاد الطَّالبُ التَّوقُّفَ عمَّا لا يعلم، والتَّثبُّتَ في الأمور، والتَّمييزَ بين المعلومات القطعيَّة والظَّنِّية. والله المستعان» ا.هـ.

أقول: وما ذكره محمد فريد وجدي من أنَّ هذه النَّظريَّاتِ المشكوكَ فيها عندهم سبَّبت الإلحاد... إلخ. هو كما قال؛ فقد فعلت في العقائد أكثر ممَّا فعلته كتب المنطق والكلام.
وكذلك قوله: «ولكن أكثر المعلِّمين يدرِّسون لهم هذه العلوم المشكوك فيها... بصفة حقائقَ ثابتة» هو كما قال أيضاً، حتى ولا يذكرون ما جاء عن الله في القرآن مِنْ وصف السَّموات والأرض ـ ولو كقول آخر ـ فكأنه يراهم بهذه الطَّريقة مدلّسين على التَّلاميذ. فقد ذكر الله سبحانه خلقه للسَّموات والأرض والنُّجوم؛ بل وآدمَ ـ أبي البشرِ ـ والملائكةِ والجنِّ وصفاتِها، والمواد التي خلقها الله منها، والمدَّةَ التي خلقها الله فيها؛ بل والعرش والكرسي =

ولو كانـت رَجْراجةً متكفئة لم يسـتطيعوا على ظهرها قـراراً ولا هُدُوّاً،

= والجنَّة والنَّار، وأن ذلك صادر عن علم وحكمة، وإرادة وقدرة، لا عن اتِّفاق وصُدْفة.
وكذلك لا يذكرون في نظريَّاتهم ربَّ العالمين وعظمتَه وصفاتِه التي وصف بها نفسـه. وأنه هـو «الأوَّل» قبـل كلِّ شـيء، وأَمْـرَه الـذي افترضه على عباده، وأن ما سـواه محـدَثٌ كائنٌ بعد أن لم يكن. فإهمالهم هذه الأشـياءَ العظيمة، وتركيزُهم على تلك النَّظريَّات، ممَّا سـبَّب الإلحادَ الذي ذكره.
والقول بدوران الأرض حَلَقة من سلسلة هذه النَّظريَّات.

و«الحلقـة الثَّانيـة» قولهـم: «إنَّ الكرة الأرضيَّـة تكونت نتيجة تسـاقط ذرَّاتٍ دقيقةٍ من المواد الصَّلبة في تجمُّع غير منتظم، بحيث أدَّى تجمعُ الكثيرِ منها إلى تكوين أجزاءَ يابسةٍ مرتفعة، بينمـا تعرضـت الأجـزاء التي قلَّ فيها تسـاقط الكويكبـات إلى تكوين أحـواض المحيطات، ويرجع سـبب تكوين الكويكبات إلى حدوث تمدد انبعاجيٍّ في سـطح الشَّـمس بسبب مرور نجـم آخـر أكبـر بجوارها، ونتيجـةِ انفجارات عديدة في سـطح الشَّـمس تولَّـدت التَّفاعلات الذَّريـة، وظـلَّ تأثير النَّجم الآخر حتى أثَّـر في دوران الأجزاء المنفصلة حول نفسـها وحول الشَّمس... إلخ.
انظـر فـي «جغرافيـة القـارات» ص ٦٩ ط ١٤١٧هــ نقـلاً عـن عبدالعزيز طريح شـرف في «الجغرافيا الطَّبيعيَّة» ص ٦٨، ٦٩، ٥٣.

«الحلقة الثَّالثة»: «نظرية الغاز الكوني الأوَّل» المتَّفق عليها عندهم. قالوا: «اتَّفق العلماء على أصول هذه النَّظريَّة وهي تقول: نشأ العالم المادِّي من غاز كوني أول، كان شديدَ التَّخلخل، وسـاخناً إلى حدٍّ مَّا، وكان مائلاً للفضاء ومنتشـراً فيه بانتظام، ومؤلَّفاً من دقائقَ تكوَّنت منها أنواعُ المادَّة الثَّلاثة»، ثمَّ ذكر «نظريَّة السُّدم، أو المجرَّات».
انظر: «معجزة القرآن في وصف الكائنات» ص ٨٠ ـ وذكر عنهم نظريَّات مشابهة.
قال صاحب المنجد ـ وهو أعلم بلغة قومه ـ: «سُدُمْ»: الضَّبابُ، أو الرَّقيقُ منه، يقع في الكرة السَّماوية ضعيفة النُّور، منها: ما هو تجمع غازات مضيئة، ومنها: يضمُّ العديد من الكواكب» ا.هـ. ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].
وذكر في معجزة القرآن قولَهم: «فالأرض تلفُّ حولَ نفسِها في أربعة وعشرين ساعة بسرعةِ ألـفِ ميـلٍ ونصفِ الميل في السَّـاعة على طـول محيطها، وتجري في فلكها حولَ الشَّـمس بسرعة ثمانيةَ عشر ميلاً ونصف الميل في الثَّانية».

أقول: الطَّائرات تطير في كل اتِّجاه على مدار السَّاعة، فأيّها الموافق لدورة الأرض اليوميَّة؟! وأيّهـا المخالـف لدورتها؟! وما نتيجة التَّخالف في السُّـرعة بالأميـال إذا كانت؟!، وإن قيل: الهواء تابع للأرض، فإن كان بحيث يمسك من صعد إليه، فَلَمْ يغادر أحد ولَمْ يُقْدِم أحد. =

ولا ثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعةً ولا تجارةً ولا حِراثةً ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنُّون بالعيش والأرض ترتجُّ من تحتهم؟! واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزَّلازل على قلَّة مكثها، كيف يضطرُّهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد نبَّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، وفي جامع التِّرمذي وغيره: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لمَّا خلق الله الأرض جعلت تميد؛ فخلق الجبال عليها فاستقرَّت، فتعجَّبت الملائكة من شدَّة الجبال، فقالوا: يا رب! هل مِنْ خلقك شيء أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب! هل مِنْ خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم، النَّار. قالوا: يا رب! فهل مِنْ خلقك شيء أشدُّ من النَّار؟ قال: نعم، الرِّيح. قالوا: يا رب! فهل مِنْ خلقك شيء أشدُّ من الرِّيح؟ قال: نعم، ابنُ آدم يتصدَّق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**».

ومن آياتها: أَنْ جعلها مختلفة الأجناسِ والصِّفات والمنافعِ مع أنَّها قِطَعٌ متجاورات متلاصقة، فهذه سَهْلة وهذه حَزْنة تجاورها وتلاصقها، وهذه طيِّبة تُنبتُ وتلاصقها أرض لا تُنبت، وهذه تُرْبَة وتلاصقها رمال،

= وقولهم: «إنَّ الأرض تدور حول الشَّمس تسعُ مئة وأربعون مليون كيلومتراً، بسرعة ٢٩,٧٦ كيلومتراً في الثَّانية».
أقول: ليتصور أحدهم أنَّه في سيارة مكشوفة، أو على جناح إحدى الطَّائرات وهي تسير بسرعة تسعة وعشرين كيلومتراً في الثَّانية، كيف يكون حالُه وتماسُكه؟!
وماذا عليهم لو رسموا الأرض في الموضع الذي رسموا فيه الشَّمس «في أطلس العلوم الطَّبيعيَّة ص ١٢٠» ورسموا الشَّمس في المواضع التي رسموا فيها الأرض ـ إذا صحَّت هذه المسافات ـ. علماً بأنَّ الانتفاع بالشَّمس وتغير فصول السَّنة والأرض ساكنة هو، هو، وأنَّ معرفة تنقل الشَّمس في بروجها الاثني عشر، والقمر في منازله الثَّمانية والعشرين كافية، ولا فائدة تتوقَّف على القول بدوران الأرض.

وهذه صَلبةٌ ويلاصقها أرض رَخوة، وهذه سوداءُ ويليها أرضٌ بيضاء، وهذه حصىً كلُّها ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سَبِخة مالحة وهذه بضدِّها، وهذه ليس فيها جبل ولا مَعْلم وهذه مسجَّرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلَّا على المطر وهذه لا ينفعها المطر؛ بل لا تصلح إلَّا على سقي الأنهار فيمطر الله سبحانه الماءَ على الأرض البعيدةِ ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

وانظر قِطَعَها المتجاورات، وكيف يَنْزل عليها ماءٌ واحد فَتَنْبُت الأزواجُ المختلفةُ المتباينةُ في الشَّكل واللَّون والرَّائحة والطَّعم والمنفعة؟ كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: ٤].

فكيف كانت هذه الأَجِنَّةُ المختلفةُ مودَعةً في بطن الأمّ؟! وكيف حَمَلَها من لقاحٍ واحد؟! ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] لا إله إلا هو، ولولا أنَّ هذا من أعظمِ آياتِه لَمَا نبَّه عليه عبادَه ودعاهم إلى التَّفكير فيه.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ـ ميِّتة ـ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ ـ فتحرَّكت ـ وَرَبَتْ ـ ارتفعت واخضرَّت ـ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحجّ: ٥]، فأخرجت عجائب النَّبات في المنظر والمخبَر، بهيجٌ للنَّاظرين، كريمٌ للمتناولين، فأخرجت الأقواتَ ـ على اختلافها وتباينِ مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها ـ، والفواكهَ والثِّمارَ وأنواعَ الأدوية، ومراعيَ الدَّوابِّ والطَّير.

وجعلها ذلولاً على الحكمة في أَن لم تكن في غاية الصَّلابة والشِّدَّة كالحديد والحجر، فيمتنع حفرُها وشقُّها وشقُّ أنهارها والبناءُ فيها والغرسُ

والزَّرع، وبَعَثَ النّومَ عليها والمشـيَ فيها. ونبَّه بكونها «قراراً» على الحكمة في أنَّها لم تُخلق في غاية اللِّين والرَّخاوة والدّماثة والطِّين، فلا تُمسِـكُ بناءً ولا يَستقرُّ عليها الحيوانُ ولا الأجسامُ الثَّقيلة.

وكذلك لـم يجعلها شـفَّافة لا يسـتقرُّ عليها النُّـور ولا تقبلُ السُّـخونة، فتبقى في غاية البَرْد فلا يستقرُّ عليها الحيوانُ ولا يتأتَّى فيه النَّبات.

وكذلك لـم يجعلها صقيلـةً برَّاقة؛ لئـلا يحترقَ مـا عليها بسـبب انعكاس أشـعة الشَّـمس؛ بل جعلها كثيفةً غبـراء، فَصَلَحـت أن تكون مسـتَقرّاً للحيوان والأنام والنَّبات.

فلو سـألتها: مَنْ نوَّعها هذا التَّنوُّع؟! ومَنْ فـرَّق أجزاءها هذا التَّفريق؟! ومَنْ خصّـص كلَّ قطعـة منها بما خصّهـا به؟! ومَـنْ ألقى عليها رواسـيَها، وفتح فيها السُّبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟! ومَنْ أمسكها عن الزَّوال؟! ومَنْ بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، وأنشأ منها ماءها وحيوانها ونباتها؟! ومَنْ وضع فيها معادنَها وجواهرَها ومنافعَها؟! ومَنْ هيَّأها مسـتقرَّاً للأنام؟! ومَنْ يبـدأُ الخلقَ منها ثـمَّ يُعيده إليهـا ثمَّ يخرجه منهـا؟! ومَنْ جعلهـا ذلولاً غيرَ مستعصيةٍ ولا ممتنعة؟! ومَنْ وطَّأ مناكبها وذلَّل مسالكها، ووسَّع مخارجها، وشقَّ أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟! ومَنْ صدَّعها عن النَّبات، وأودع فيها جميعَ الأقوات؟! ومَنْ بسـطها وفرشها ومهَّدها وذلَّلها وطحاها ودحاها وجعل ما عليها زينـةً لها؟! ومَنِ الذي يُمسـكها أن تتحرَّك فتتزلزلَ فَيَسْقُطَ ما عليها من بناءٍ ومَعْلَم أو يَخْسِفَها بمن عليها فإذا هي تمور؟!

ومَـنِ الذي أنشـأ منهـا النَّوع الإنسـاني ـ الـذي هـو أَبْـدعُ المخلوقات وأحسـنُ المصنوعات؛ بل أنشـأ منها آدمَ ونوحاً وإبراهيمَ وموسـى وعيسى ومحمَّداً ـ صلَّـى الله عليه وسـلَّم وعليهم أجمعين ـ، وأنشـأ منهـا أولياءه،

وأَحِبَّاءَه وعبادَه الصَّالحين ـ؟! ومَنْ جعلها حافظةً لما ٱستُودِع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان؟! ومَنْ جعل بينها وبين الشَّمسِ والقمرِ هذا المقدارَ من المسافة؟! فلو زادت على ذلك لضَعُف تأثُّرها بحرارة الشَّمس ونورِ القمر؛ فتعطَّلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنَّبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدَّت الحرارة والسُّخونة ـ كما نشاهده في الصَّيف ـ؛ فاحترقت أبدان الحيوان والنَّبات.

[**وبالجملة**]: فكانت تفوت هذه الحكمةُ التي بها ٱنتظام العالم.

ومَنِ الذي جعل فيها الجنَّاتِ والحدائقَ والعيون؟! ومَنِ الذي جعل باطنَها بيوتاً للأموات، وظاهرَها بيوتاً للأحياء؟!

ومَنِ الذي يُحييها بعد موتها فيُنزلُ عليها الماء من السَّماء، ثمَّ يُرسلُ عليها الرِّيح، ويُطلِعُ عليها الشَّمسَ، فتأخذُ في الحَبَل، فإذا كان وقتُ الولادة مخضت للوضع وٱهتزَّت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ؟

فسبحان مَنْ جعل الماءَ كالأب، والأرضَ كالأمِّ، والقطرَ كالماءِ الذي ينعقد منه الولد!! فإذا حصل الحَبُّ في الأرض ووقع عليه الماء، أَثَّرت نداوةُ الطِّين فيه وأعانَتْها السُّخونةُ المختفيةُ في باطن الأرض، فوصلت النَّداوة والحرارة إلى باطن الحَبَّة، فاتَّسعت الحَبَّة ورَبَتْ وٱنتفخت وٱنفلقت عن ساقين: ساقٍ من فوقها ـ وهي الشَّجرة ـ، وساقٍ من تحتها ـ وهو العِرْق ـ، ثمَّ عَظُم ذلك الولد حتى لم يبقَ لأبيه نسبة إليه، ثمَّ وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلَّفة، كلُّ ذلك صُنعُ الرَّبِّ الحكيمِ في حَبَّةٍ واحدة لعلَّها تبلغ في الصِّغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأمِّ.

فيا لها من آية تَكفِي وحدها في الدَّلالة على وجود الخالق، وصفاتِ كماله وأفعاله، وصدقِ رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج مَنْ في القبور، ليوم البعث والنُّشور!

فتأمَّلِ اجتماعَ هذه العناصرِ الأربعةِ وتجاورَها وامتزاجَها، وحاجةَ بعضِها إلى بعضٍ، وانفعالَ بعضِها ببعضٍ، وتأثيرَه فيه، وتأثُّرَه به، بحيث لا يمكنه إلَّا الاتِّباعُ من التَّأثُّر والانفعال، ولا يستقلُّ الآخرُ بالتَّأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنَّها مخلوقة مصنوعة، مربوبةٌ مدبَّرة، حادثةٌ بعد عدمها، فقيرةٌ إلى موجدٍ غنيٍّ عنها، مؤثِّرٌ فيها غيرُ مُتَأثِّر، قديمٌ غير مُحدَث، تنقاد المخلوقات كلُّها لقدرته، وتجيب داعيَ مشيئته، وتلبِّي داعيَ وحدانيَّتِه وربوبيَّته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره، وطاعتِه وعبوديَّتِه ومحبَّته، وتحذِّرهم من بأسه ونِقمته، وتحثّهم على المبادرة إلى رضوانه وجنَّته.

فإذا كان يوم الوقت المعلوم، وقد ثَقُلَها حِمْلُها، وحان وقتُ الولادةِ ودنوُّ المخاض: أوحى إليها ربُّها وفاطرُها أن تضعَ حملها، وتُخرِجَ أثقالها؛ فَتُخْرِجَ النَّاسَ من بطنها إلى ظهرها، وتقول: يا ربِّ! هذا ما استودعتني، وتُخْرِجُ كنوزها بإذنه تعالى، ثمَّ تُحدِّث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خيرٍ وشرٍّ.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزّلزلة: ١ ـ ٨].

الخطبة الثانية

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه...

وبعد:

فقد قال سبحانه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النَّازعَات: ٣٢]، وقال ـ بعد ذكر الأمر بالنَّظر إلى الإبل والسَّماء ـ: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ [الغَاشِيَة: ١٩].

ثمَّ انظر كيف أحكم جوانبَ الأرضِ بالجبال الرَّاسيات، الشَّوامخِ الصُّمِّ الصِّلاب؟! وكيف نصبها فأحسن نصبها؟! وكيف رفعها وجعلها أصلبَ أجزاءِ الأرض؛ لئلَّا تَضْمَحِلَّ على تطاول السِّنينِ وترادفِ الأمطار والرِّياح؟!

هذه الجبال التي يَحْسَبُها الجاهلُ فَضْلَةً في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلَّا خالقُها وناصبُها.

وفي حديث ضِمَامِ بنِ ثعلبةَ قولُه للنَّبيِّ ﷺ: «بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آللهُ أمركَ بكذا وكذا؟ قال: **اللَّهُمَّ نعم**».

فمن منافعها: أنَّ الثَّلجَ يسقط عليها فيبقى في قُلَلِها حاملاً لشراب النَّاس إلى حين نفاده(١).

(١) جُعِل فيها ليذوبَ أولاً فأولاً، فتجيءَ منه السُّيولُ الغزيرة، وتسيلَ منه الأنهار والأودية؛ فَينبُتَ في المروج والوهاد والرُّبا، ضروبُ النَّبات والفواكهِ والأدويةِ التي لا يكون مثلُها في السَّهل والرَّمل، فلولا الجبالُ لسقط الثَّلج على وجه الأرض، فانحلَّ جملةً وساحَ دفعة، فَعُدم وقتُ =

ومـن منافعها: ما يكـون في حصونهـا وقُلَلِها ـ من المغـارات والكهوف والمعاقل، التي بمنزلة الحصون والقِلاع ـ أَكْنَانٌ للنَّاس والحيوان.

ومـن منافعها: ما يُنحَـت من أحجارهـا للأبنية على ٱختـلاف أصنافها، والأرحيةِ[1]، وغيرِها.

ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن على ٱختلاف أصنافها ـ من الذَّهـب والفضَّة، والنَّحـاسِ والحديدِ والرّصاصِ، والزَّبرجـدِ والزُّمُرُّد، وأضعافِ ذلك من أنـواع المعادن التي يَعْجَز البشـر عـن معرفتها على التَّفصيـل ـ، ثمَّ هدى تعالـى النَّاسَ إلى ٱسـتخراج تلك المعـادنِ منها، وألهمهم كيف يصنعون منها النُّقودَ والحُليّ، والزِّينةَ واللِّباس، والسَّلاحَ وآلـةَ المعاش على اختلافها، ولولا هدايته سـبحانه لهـم إلى ذلك، لما كان لهم علمُ شيءٍ منه.

ومـن منافعها ـ أيضـاً ـ: أنَّها تَـرُدُّ الرِّيـاحَ العاصفةَ وتَكْسِـر حدَّتها، فلا تدعها تَصدِم ما تحتها.

ومن منافعهـا ـ أيضاً ـ: أنَّها تَرُدُّ عنهم السُّيولَ إذا كانـت في مجاريها، فتصرفها عنهـم ذاتَ اليميـن وذاتَ الشِّـمال، ولولاهـا خرَّبت السُّـيولُ في مجاريها ما مرَّت به؛ فتكون لهم بمنزلة السَّدِّ.

ومـن منافعها: أنَّها أعـلامٌ يُسـتَدَلُّ بها فـي الطُّرقات، ولهذا سـمَّاها الله أعلاماً، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشّورى: ٣٢] فالجواري: السُّفن، والأعلام: الجبال.

= الحاجـة إليـه، وكان في انحلاله ـ جُملةً ـ السُّـيولُ التـي تُهلك ما مرت عليـه؛ فيضر بالنَّاس ضرراً لا يمكن تلافيه، ولا دَفْعُهم لأذيته.

(١) جمع رحى: وهي التي يطحن بها.

ومن منافعها: ما ينبت فيهـا من العقاقير والأدويـة التي لا تكون في السُّـهول والرِّمال، كما أنَّ ما ينبت في السُّهول والرِّمال لا ينبت مثلُه في الجبال.

ومن منافعهـا: أنْ جعلها الله للأرض أوتـاداً تثبِّتها، ورواسـيَ بمنزلة مَرَاسِي السُّفن، وأَعْظِمْ بها منفعةً وحكمة.

وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلَّا خالقُها ومبدعُها سبحانه.

وإذا تأمَّلت خِلْقَتها العجيبةَ البديعة، وجدتَّها في غاية المطابَقَة للحكمة؛ فإنَّها لـو طالت واْستدقت كالحائـط؛ لتعذر الصُّعـود عليهـا والانتفاع بها، وسـترت عن النَّـاس الشَّـمسَ والهواء، فلـم يتمكَّنوا مـن الانتفـاع بها، ولو بُسـطت على وجـه الأرض لضيَّقت عليهـم المـزارعَ والمسـاكن، ولملَئت السَّـهل، ولو جُعلت مسـتديرةً شـكلَ الكُرة، لم يتمكَّنوا من صعودها، ولَمَا حصل لهم بها الانتفاعُ التَّام.

فخلْقُهـا ومنافعُها من أكبر الشَّـواهد على قدرة باريهـا وفاطِرِها، وعلْمِه وحكمتِه ووحدانيَّتِه.

هذا مـع أَنَّها تُسـبِّح بحمده، وتخشـع له، وتتشـقَّق وتهبط من خشـيته، وهي التي خافت من ربِّهـا وفاطرها وخالقها ـ على شـدَّتها وعِظَم خلقها ـ من الأمانة التي عرضها عليها وأَشْفَقَتْ مِنْ حملها.

هذا، وإنَّها لتعلم أنَّ لها موعداً ويوماً تُنسَـفُ فيه نسـفاً، وتصيرُ كالعِهْنِ مِنْ هولـه وعِظَمِه، فهي مشـفقة من هَوْلِ ذلـك الموعدِ منتظـرةٌ له، وكانت أمُّ الدَّرداء رضي الله عنها إذا سـافرت فصعـدت على جبل تقول لمن معها: «أَسَـمِعَتِ الجبالُ مـا وعدها ربُّهـا؟ فيُقال: ما أَسْـمَعَها؟ فتقـول: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ

يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ـ١٠٧]».

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصَّلبة، وهذه رِقَّتها وخشيتها وتَدكدُكها مِنْ جَلال ربِّها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرُها وباريها أنَّه لو أنزل عليه كلامَه لخشعت وتصدَّعت من خشية الله.

فيا عَجَباً من مُضْغَةِ لحمٍ أقسى من هذه الجبال!! تسمع آياتِ الله تُتْلَى عليها، ويُذْكَرُ الرَّبُّ تعالى؛ فلاَ تلين ولا تخشع ولا تُنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل، ولا يخالِف حكمتَه أن يخلق لها ناراً تذيبها إذا لم تلن بكلامه وذكره، وزواجره ومواعظه، فمن لَّم يُليِّنِ اللهُ في هذه الدَّار قلبَه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذبه بحبِّه والبكاءِ من خشيته؛ فليتمتع قليلاً، فإنَّ أمامَه المُليِّن الأعظم، وسيُرَدُّ إلى عالم الغيب والشَّهادة فيَرى ويَعْلم(١).

إنَّ أحسن الحديث كتاب الله...

(١) مفتاح دار السَّعادة ص ١٩٩، ٢١٧، ٢٢١، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢١٨. التِّبيان ص ١٨٣، ١٨٤، ١٦. فتاوى جـ ١٨/ ٢١٤، ٢١٥، جـ ٥/ ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٦٤.

السَّموات والشَّمس، والقمر والكواكب
ودلالتها على خالقها العظيم

الحمد لله الذي خلق السَّمواتِ والأرضَ وجعل الظُّلمات والنُّور، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السَّماء وما يعرج فيها وهو العزيز الغفور.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةً أَشهدُ بها مع الشَّاهدين، وأَدَّخِرُها عند الله عُدَّة ليوم الدِّين.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله المصطفى، الصَّادقُ الذي لا ينطق عن الهوى، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً بدوام السَّموات والأرضين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

قد أثنى الله في كتابه على المتفكِّرين في خلق السَّموات والأرض، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وذمَّ المعرضين عن ذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ذلك أنَّ التَّفكُّر فيها يدلُّ على

عَظَمة خالقها وبانيها، ويدعو إلى تعظيم أمره وشرعه، ويُثْمِرُ زيادة الإيمان في قلوب ذوي الألباب.

عباد الله:

لنتأمَّل ولنتفكَّر في صُنْعه في ملكوت «**السَّموات**» وعلوِّها، وسَعَتها، واْستدارتها، وعِظَم خَلْقِها، وحُسْنِ بنائِها ولونها، وعجائبِ شمسها وقمرِها وكواكِبها، ومقاديرِها وأشكالِها، وتفاوتِ مشارقها ومغاربها؛ فهي أحكمُ خلقاً، وأتقنُ صنعاً، وأجمعُ للعجائب من بدن الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ـ٢٩].

والأرض والبحار والهواء وكلُّ ما تحت السَّموات بالإضافة إلى السَّموات كقطرة في بحر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤] فبدأ بذكر خلق السَّموات.

ولهذا قلَّ أن تجيء سورةٌ في القرآن إلَّا وفيها ذِكْرُها: إمَّا إخباراً عن عظمتها وسَعَتها، وإمَّا إقساماً بها، وإمَّا دعاءً إلى النَّظر فيها، وإمَّا إرشاداً للعباد أن يستدلُّوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإمَّا اْستدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإمَّا استدلالاً منه بربوبيَّته لها على وحدانيَّته وأنَّه الله الذي لا إلٰه إلا هو، وإمَّا اْستدلالاً منه بحسنها واْستوائها والْتِئَام أجزائها وعدمِ الفُطور والشُّقوقِ فيها على تمام حكمته وقدرته، وكذلك ما فيها من الشَّمس والقمر والكواكب والعجائب التي تتقاصر عقولُ البشر عن قليلها. ثمَّ هي مع ذلك مَقَرُّ ملائكةِ الرَّبِّ، ومَحلُّ دارِ جزائه؛ ومَهْبِطُ ملائكتِه ووحيه، وإليها تصعد الأرواحُ وأعمالُها وكلماتُها الطَّيِّبة.

بدأ سبحانه خلقَها من بخار الماء المتصاعد منه حين خُلِقت الأرض ـ وهو الدُّخَان ـ، قال تعالى(١): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلَت: ١١].

فتأمَّل خَلْقَ السَّماء، وارْجِع البصرَ فيها كرَّة بعد كرَّة كيف تراها من أعظم الآيات في ارتفاعها وسَعَتها وقرارها؟! بحيث لا تَصْعَدُ علوّاً كالنَّار، ولا تَهْبِطُ نازلةً كالأجسام الثَّقيلة، ولا عَمَدَ تحتها تُقِلُّها أو عَلَّاقةَ ترفعها؛ بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السَّموات والأرض أن تزولا.

ثمَّ تأمَّل ما وضعت عليه من هذا اللَّون الذي هو أحسن الألوان وأشدُّها موافقةً للبصر وتقويةً له(٢).

---

(١) قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠] ففصَّل هنا ما يختصُّ بالأرض ممَّا اختصَّ بالسَّماء؛ فذكر أنَّه خلق الأرض أوَّلاً؛ لأنها كالأساس، والأصلُ أن يُبدأ بالأساس ثمَّ بعده بالسَّقف.
خلق الأرض قبل خلق السَّماء بالنَّص، ودَحْوُها بعد خلق السَّماء؛ فخلق الأرض وما فيها في أربعة أيَّام، وخلق السَّموات في يومين ـ ودحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى ـ، وخلق الجبال والرِّمال، والجمادَ والآكام على هذه الأرض.
﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] أي: ورتب مُقَرَّراً في كلِّ سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلَّا الله، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] وهي: الكواكب المنيرةُ المشرقةُ على أهل الأرض ا.هـ. ابن كثير ـ سورة فصلت ـ.
(٢) حتَّى إنَّ من أصابه شيءٌ أضرَّ ببصره، يؤمرُ بإدمان النَّظر إلى الخضرة، وما قرب منها إلى السَّواد.
قلتُ: فالسَّموات التي وصفها الله سبحانه في القرآن بأنَّه بناها وأنَّها سقف محفوظ إلى آخر ما ذكر عنها في القرآن والسُّنَّة هي التي نراها بأعيننا خضراء؛ ليست هي النُّجوم والمجرَّات... إلخ. ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] فهي مبنيَّة، والنُّجوم زينةٌ لها ـ والعطف يقتضي المغايرة ـ ولو كانت هي هذه النُّجوم لكانت كلّها فروج.

وهـذه «**الشَّـمس**» أكبرُ مـن الأرض بأكثـرَ من مئـةِ مـرَّة، إذا فكَّرت في طلوعها وغروبها لإقامة دولتي اللَّيل والنَّهـار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم؛ فكم في طلوعهـا من الحِكَم والمصالح؟! وكيف كان حال الحيوان لو أُمسِـكتْ عنهم وجُعل اللَّيلُ عليهم سـرمداً والدُّنيا مظلمة عليهم؟! فبأيِّ نـور كانـوا يتصرَّفـون ويتقلَّبـون؟! وكيف كانـت تَنْضُـجُ ثمارُهـم، وتكمل أقواتُهـم، وتعتدل صورهـم وأبدانهـم؟! فالحِكَمُ في طلوعهـا أعظمُ من أن تَخْفى أو تُحصى.

ولكن تأمَّـل الحكمة في غروبها، فلولا غروبها لـم يكن للحيوان هدوءٌ ولا قرار مع شـدَّة حاجتهم إلـى الهدوء لراحـة أبدانهم وإجمام حواسـهم. وأيضاً: لو دامت على الأرض لاشـتدَّ حَمْوُها بدوام طلوعها عليها، فأَحْرَقَ كلَّ مـا عليها من حيـوان ونبـات، فاقتضت حكمةُ الخـلَّاقِ العليـمِ والعزيزِ الحكيـمِ أن جعلها تَطْلُـع عليهم في وقـت وتغيب في وقت، بمنزلة سِـراج يُرفع لأهـل الدَّار مليَّـاً ليقضـوا مآربهم، ثـمَّ يغيبُ عنهـم مثلَ ذلـك ليقِرُّوا ويهـدؤوا، وصار ضيـاءُ النَّهار وحرارتُه وظـلامُ اللَّيل وبَـرْدُه على تضادهما ومـا فيهمـا متظاهريـن متعاونين على ما فيـه صـلاحُ العالم وقِوامُـه ومنافعُ أهله(١).

ثمَّ ٱقتضت حكمته سبحانه أن جعل للشَّمس ٱرتفاعاً وٱنخفاضاً؛ لإقامة الفصول الأربعة من السَّنة.

ففي زمن «**الشِّتاء**» تغور الحرارة في الأجواف وبطونِ الأرض والجبال، والشَّـجرِ والنَّباتِ؛ فيتولَّدُ فيها مـوادُّ الثِّمار وغيرُها، وتَبْـرُد الظَّواهر، ويَغْلُظُ

(١) وقـد أشـار تعالـى إلى هذا المعنـى ونبَّه عباده عليـه بقولـه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [القَصَص: ٧١ ـ ٧٣].

الهواء بسبب البَرْد، فينشأُ منه السَّحابُ وينعقد، فيحدث المطر والثَّلج والبَرَد الذي به حياةُ الأرض ونماءُ أبدان الحيوان والنَّبات.

فإذا جاء «**الرَّبيع**» تحركت الطَّبائع وظهرت المواد الكامنة في الشِّتاء؛ فخرج النَّبات، وأخذت الأرض زخرفَها وازَّيَّنت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج، وتحرَّك الحيوان للتَّناسل.

فإذا جاء «**الصَّيف**» سَخَن الهواء؛ فنضجت الثِّمار ويَبِسَت الحبوب، فصلَحَت للحفظ والخزن، وتحلَّلت فضلات الأبدان.

فإذا جاء «**الخريف**» انكسر ذلك السَّمومُ والحرُّ، وَصَفا الهواء واعتدل، وأخذت الأرض والشَّجر في الرَّاحة والجُموم والاستعداد للحمل والنَّبات مرَّة ثانية. ولو كان الزَّمان كلُّه فصلاً واحداً؛ لفاتت مصالحُ الفصولِ الباقيةِ فيه.

وجعل سبحانه «الخريف» برزخاً بين سَموم الصَّيف وبَرْد الشِّتاء؛ لئلَّا ينتقل الحيوان وَهْلَةً واحدة من الحرِّ الشَّديد إلى البرد الشَّديد، فيجدُ أذاه ويعظُم ضرره.

وكذلك «الرَّبيع» برزخٌ بين الشِّتاء والصَّيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حرِّ هذا بتدريج وترتيب، حكمةٌ بالغة، وآيةٌ قاهرة، فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين.

وجعل سبحانه طلوع الشَّمس دُوَلاً بين أهل الأرض؛ لينَال نفعُها وتأثيرُها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلَّا أخذ بقسطه منها.

واقتضى هذا التَّدبيرُ المحكم، أن وقع مقدار اللَّيل والنَّهار على أربعٍ

وعشرين ساعة، ويأخذ كلٌّ منهما من صاحبه، ومنتهى كلٌّ منهما إذا ٱمتدَّ خمسَ عشرة ساعة، فلو زاد مقدار النَّهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر؛ لاختَلَّ نظامُ العالم وفَسَد أكثر الحيوان والنَّبات، ولو نقص مقداره عن ذلك؛ لاختلَّ النِّظام أيضاً وتعطَّلت المصالح، ولو استويا لما ٱختلفت فصول السَّنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان؛ فكان في هذا التَّقدير والتَّدبير المُحكَم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأنَّ ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

وانظر إلى «**القمر**» وعجائبِ آياته، كيف يبديه الله كالخيط الدَّقيق، ثمَّ يتزايد نورُه ويتكامل شيئاً فشيئاً كلَّ ليلة، حتَّى ينتهيَ إلى إبداره وكماله وتمامه، ثمَّ يأخذُ في النُّقصان حتَّى يعودَ إلى حالته الأولى؛ ليظهر من ذلك مواقيتُ العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، مع ما في ذلك من الحِكَم والآيات والعبر الَّتي لا يحصيها إلَّا الله.

وأمَّا تأثير نور القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنَّبات وتصليبِها؛ ليقابِل ما في ضوء الشَّمس من التَّسخين والتَّحليل، وتأثيرُه في المياه وجَزْرِ البحر ومدِّه وبُحْراناتِ الأمراض[1] وتنقُّلِها من حالٍ إلى حال، وغير ذلك من المنافع؛ فأمر ظاهر.

ولمَّا كان الحيوان قد يحتاج في اللَّيل إلى حركةٍ ومَسِيرٍ وعملٍ لا يتهيَّأ له بالنَّهار ـ لضيق النَّهار، أو لشدَّة الحرِّ، أو لخوفه بالنَّهار ـ كحال كثير من الحيوان؛ جعل سبحانه من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتَّى معه

(١) أي: تغيّرها.

أعمال كثيرة ـ كالسَّفر والحرث وغير ذلك ـ.

فَسَلِ «**الْجَارِيَاتِ يُسْراً**» ـ مِنَ الكواكب والشَّمس والقمر ـ مَنِ الذي خلقَها وأحسن خَلْقها، ورفع مكانها، وزيَّن بها قبَّة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها وألوانها وحركاتها وأماكنها من السَّماء(١)؟! تدلُّك على وجود الخالق وصفات كماله، وربوبيَّته وحكمته ووحدانيَّته أعظمَ دلالة، وكلَّما دلَّ على صفات جلاله ونعوت كماله دلَّ على صدق رسله.

فكما جعل الله النُّجومَ هدايةً في طريق البَرِّ والبحر؛ فهي هداية في طُرق العِلْم بالخالق سبحانه وقدرتِه وعلمِه وحكمتِه، والمبدأ والمعادِ والنُّبوَّة(٢).

---

(١) فمنها: الكبير، ومنها: الصَّغير والمتوسِّط، والأبيض والأحمر، والزّجاجي اللَّون، والدرِّي اللون، والمتوسط في قبَّة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك.
ومنها: ما يقطع الفلك في شهر، ومنها: ما يقطعه في عام، ومنها: ما يقطعه في ثلاثين عاماً، ومنها: ما يقطعه في أضعاف ذلك.
ومنها: ما لا يزال ظاهراً أبداً، ومنها: أَبَديُّ الخفاء، ومنها: ما له حالتان: حالة ظهور واختفاء.
ومنها: ما له حركتان: حركة عَرَضيَّة من المشرق إلى المغرب، وحركة ذاتيَّة من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ كوكب في الغروب فإذا كوكب آخرُ في مقابلته، وكوكب آخرُ قد طلع وهو آخذ في الارتفاع، وكوكب آخر في الرُّبع الشَّرقي، وكوكب آخر في وسط السَّماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب وكأنَّه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبتَه.

(٢) فإذا تأمَّل البصيرُ القمرَ ـ مثلًا ـ وافتقارَه إلى محلٍّ يقوم به، وسيرَه دائماً لا يَفْتر، مُسيَّر، مسخَّر، مدبَّر، وهبوطَه تارة، وارتفاعَه تارة، وأفولَه تارة، وظهورَه تارة، وذهابَ نوره شيئاً فشيئاً، ثم عودَه إليه كذلك، وسَلْبَ ضوئه جملةً واحدة حتى يعودَ قِطَعُه مظلمةً بالكسوف: عَلِم ـ قطعاً ـ أنَّه خَلْق مربوب، مسخَّر تحت أمرِ خالقٍ قاهرٍ مسخِّرٍ له كما يشاء.
وعَلِم أنَّ الرَّبَّ سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأنَّ هذه الحركةَ فيه لا بدَّ أن تنتهي إلى ضدِّه، وأنَّ هذا السُّلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لَّم يكونا مجتمعين؛ ويذهب بهما حيث شاء، ويُري المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه، كما يُري عبَّادَ الكواكبِ انتثارَها، وعبَّادَ السَّماءِ انفطارَها، وعبَّادَ الشمسِ تكويرَها، وعبَّادَ الأصنام إهانتَها وإلقاءَها في النَّار أحقرَ شيءٍ وأذلَّه وأصغرَه. =

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وتفكَّروا في خلق السَّموات والأرض؛ يصلْ بكم إلى ما أوصل أولـي الألباب، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

بارك الله لي ولكم...

= كما أَرى عُبَّادَ العجل في الدُّنيا حالَه ومَبَارِدَ عِبَادِهِ تَسْحقُه وتمحقه، والرِّيح تُمَزِّقه وتذروه وتنسفه في اليمِّ.

وكما أرى عبَّاد الأصنام في الدُّنيا صورَها مكسرةً مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاولَ الموحِّدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرُّؤوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل التي كانت لا يوصل إليها بغير التَّقبيل والاستلام.

وهذه سنَّة الله التي لا تتبدَّل، وعادته التي لا تتحوَّل: أنه يُري عابده حال معبوده في الدُّنيا والآخرة، ويُريه تبرِّيه منه ومعاداته أحوج ما يكون إليه.

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التَّغيير في الشَّمس، ولو شاء لغيرهما جميعاً، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة، ولكن يُري عباده آياتِه في أنواع تصاريفها؛ ليدُلَّهم على أنَّه الذي لا إلٰه إلَّا هو الملكُ الحقُّ المبين، والفعَّالُ لما يريد.

قلت: ومما قرأت في كتب ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ ـ وأظنه: «نقض تأسيس الجهمية» ـ قوله: «ثلاثة أشياء لا نظير لها في المخلوقات: الرُّوح، والشَّمس، والقمر» يعني: فيعتبر بها ـ ولله المثل الأعلى ـ.

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه...

أمَّا بعد:

فقد قال الله جلَّ وعـلا: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعرَاف: ١٨٥].

عباد الله:

النَّظر في السَّموات والأرضِ والشَّمسِ والقمرِ والنَّجومِ وأمثالِها نوعان:

نَظَرٌ إليها بالبصر الظَّاهر، فيرى ـ مثلاً ـ: زرقةَ السَّماء ونجومَها وعلوَّها وسَـعتَها، وهذا نَظَرٌ يشـارك الإنسـانُ فيـه غيرَه مـن الحيوانـات، وليس هو المقصود بالأمر.

الثَّانـي: أن يتجـاوز هذا إلـى النَّظـر بالبصيرة الباطنـة؛ فتُفتح لـه أبواب السَّـماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثـمَّ يُفتح له بابٌ بعد باب، حتى ينتهيَ به سـيرُ القلب إلى عـرش الرَّحمن؛ فينظرُ سَـعتَه وعظمتَه وجلالَه ومجدَه ورفعتَه، ويرى السَّـمواتِ السَّـبعَ والأرضين السَّـبعَ بالنِّسبة

إليـه كحلقـة ملقاة بأرض فـلاة[1]، ويـرى الملائكـة حافِّين مـن حوله، لهم زَجَلٌ بالتَّسـبيح والتَّحميد والتَّقديس والتَّكبير، والأمر ينـزل من فوقِه بتدبير الممالك والجنود الَّتي لا يعلمها إلَّا ربُّها ومليكُها.

يُنـزِّل الأمـر بإحياءِ قـومٍ وإماتـةِ آخريـن، وإعـزازِ قـومٍ وإذلالِ آخرين، وإسعادِ قومٍ وشقاوة آخرين، وإنشاءِ مُلكٍ وسَـلْبِ مُلك، وتحويلِ نعمةٍ من محلٍّ إلى محلّ. وقضاءِ الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها ـ من جبرِ كسـيرٍ، وإغناءِ فقيرٍ، وشـفاءِ مريضٍ، وتفريجِ كربٍ، ومغفرةِ ذنبٍ، وكشـفِ ضُرٍّ، ونصرِ مظلومٍ، وهدايةِ حيرانٍ، وتعليمِ جاهلٍ، وردِّ آبقٍ، وأمانِ خائفٍ، وإجارةِ مسـتجيرٍ، ومدَدٍ لضعيفٍ، وإغاثـةٍ لملهوفٍ، وإعانـةٍ لعاجزٍ، وانتقامٍ من ظالمٍ، وكفٍّ لعدوان ـ فهي مراسيمُ دائرةٌ بين العدلِ والفضلِ، والحكمةِ والرَّحمةِ، تنفذ في أقطار العوالم، لا يَشْغَلُه سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تُغْلِطـه كثرة المسـائل والحوائج علـى اختلافها وتباينهـا واتِّحاد وقتها، ولا يتبرَّمُ بإلحاح الملحِّين، ولا تَنْقُـص ذرَّةٌ من خزائنه، لا إلٰه إلَّا هو العزيز الحكيم.

فحينئذ يقـوم القلب بين يـدي الرَّحمن مُطْرِقـاً لهيبته، خاشـعاً لعظمته،

(١) وهـذه المخلوقـات بعضهـا فـوق بعض، وليـس بعضها محتاجـاً لبعض في حملـه له. وعلو الأرض وجهُهـا مـن كلِّ جانـب، وأسـفلُها ما تحت وجههـا، والماء يحيط بأكثرهـا، والهواء يحيط بالماء، والسَّـماء فوق الأرض محيطةٌ بها من كلِّ جانب، والثَّانية كذلك، وكذا الباقي، والكرسـي بين يدي العرش، والسَّـموات السَّـبع والأرضون السَّـبع في الكرسي كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسيُّ في العرش كتلك الحلقة في الفلاة ـ يعني: بالنِّسبة إليه في العِظَم، وكذلـك السَّـموات والأرض بالنِّسـبة إلى الكرسـي ـ. وتحـت العرش بحـر، والعرشُ فوق جميع المخلوقات ـ مثلُ القبَّة ـ، وهو أوسعها وأجمعها لصفات الحسن وبهاء المنظر وعلو القدر والرُّتبة والذَّات، ولا يَقْدُر قدرَ عظمته إلا الله. ومجدُه مستفاد من مجد خالقه ومبدعه، وهو سقف جنَّة عدن التي هي أعلا الجنَّة، وله قوائم، والله فوق العرش.

عانٍ لعزَّته، فيسجد بين يدي الحقِّ المبين سجدةً لا يرفع رأسَه منها إلى يوم القيامة.

فهذا سَفَر القلب وهو في وطنه وداره ومَحلِّ ملكه، وهذا من أعظم آياتِ الله وعجائبِ صنعه، فيا له من سَفرٍ ما أبركَه وأَرْوحَه، وأعظَمَ ثمرتَه وأربحَه، وأَجلَّ منفعتَه وأحسنَ عاقبته! سَفَرٌ هو حياة الأرواح، ومفتاحُ السَّعادة، وغنيمةُ العقول والألباب، لا كالسَّفر الذي هو قطعة من العذاب ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢][(١)].

عباد الله:

إنَّ أحسن الحديث كتاب الله...

---

(١) مفتاح دار السَّعادة ص ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٧، ١٥٦، ١٢٥، ١٢٦. التبيان ص ١٦٥، ١٠٥، ١٧٥، ١٧٦، ٦١. بدائع الفوائد جـ ١/ ١١٦، ١١٥. الصَّواعق المرسلة ص ١٥٦٧. مجموع الفتاوى جـ ٦/ ٥٩٦، ٥٩٩، جـ ٥/ ٦٤، ١٥١، ١٥٠، جـ ١٧/ ٢٢٣.

(ومـا بينهما)
الهـواء ومنـافعـه
والرِّياح والرِّيح خيرها وشرّها

الحمـد لله الـذي نصـب الكائنـاتِ علـى ربوبيَّتـه ووحدانيَّتـه حُججـاً، وأوجـب الفوز بالنَّجاة لمن شـهد لـه بالوحدانيَّة شـهادةً لم يَبـغِ لها عوجاً، أسـبَغَ على عباده نِعَمه الفرادى والتَّوائم، وسخَّر لهم البَرَّ والبحر، والشَّمسَ والقمـر، والهـواءَ والمطـر، واللَّيـلَ والنَّهـار، والعيـونَ والأنهـار، والضِّياءَ والظَّلام، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، يدعوهم إلى جواره في دار السَّلام.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا سَمِيَّ له، ولا كفو له، ولا صاحبةَ له، ولا ولدَ له، ولا شـبيهَ له، ولا يُحصي أحدٌ ثناءً عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني عليه خلقُه.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، وخيرتُه من خلقه، وأمينُه على وحيه، وسـفيرُه بينه وبين عباده. أرسـله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجَّةً للسَّـالكين، وحجَّـةً علـى العبـاد أجمعين، جاهـدَ أعـداءَ اللهِ باليـد والقلب واللِّسـان؛ فدعـا إلى الله علـى بصيرة، وسـار في الأمَّـة بالعدل والإحسـان وخُلُقِهِ العظيمِ أحسنَ سـيرة، إلى أن أشرقت برسـالته الأرضُ بعد ظلامها، وتألَّفت به القلوب بعد شـتاتها، وسـارت دعوتُه سيرَ الشَّـمس في الأقطار،

وبلَـغَ دينُـه القيِّمُ ما بلـغ اللَّيلُ والنَّهـار؛ فجزاه الله عـن أمَّته أفضـلَ الجزاء، وصلَّى عليه صلاةً تبلغ أقطارَ الأرضِ والسَّماء، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

«**الرِّياح**» من أعظم آيات الله الدَّالةِ علـى عظمته وربوبيَّته وقدرته، وفيها من العبر: هبوبُها وسـكونُها، ولينُها وشـدَّتُها، واْختـلافُ طبائعِها وصفاتِها، ومهابُّهـا وتصريفُها، وتنـوُّعُ منافِعها، وشـدَّةُ الحاجة إليها؛ ولهذا أقسـم الله سـبحانه بها في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذّاريَات: ١] وهي: الرِّياح تذروا المطر، وتـذروا التُّـراب، وتـذروا النَّبات إذا تهشَّـم، ثمَّ بمـا فوقها وهو السَّـحاب، ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذّاريَـات: ٢] أي: ثِقَلاً من الماء يسوقها الله سبحانه على متون الرِّياح، فالقَسَم بها دليل على أنَّها من أعظم آياته.

هذا «**الهواء**» اللَّطيف المحبوس بين السَّـماء والأرض، يُدْرَك جسـمه بحسِّ اللَّمس عند هبوبه ولا يُرى شـخصُه، يجري بين السَّـماء والأرض، والطَّيـرُ محلِّقـةٌ فيه، سـابحةٌ بأجنحتها فـي أمواجـه، كما تَسْـبح حيواناتُ البحـر في المـاء، وتضطـرب جوانبه وأمواجـه عند هيجانه كمـا تضطرب أمـواج البحر. فـإذا شـاء الله سـبحانه حرَّكه بحركـة الرَّحمة فجعلـه رخاءً ورحمةً، وبشـرىً بين يدي رحمته، ولاقحاً للسَّـحاب[١]، وإن شـاء حرَّكه بحركة عـذاب فجعله عقيمـاً، وأودعه عذابـاً أليماً، وجعله نقمـةً على من شـاء من عبـاده، فجعلـه صَرْصـراً، ونَحْسـاً وعاتياً، ومفسـداً لما يمـرُّ به، ومسبِّباً للفيضان المدمِّر.

وهـي في قوَّتها أشـدُّ مـن الحديـد والنَّـار والماء، ومـع ذلك فهـي ألطفُ

---

(١) وتسمَّى رياح الرَّحمة: المبشِّرات والنَّاشرات، والذَّاريات والمرسلات، والرَّخاء واللَّواقح. ورياح العذاب: العاصف والقاصف ـ وهما في البحر ـ، والعقيم والصَّرصر ـ وهما في البرِّ ـ.

شـيء وأَقبلُ المخلوقاتِ لكلِّ كيفية، سريعةُ التَّأَثُّر والتَّأثير، لطيفةُ المسارق بين السَّماء والأرض.

تأمَّل هذا الهواءَ وما فيه من المصالح؛ فإنَّه حياة هذه الأبدان، والممسكُ لها من داخلٍ بما تستنشـق منه، ومن خارجٍ بما تُبَاشَرُ به من رَوْحِه، فتتغذَّى به ظاهراً وباطناً.

فحياة ما على الأرض من نبـات وحيوان بالرِّياح؛ فإنَّه لولا تسـخير الله لها لعباده لَذَوَى النَّبات، ومات الحيوان، وفسـدت المطاعـم، وأنتن العالم وفسد، فسبحان من جعل هبوب الرِّياح تأتي برَوْحِه ورحمته ولطفه ونعمته! كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**الرِّياح من روح الله تأتي بالرَّحمة**».

«**الرِّياح**» تلقِّح الشَّـجر والنَّبات، ولولاها لكانت عقيماً، وكذلك الرِّياح تُسيِّر السُّفنَ، ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها: أنَّها تبـرِّد الماء، وتُضرم النَّار التي يُراد إضرامها، وتجفِّف الأشياء التي يُحتاج إلى جفافها.

وهـو: الحامـل لهـذه الرَّوائح علـى اختلافهـا، ينقلهـا من موضـعٍ إلى موضع، فتأتي العبدَ الرَّائحةُ من حيث تهب الرِّيح، وهو أيضاً: الحامل للحرِّ والبرد اللَّذين بهما صلاح الحيوان والنَّبات.

وتأمَّلوا الحكمـة البالغة في كـون الرِّيح في البحر تأتي مـن وجهٍ واحد لا يعارضهـا شـيء؛ فإنَّ السَّـفينة لا تسـير إلَّا بريـح واحدة من وجـهٍ واحدٍ سـيرُها، فإذا اختلف عليها الرِّياح وتصادمت وتقابلت؛ فهو سـبب الهلاك، فالمقصود بها في البحر غيـرُ المقصود بها في البرِّ، في البـرِّ جعل لها ريحاً أُخرى تقابلها وتكسِر سَوْرتَها وحدَّتها، فيبقى لينُها ورحمتُها، فرياح الرَّحمة

متعدِّدة. وأمَّا ريـح العذاب فإنَّه ريح واحدة، تُرسـل من وجه واحد لإهلاك ما تُرسـل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريحٌ أخرى تقابلها وتكسِـر سَـوْرتَها وتدفع حدَّتها.

وجعل سبحانه الرِّيح للسُّفن بِقَدَرٍ لو زاد عليها لأغرقها، ولو نقص عنه لعاقها.

والرِّيـاح تحمل الصَّـوت عند اصطـكاك الأجرام، وتؤدِّيه إلى مسـامع النَّـاس، فينتفعـون به فـي حوائجهـم ومعاملاتهم باللَّيـل والنَّهـار؛ كالبريد والرَّسـول الذي من شـأنه حملُ الأخبار. وتَحْدُثُ الحـركات العظيمة من حركاتهـم، فلو كان أثـر هذه الحـركاتِ والأصـواتِ يبقى في الهـواء كما يبقـى الكتاب والقرطـاس لامتلأ العالم منـه، ولعظم الضَّرر به، واشـتدَّت مؤنتـه، واحتـاج النَّاس إلـى محوِه مـن الهـواء والاسـتبدالِ بـه أعظمَ من حاجتهـم إلـى اسـتبدال الكتـاب المملوء كتابـة؛ فاقتضـت حكمـة العزيزِ الحكيـمِ أن جعل هـذا الهواءَ قرطاسـاً خفيفاً يحمـل الكلام بقدر مـا يُبَلِّغُ الحاجـةَ، ثمَّ يُمحَـى بإذن ربِّه، فيعـودُ جديداً نقيّاً لا شـيء فيـه، فيَحْمِل ما حمـل كلَّ وقـت.

فَسَـلِ الرِّياح مَنْ أنشـأها بقدرته، وصرَّفها بحكمته، وسـخَّرها بمشيئته، وأرسلها بشرىً بين يدي رحمته. جعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته؟!

ومَـنْ جعلها رُخَـاءً وذاريـة، ولاقحـة ومثيرة ومؤلِّفـة، ومغذِّيـة لأبدان الحيوان والشَّـجر والنَّبات؟! وجعلها قاصفاً وعاصفاً، ومهلكةً وعاتية، إلى غير ذلك من صفاتها؟!

فهل ذلـك لها من نَفْسِـها وذاتهـا؟ أم بتدبير مدبِّر شـهدت الموجوداتُ

بربوبيَّته، وأقـرَّت المصنوعـاتُ بوحدانيَّته؟ بيـده النَّفعُ والضّـرُّ، وله الخلق والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين.

ولمَّا كانت الرِّيـاح تجول في الأرض، وتَدْخلُ فـي تجاويفها، وتُحْدِثُ فيها الأبخـرةَ وتختنق الرِّياحُ ويتعـذَّر عليها المنفذ: أذن الله سـبحانه لها في الأحيـان بالتَّنفُّـس، فَتَحْدُث لها الـزَّلازلُ العظـام، فيَحْدُث مـن ذلك لعباده الخوفُ والخشيةُ والإنابة، والإقلاعُ عن معاصيه، والتَّضرُّعُ إليه والنَّدم؛ كما قال بعض السَّـلف ـ وقـد زُلْزِلـت الأرض ـ: «إنَّ ربَّكم يسـتعتبُكم»، وقال عمر بـن الخطَّاب رضي الله عنه ـ وقـد زلْزلت المدينـة فخطبهم ووعظهـم ـ وقال: «لئن عادت لا أساكنكم فيها».

فاتَّقوا الله ـ عبـاد الله ـ، واعتبروا بخلـق الهواء والرِّيـاح، وما جعل الله فيها من المنافع لعباده، وما جعل فيها من العذاب.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٢ـ٣٤].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله...

أمَّا بعد:

فتأمَّلوا ـ عباد الله ـ الحكمةَ البديعةَ في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوجُ إليه وتوسيعُه وبذلُه، فكلَّما كانوا أحوجَ إليه كان أكثرَ وأوسع، وكلَّما استغنوا عنه كان أقلَّ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده. واعْتَبِروا هذا بالأصول الأربعة: التُّراب، والماء، والهواء، والنَّار. تأمَّلوا سعة ما خلق الله منها وكثرته.

تأمَّلوا سَعَةَ الهواء وعمومَه ووجودَه بكلِّ مكان؛ لأنَّ الحيوان مخلوق من البرِّ لا يمكنه الحياة إلَّا به، فهو معه أينما كان وحيث كان؛ لأنَّه لا يستغني عنه لحظةً واحدة، ولولا سَعَته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدُّخان والبخار المتصاعد المنعقد. فتأمَّل حكمةَ ربِّك في أن سخَّر له الرِّياح، فإذا تصاعد إلى الجو، أحالته سحاباً أو ضباباً، فأذهبت عن العالم شرَّه وأذاه.

فَسَل الجاحدين مَنِ الذي دبَّر هذا التَّدبير، وقدَّر هذا التَّقدير؟! وهل يَقدِر العالمُ كلُّهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحاباً أو ضباباً، أو يذهبوه عن النَّاس ويكشفوه عنهم؟! ولو شاء ربُّه تعالى أن يحبس عنه

الرِّيـاح، فاختنق علـى وجـه الأرض، فأهلك ما فيهـا من الحيـوان والنَّاس ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: ٧]، فاشـكروه ـ تعالى ـ واتَّقـوه، واعتبروا يا أولي الأبصار.

واعلموا ـ عباد الله ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرشـد إلـى ما يُقال عند شـدّة هبوب الرِّياح من الدُّعاء ـ الذي هو عبوديَّةٌ لله، واعترافٌ بأنَّها إنَّما تَهُبُّ بأمره؛ فهو الـذي أوجدها وأمرها وصرَّفها ـ، عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «**لا تسـبُّوا الرِّيح، فـإذا رأيتم ما تكرهـون فقولوا: اللَّهمَّ إنَّا نسـألك من خير هذه الرِّيـح، وخيرِ ما فيها، وخيرِ مـا أُمرت به، ونعوذ بك من شـرِّ هذه الرِّيح، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت به**»، فهذه حال أهل الإيمان خلافاً لحال أهل الجهل والجفاء والعصيان(١).

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) التبيان ص ١٧٣ ـ ١٧٥. مفتاح جـ ١ ص ٢٠٥، ٢١٦، ٢٠٠ ـ ٢٢٤، ٢١٨، ٢٠٦، ٢٨٢.

السَّحاب، والنَّبات، والثِّمار

الحمد لله الكريم المنَّان، واسعِ العطاء جزيلِ الإحسان.

وأشهد ألَّا إلٰه إلا اللهُ وحده لا شريك له، القائمُ بأرزاق خلقه من حيوانٍ وإنسٍ وجانٍّ.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، كان إذا حَزَبه أمر فَزَعَ إلى الصَّلاة، وإذا أجدبت الأرض رفع يديه إلى السَّماء، فما تتخلف إجابةُ ذلك الدُّعاء.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه البررةِ نجومِ الدُّجى.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

من آيات الله: «**السَّحابُ**» المسخَّرُ بين السَّماء والأرض، كيف ترونه يجتمع في جوٍّ صافٍ لا كدرة فيه؟! وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء؟! وهو مع لينه ورَخاوته حامل للماء الثَّقيل بين السَّماء والأرض إلى أن يأذن له ربُّه وخالقُه في إرسال ما معه من الماء، روى التِّرمذيُّ وغيرُه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: **هل تدرون ما هذه؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **هذا العَنان، هذه روايا الأرض** ـ أي: الحاملةُ للماء ـ **يسوقها الله إلى قومٍ**

لا يشكرونه ولا يَدْعُونه» يعني: لسعة رحمته وحلمه سبحانه يسقي به من يطيعه ومن يعصيه، وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا رأى السَّحاب قال: «في هذه واللهِ رزقكم، ولكنَّكم تُحْرَمُونه بخطاياكم وذنوبكم»، وقال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرِّزق: المطر، وما توعدون به: الجنَّة، وكلاهما في السَّماء.

وفي الصَّحيح: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**بينا رجل بفلاة من الأرض، إذْ سمع صوتاً من سحابة: اسْقِ حديقة فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغ ماءه في حرَّة، فإذا بَشْرجةٍ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء، فَتَبِع الماءَ فإذا رجل قائم في حديقته يُحَوِّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان ـ للاسم الذي سمع في السَّحابة ـ فقال له: يا عبد الله! لم سألتني عن اسمي؟! قال: إنِّي سمعت صوتاً في السَّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسْقِ حديقة فلان ـ لاسمك ـ فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا فإنِّي أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثلثِه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثَه** ـ وفي رواية: **وأجْعَلُ ثلثه لليتامى والمساكين وابن السَّبيل** ـ» أخرجه مسلم.

فتأمَّلوا كيف يسوقه سبحانه رزقاً للعباد والدَّواب والطَّير والذَّر والنَّمل، يسوقه رزقاً للحيوان الفلاني، في الأرض الفلانية، بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه على شدَّةٍ من الحاجة والعطش، في وقت كذا وكذا.

وتأمَّلوا ـ رحمكم الله ـ كم سخَّر سبحانه للسَّحاب من ريح حتَّى أمطر؟! فَسُخِّرت له المثيرةُ أوَّلاً فتثيره بين السَّماء والأرض، ثمَّ سُخِّرت له الحاملةُ التي تحمله على متنها؛ كالجمل الذي يحمل الرَّاوية، ثمَّ سُخِّرت له المؤلِّفةُ، فتؤلِّف بين كِسَفِه وقِطَعِه، ثمَّ يجتمع بعضها إلى بعض فتصير

طبقاً واحداً، ثمَّ سُخِّرت له اللَّاقحةُ فتحمل الماء من البحر وتلقِّحها به؛ كما يلقِّح الفحل الأنثى، فيحمِل الماء من وقته؛ كما تحمِل الأنثى من لقاح الفحل، ولولاها لكان جَهَاماً لا ماء فيه.

فالله سبحانه يُنشئ الماءَ من السَّحاب إنشاءً، تارة بِقَلْبِ الهواء ماءً فيُلقَّح به السَّحاب، وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقَّح به السَّحاب؛ ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار، وإذا بَعُدت من البحر قلَّ مطرها.

ثمَّ تأمَّلوا الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علوٍّ؛ ليعمَّ بسقيه وِهادَها وتلالَها وظِرابَها وآكامَها ومنخفضَها ومرتفعَها، ولو كان ربُّها يسقيها من ناحية من نواحيها، لما أتى الماءُ على النَّاحية المرتفعة إلَّا إذا اجتمع في السُّفلى وكَثُر، وفي ذلك فساد.

فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها، ثمَّ أنزله إلى الأرض بغايةٍ من اللُّطف والحكمة التي لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها، فيرُشُّ السَّحابُ الماءَ على الأرض رشّاً، ويرسله قطراتٍ مفصَّلةً لا تختلط منه قطرةٌ بأخرى، ولا يتقدَّمُ متأخِّرُها، ولا يتأخَّرُ متقدِّمُها، ولا تُدرِك القطرةُ صاحبتَها فتمتزج بها؛ بل تنزل كلُّ واحدة في الطَّريق الذي رُسم لها ـ لا تعدل عنه ـ حتى تُصيبَ الأرضَ قطرةً قطرة، قد عُيِّنت كلُّ قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعدَّاه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلُّهم أن يخلقوا منها قطرة واحدة، أو يُحْصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه. أنزله ومعه رحمته إلى الأرض.

ثمَّ تأمَّل الحكمةَ البالغة في إنزاله بقدْرِ الحاجة، حتَّى إذا ما أخذت الأرضُ حاجتها منه، وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرُّها، أقلع عنها وأعقبه بالصَّحو، فلو توالت الأمطار لأهلكت ما في الأرض، ولو زادت على

الحاجة أفسدت الحبوبَ والثِّمار، وعفَّنت الزَّرع والخُضروات، وأَرْخَت الأبدان، وخَثَّرت الهواء، فحدثت ضروبٌ من الأمراض، وفسد أكثرُ المآكل، وتقطَّعت المسالك والسُّبل.

ولو دام الصَّحوُ لجفَّت الأبدان، وغِيضَ الماء، وانقطع مَعينُ العيونِ والآبارِ والأنهارِ والأودية، وعَظُمَ الضَّرر، واحتدم الهواء فَيَبِس ما على الأرض، وجفَّت الأبدان، وغلب اليبس، وأحدث ذلك ضروباً من الأمراض عَسِرةِ الزَّوَال.

فاقتضت حكمة اللَّطيف الخبير أنْ عاقب بين الصَّحو والمطر على هذا العالم؛ فاعتدل الأمر، وصحَّ الهواء، ودفع كلٌّ واحدٍ منهما عاديةَ الآخر، واستقام أمر العالم وصلح.

ثمَّ كيف أودعه في الأرض، ثمَّ أخرج أنواعَ الأغذيةِ والأدويةِ والأقوات، فهذا النَّبات يغذِّي، وهذا يُصلح الغذاء، وهذا يُنْفِذُه، وهذا يُضعِف، وهذا سمٌّ قاتل، وهذا الشِّفاء من السُّمِّ، وهذا يُمرِض، وهذا دواء من المرض، وهذا يُبَرِّد، وهذا يُسَخِّن، وهذا إذا حصل في المعدة قَمَع الصَّفراء من أعماق العروق، وهذا إذا حصل فيها ولَّد الصَّفراء واستحال إليها، وهذا يدفع البلغم والسَّوداء، وهذا يستحيل إليهما، وهذا يهيِّج الدَّم، وهذا يُسَكِّنه، وهذا ينوِّم، وهذا يمنع النَّوم، وهذا يُفْرِح، وهذا يجلب الغمَّ، وغيرُ ذلك من عجائب النَّبات التي لا تكاد تخلو ورقةٌ منه، ولا عِرْقٌ ولا ثمرة، من منافعَ تَعْجَز عقولُ البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها.

وانظر إلى مجاري الماء في تلك العروق الرَّقيقةِ الضَّئيلةِ الضَّعيفة، التي لا يكاد البصر يدركها إلَّا بعد تحديقه، كيف يَقْوى قَسْرُه واجتذابه من مقرِّه ومركزه إلى فوق، ثمَّ ينصرف في تلك المجاري بِحَسَب قَبُولها وَسَعَتها

وضيقها، ثمَّ تتفرَّق وتتشعَّب وتَدِقُّ إلى غايةٍ لا ينالها البصر.

ثمَّ انظر إلى تكوين حمل الشَّجرة، ونُقْلتِه من حالٍ إلى حالٍ؛ كتنقُّل أحوال الجنين المغيَّب عن الأبصار، ترى العجب العجاب، فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين، بينا تراها حطباً قائماً عارياً لا كسوة عليها، إذ كساها ربُّها وخالقُها من الزَّهر أحسنَ كُسوة، ثمَّ سلبها تلك الكُسوةَ وكساها من الورَق كُسوةً هي أثبت من الأولى، ثمَّ أَطْلعَ فيها حملها ضعيفاً ضئيلاً، بعد أن أخرج وَرَقَها صيانةً وثوباً لتلك الثَّمرة الضَّعيفة؛ لتستجنَّ به من الحرِّ والبرد والآفات، ثمَّ ساق إلى تلك الثِّمار رزقها، وغذاها في تلك العروق والمجاري فتغذَّت به كما يتغذَّى الطِّفل بلِبَان أمِّه، ثمَّ ربَّاها ونمَّاها شيئاً فشيئاً حتَّى استوت وكَمَلت وتناهى إدراكها، فأَخْرَجَ ذلك الجنينَ اللَّذيذَ اللَّيِّنَ من تلك الحطبة الصَّمَّاء.

هذا، وكم لله من آيةٍ فيما يقع الحسُّ عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه؟! تفنى الأعمار دون الإحاطة بها وبجميع تفاصيلها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٧، ٨]، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واتَّقوا الله.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله...

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أمر سبحانه بالنَّظر إليه وقتَ خروجِه وإثمارِه، ووقتَ نُضجِه وإدراكِه؛ لأنَّ في خروجه من بين الحطب والوَرَق آيةً باهرة، وقدرةً بالغة، ثمَّ من خروجه من حدِّ العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللَّون المشرقِ النَّاصعِ والطَّعمِ الحُلوِ اللَّذيذ الشَّهي، لَآياتٍ لقومٍ يؤمنون، قال بعض السَّلف: «حقٌّ على النَّاس أن يَخْرُجوا وقت إدراكِ الثِّمار وينعها فينظروا إليها، ثمَّ تلا: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]».

وتأمَّلوا حكمة الله تعالى في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزَّكاة وحَرَموا المساكين، كيف جُوزُوا على منع ما للمساكين

قِبَلَهُم من القوت، بمنع الله ماءَ القوتِ والرِّزقِ وحبسِه عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحقَّ فمُنِعتُم الغيث؛ فهلَّا استنزلتموه ببذل ما لله قِبَلَكُم، وجاء في الحديث: «**ما منع قوم زكاةَ أموالهم، إلَّا مُنعوا القطرَ من السَّماء**»(١).

إنَّ أحسن الحديث...

(١) مفتاح جـ ٢٠٢/١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢١٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٥٣. ومن الصَّواعق ص ١١١٠.

التَّفكُّر في البحر
والاعتبار بأمواجه وتنوُّعِ ما فيه
من الجواهر والحيوانات وما في البَرِّ منها

الحمد لله الذي نوَّع أدلَّة ربوبيَّته وتوحيدِه وقامت من كلِّ جانب، فَعَرَفه الموفَّقون من عباده وأقرُّوا بتوحيده إيماناً وإذعاناً، وجحده المخذولون من خليقته وأشركوا به ظلماً وكفراناً، فهلك من هلك عن بيِّنة وحَيَّ من حَيَّ عن بيِّنة، والله سميع عليم.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له شهادةَ من يعلمُ أنَّه لا ربَّ له سواه، ولا يَعْبُد إلَّا إيَّاه.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله الذي أكمل الله به الدِّين، وأتمَّ به النِّعمة على عباده المؤمنين، لم يفارق الأمَّة حتى تركها على المحجَّة البيضاءِ التي لا يزيغ عنها إلَّا مَنْ كان من الهالكين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التّوبَة: ١٢٨].

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

أحسن ما أنفقت فيه الأنفاس: هو التَّفكُّر في آياتِ الله وعجائبِ صنعه، والانتقالُ منها إلى تعلُّق القلب والهمَّة به دون شيء من مخلوقاته؛ ولهذا يكرِّر اللهُ تعالى في القرآن ذكرَ آياته ويُبْديها، ويأمر

عباده بالنَّظر إليها مرة بعد أخرى، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يُونس: ١٠١].

عباد الله:

من آيات الله وعجائب مصنوعاته: «**البحارُ**» المكتنفةُ لأقطارِ الأرض، حتى إنَّ المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنِّسبة إلى الماء؛ كجزيرةٍ صغيرة في بحرٍ عظيم، وبقيَّةُ الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرَّبِّ تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحَبْسُهُ الماء، لطفح على الأرض وعلاها كلِّها ـ هذا طبع الماء ـ.

ولهذا حَارَ عقلاء الطَّبيعيِّين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض، مع ٱقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن لم يغمرْه، ولم يجدوا ما يُحِيلون عليه ذلك إلَّا الاعتراف بالعناية الأزليَّة، والحكمةِ الإلٰهيَّة التي ٱقتضت ذلك؛ ليعيش الحيوان الأرضي في الأرض، وفي مسند الإمام أحمد: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما من يوم إلَّا والبحرُ يستأذن ربّه أن يُغرق بني آدم**»، وهذا أحد الأقوال في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطُّور: ٦]، وقيل في المسجور: إنَّه الموقَد، وهذا هو المعروف في اللُّغة، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التّكوير: ٦] قال علي وٱبن عبَّاس: «أُوقِدَت، فصارت ناراً». ومَنْ قال: يبِسَت وذهب ماؤها، فلا يُناقِض كونَها ناراً موقدة. وكذلك مَنْ قال: مُلئت، فإنَّها تُملأُ ناراً، فإنَّ البحر محبوسٌ بقدرة الله، ومملوءٌ ماءً، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير ناراً[١].

وإذا تأمَّلت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على ٱختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارِّها وألوانها، حتى إنَّ فيها حيواناً أمثالَ

(١) وهذه اللَّفظة تدل على ذلك كله، فكل من المفسِّرين أخذ معنًى من هذه المعاني، والله أعلم.

الجبال لا يقوم له شيء، وحتى إنَّ فيه من الحيوانات ما يُرى ظهورُها فيُظَنُّ أنَّها جزيرة، فينزل الرُّكَّاب عليها فتحسُّ بالنَّار إذا أُوقِدَت، فتتحرَّكُ فيُعلم أنَّه حيوان. وما من صنف من أصناف حيوان البرِّ إلَّا وفي البحر أمثالُه، وفيه أجناس لا يُعهد لها نظير في البرِّ أصلاً.

هذا مع ما فيه من الجواهر واللُّؤلؤ والمَرْجان، فترى اللُّؤلؤةَ كيف أُودعت في كِنٍّ ـ كالبيت لها، وهي الصَّدَفة تُكِنُّها وتحفظها ـ، ومنه: ﴿ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ [الواقِعَة: ٢٣]، وهو الذي في صَدَفِه لم تمسَّه الأيدي؟!

وتأمَّل كيف نبت «المَرْجَان» في قعره في الصَّخرة الصَّمَّاءِ تحت الماء على هيئة الشَّجر؟!

هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النَّفائس التي يقذفها البحر وتُسْتخرجُ منه.

ثمَّ اُنظر إلى عجائب السُّفن وسيرها في البحر، تشقّه وتمخره بلا قائد يقودها، ولا سائقٍ يسوقها، وإنَّما قائدُها وسائقُها الرِّياح التي يسخِّرها الله لإجرائها، فإذا حُبس عنها القائد والسَّائق ظلَّت راكدةً على وجه الماء، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۞ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣][1]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النّحل: ١٤]، فما أعظمها من آية! وما أبينها من دلالة!!؛ ولهذا يكرِّر الله سبحانه ذِكْرَها في كتابه كثيراً. وعجائب البحر وآياتُه أعظمُ وأكثرُ من أن يحصيَها إلَّا اللهُ

(١) حتى مع وجود محرِّكات للسُّفن، فالبحر هو الحامل لها المسخر لها، وما زال هناك سفن تجري بها الرِّياح، وإذا فقدت الطَّاقة فالرِّياح.

سبحانه، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

ومن آياته سبحانه في الأرض: خلق الحيوان على ٱختلاف صفاته وأجناسه، وأشكالِه ومنافعِه وألوانِه، وعجائبِه المودعةِ فيه، فمنه الماشي على بطنه، ومنه الماشي على رجلين، ومنه الماشي على أربع، ومنه ما جُعل سلاحه في رجليه ـ وهو ذو المخالب ـ، ومنه من جُعل سلاحه المناقير ـ كالنَّسر والرَّخْم والغراب ـ، ومنه ما سلاحه الأسنان، ومنه ما سلاحه الصَّياصي ـ وهي القرون يدافع بها عن نفسه مَنْ يَرومُ أخذَه ـ، ومنه ما أُعطي قوةً يدفع بها عن نفسه فلم يحتج إلى سلاح ـ كالأسد ـ، ومنه ما سلاحه في ذَرْقه ـ وهو نوع من الطَّير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ـ، ومنه ما تُشبه أعضاؤه جميعَ أعضاءِ الحيوان وهو الزَّرافة، فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق بعير، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر، فهي خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آيةً ودلالةً على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء؛ ليُريَ عبادَه أنَّه خالق أصناف الحيوان كلِّها كما يشاء، وفي أيِّ لون شاء.

كما يُري عبادَه قدرتَه التَّامَّةَ على خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة: منه ما خُلق من غير أبٍ ولا أمٍّ ـ وهو أبو النَّوع الإنساني ـ، ومنه ما خلق من ذكرٍ بلا أنثى ـ وهي أمُّهم التي خُلقت من ضِلَعِ آدم ـ، ومنهم من خُلق من أنثى بلا ذكر ـ وهو المسيح ٱبن مريم ـ، ومنه ما خلق من ذكرٍ وأنثى ـ وهو سائر النَّوع الإنساني ـ.

فيُري عبادَه آياتِه، ويتعرَّفُ إليهم بآلائه وقدرته، وأنّه إذا أراد شيئاً فإنَّما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فتنوُّع أفعاله ومفعولاته، وفعلُه الشَّيءَ

وضدَّه، والشَّيءَ وخلافَه، من أعظم الأدلَّة على ربوبيَّته وحكمته وعلمه.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ بفعل ما أمر، وتَرْكِ ما حظر؛ فالخالق لهذه الأشياءِ المتنوِّعةِ في هذا الكون العظيم هو المستحقُّ للعبادة.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد القهَّار، يفعل ما يُريد ويختار.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، لا يعجزه شيء، وإذا أراد شيئاً فإنَّما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله الصَّادقُ المأمون، اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدِك ورسولك محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد: فيا عباد اللّٰه:

إنَّ التَّفكُّـر في آيـات الله ينبِّه القلـب من رقدته، ولنسـتمع إلـى ما رواه أبو نعيم في «الحِلْية»[1] عن ثلاثة عبَّادٍ باتوا على ساحل البحر وتفكَّروا فيه.

روى بسنده: عن مَسْمَع بنِ عاصم قال: «بتُّ أنا وعبدُ العزيزِ بنُ سلمان وكِلَابُ بنُ جري وسـلمانُ الأعرج على سـاحلٍ من بعض السَّواحل، فبكى كِلابٌ حتى خشيتُ أن يموت، ثمَّ بكى عبدُ العزيز لبكائه، ثمَّ بكى سـلمانُ لبكائهما، وبكيـتُ أنا أيضاً لبكائهم، ثـمَّ لا أدري ما أبكاهـم، فلما كان بعدُ سألت عبدَ العزيزِ فقلت: أبا محمد! ما الذي أبكاك ليلتك؟ قال: إنِّي نظرت واللهِ إلى أمواج البحر تموج وتَحِيك، فذكرتُ أطباقَ النِّيران وزفَرَاتِها، فذاك

(١) جـ٦ ص ٢٤٤.

الذي أبكاني، ثمَّ سـألت كِلاباً وسـلمانَ، فقالا لي نحواً من ذلك، قال: فما كان في القوم شـرٌّ منِّي مـا كان بكائي إلَّا لبكائهم رحمةً لمـا كانوا يصنعون بأنفسهم»(١).

إنَّ أحسن الحديث...

(١) مفتاح دار السَّعادة جـ ١/ ٢٠٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢٠٥، ٢٥٠، ٢٦٣. التبيان ص ١٦٥.

خَلْقُ آدم أبي البشر

وفضلُه، وما في إيجاده وذريَّتِه من الحِكَم

الحمد لله الـذي ٱفتتح خلـق هذا العالـمِ بالقلـم؛ ليكتـب المقادير قبل كونهـا، ثمَّ خلـق الأرض والسَّـموات، مَهَّـدَ الدَّار قبـل السَّـاكنِ وجعل آدمَ آخِـرَ المخلوقات، وأظهر فضله وشـرفه بأن خلقه بيديه، وعلَّمه أسـماء كلِّ شيء، وأباحه جنَّته يسـكن منها حيث شـاء، ويأكُلُ منها ما شاء، وأسجد له الملائكة المقرَّبةَ لديه، وأظهر ما في قلب عدوِّه من الكِبْر والحسـد والشَّـرِّ الكامن لديه.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، خلق خلقه أصنافاً وأطواراً، وسـبق في حُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ تفضيـلُ آدمَ وبنيه على كثيـرٍ ممَّن خلق تفضيلاً، وجعل عبوديَّتهم أكملَ من عبوديَّة غيرهم، يخشـون ربَّهـم بالغيب، ويأتون بالطَّاعات طوعاً وٱختياراً، لا كَرهاً واضطراراً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، كُتِبَ نبيّاً وآدمُ بين الرُّوح والجسد، ونهـى عن الحرص والحسـد، اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وجميـع أصحابـه، وكلِّ من ٱهتـدى بهديـه إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

عباد الله:

ذكر الله جلَّ وعلا بدايةَ خلقِ الإنسان الأوَّل «آدمَ» أبي البشر عليه السلام، ومادَّتَه التي خُلق منها، وفضائلَه، وسُكْنَاه الجنَّة، وما جرى عليه وعلى عدوِّه من شؤم المعصية ومخالفةِ الأمر، ذكر الله حالَهما ومآلَهما؛ ليكون عظة وعبرة لأولادهما.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يُخبر عن ٱمتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم.

﴿خَلِيفَةً﴾: قوماً يَخْلُف بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل(١).

ولمَّا ٱعترضت الملائكةُ على خلق هذا الخليفة و﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٢): أجابهم سبحانه بأنَّ في خلقه من الحِكَم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، والخالق سبحانه يعلمه.

وأظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر

---

(١) لا أنَّهم خلفاءُ الله في الأرض، فإنَّ الخليفة لا يصير خليفة إلَّا مع مَغِيب المستخلِف أو موته، والله منزَّه عن الموت والنَّوم والغيبة، وهو الذي يخلف العبد.

(٢) وفي عبارة أخرى: إنَّما هو سؤال ٱستعلام وٱستكشاف عن وجه الحكمة لِمَا فهموه من الطَّبيعة البشرية.

هذه الخليفة ما لم يكونوا يعلمونه، بأنْ جعل من نسله من أوليائه وأحبابه ورُسُله وأنبيائه مَنْ يتقرَّبون إليه بأنواع القُرَب، ويبذُلون أنفسَهم في محبَّته ومرضاته، يسبِّحون بحمده آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار، ويذكرونه قائمين وقاعدين وعلى جُنُوبهم، ويعبدونه ويشكرونه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والشِّدَّةِ والرَّخاء، والعافيةِ والبلاء، ويعبدونه مع معارضة الشَّهوة وغلبة الهوى، ومعاداة بني جنسهم وغيرِهم، فلا يصدُّهم عن عبادته وشكره وذكره والتَّقرُّب إليه صادٌّ، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع، فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشَّواغل.

وأظهر لهم سبحانه من علمه ما لم يكونوا يعلمون من شرف آدم؛ فإنَّ الملائكة لمَّا رأته مصوَّراً فزعت منه، وقالت: ليخلق ربُّنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرمَ عليه مِنَّا، فلمَّا خلق آدمَ وأمرهم بالسُّجود له، ظهر بذلك شرفُه عليهم، وذُكر عن ٱبن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «إنَّ الله لمَّا أخذ في خلق آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قالت الملائكة: ما الله خالقٌ خلقاً أكرمَ عليه منَّا، فابْتُلوا بخلق آدم، وكلُّ خلق مبتلى، كما ابتليت السَّموات والأرض بالطَّاعة، قال الله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلَت: ١١]».

ثمَّ أظهر سبحانه فضلَ آدمَ على الملائكة بالعلم الذي خُصَّ به دونهم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١]، علَّمه الأشياء كلَّها ـ ذواتَها وصفاتِها وأفعالَها ـ: إنسان، ودابَّة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباهُ ذلك من الأمم وغيرُها(١).

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البَقَرَة: ٣١] عرض الخلق على الملائكة، ﴿فَقَالَ

(١) ولولا ذلك لما فَرَّق بين الغذاء والدَّواء، ولا بين السّموم القاتلة والشِّفاء، ولا ٱهتدى بالنُّجوم في البَرِّ والبحر؛ وكان هو المدبِّر لأولاده مدة حياته، ثم قام بالأمر بعده ولدُه... إلخ.

﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّي لم أخلق خلقاً إلَّا كنتم أعلَم منه وأكرم؟ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٢،٣٣] عرفوا أنَّ الله فضَّل عليهم آدمَ بالعلم.

فلمَّا وقع في الذَّنب ظنَّت الملائكة أنَّ ذلك الفضلَ قد نُسخ ولم تطَّلع على عبوديَّة التَّوبة الكامنة، فلمَّا تاب إلى ربِّه وأتى بتلك العبوديَّة، عَلِمت الملائكة أنَّ لله في خلقه سرّاً لا يعلمه سواه.

وأظهر لهم سبحانه مِنْ عِلْمِه ما خَفِيَ عليهم من شأنِ من كانوا يعظِّمونه ويجلُّونه ما لم يكونوا يعلمون؛ فإنَّ الرَّبَّ تعالى لمَّا أمر الملائكةَ بالسُّجود، ظهر ما في قلوبهم من الطَّاعة والمحبَّة والخشية والانقياد؛ فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوِّه من الكبر والغشِّ والحسد؛ فأبى واْستكبر وكان من الكافرين، و﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فاللَّعين لقصورِ نظره وضعفِ بصيرته رأى صورة الطِّينِ تراباً ممزوجاً بماءٍ فاحتقره، ولم يعلم أنَّ الطِّينَ مركَّبٌ من الماء الذي جعل الله منه كلَّ شيء حيٍّ، والتُّراب الذي هو خزانة المنافع والنِّعم، ثمَّ لم يتجاوز نظرُه مَحلَّ المادَّةِ إلى كمال الصُّورة الإنسانيَّةِ التَّامَّةِ المحاسنِ خَلْقاً وخُلُقاً، ثمَّ لم يدرِ اللَّعينُ أنَّ المادَّة التي خُلق منها هو، فيها الإحراقُ والعلو والفساد ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧](١).

---

(١) إبليس عارض النَّص بالقياس وقدَّمه عليه، وتأوَّل لنفسه أنَّ هذا القياسَ العقليَّ مقدَّمٌ على الأمر بالسُّجود، فإنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وأنَّ الفاضل لا يخضع للمفضول؛ فكانت النَّتيجة اْمتناعَه عن السُّجود.
وانظر الوجوهَ التي فيها الرَّدُّ عليه في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ في (الصَّواعق ص ١٠٠٢).

عباد الله:

ولمَّا سبق في حُكْم الله وحِكْمَته بأن يجعل في الأرض خليفة، لم يكن بُدٌّ من إخراج آدمَ من الجنَّة؛ فكان من أسباب إخراجه النَّهيُّ عن تلك الشَّجرة، وتَخْلِيتُه بينه وبين عدوِّه حتى وسوس إليه بالأكل، وتخليتُه بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٣][(١)].

ومن الحكمة في إخراجه من الجنَّة: إظهارُ كمال أسماء الله الحسنى ـ وإنْ كان لم يزل كاملاً ـ، فمن كماله: ظهور آثار كماله في خلقه وأمره، فإنَّه الملك الحقُّ المبين، والمَلِكُ: هو الذي يأمر وينهى، ويُكرِم ويُهين، ويُثيب ويُعاقب، ويُعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]؛ فأنزل الأبوينِ والذُّرِّيةَ إلى دارٍ تجري عليهم هذه الأحكام، أُنزلوا إلى دار يكون إيمانُهم فيها تامّاً، فإنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل، وجهادٌ وصبرٌ واحتمال،

(١) لما قاسمه عدوُّ الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التَّأكيد:
١ ـ القَسَم. ٢ ـ الإتيان بالجملة الاسمية. ٣ ـ تصديرها بأداة التأكيد.
٤ ـ الإتيان بلام التَّأكيد في الخَبَر. ٥ ـ الإتيانُ به اسمَ فاعل ـ لا فعلاً دالاً على الحدث ـ.
٦ ـ تقديم المعمول على العامل، ولم يكن آدمُ يظنُّ أنَّ أحداً يُقسم بالله كاذباً ـ يمينَ غموس ـ يتجرَّأ فيها على الله هذه الجُرْأة، فغرَّه عدوُّ الله بهذا التَّأكيد والمبالغة، فظنَّ آدمُ صدقَه، وأنَّه إنْ أكل منها لم يَخْرج من الجنَّة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يأتي له استدراكُ مفسدةِ النَّهي أثناءَ ذلك: إمَّا باعتذار، وإمَّا بتوبة، أو بغير ذلك (الصَّواعق ٣٧١).

فكان إخراجهم من الجنَّة تكميلاً لهم وإتماماً لنعمته عليهم؛ ليزدادوا من الدَّار التي خلقوا منها وفيها، إلى الدَّار التي خلقوا لها، وليعرفوا قدر تلك الدَّار التي أُخرجوا منها.

فآدم أُخرج من جنَّةِ الخلد التي في السَّماء؛ ليعود إليها على أحسن أحواله، فما قدَّر أحكمُ الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبَّره عبثاً، ولا أخلاه من حكمته البالغةِ وحمدِه التَّام. وخَلْقُ بنيه من تمام الحكمة والرَّحمة والمصلحة، وإن كان وجودهم مستلزماً لشرٍّ فهو شرٌّ مغمور فيما في إيجادهم من الخير(١).

فاشكروه ـ عباد الله ـ على أن كرَّمَ أباكم، وفضَّلكم على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلاً، واعتبروا بما قصَّه الله عن ابتلاء أبوي الجنِّ والإنس بالذَّنب، وجعل هذا الأبَ عِبْرةً لمن أصرَّ وأقام على ذنبه، وهذا الأبَ عِبْرةً لمن تاب ورجع إلى ربِّه.

فأشبهوا أباكُم، وأطيعوا مولاكم، واحذروا عدوَّ أبيكم، فهو وذريتُه أعداؤكم، واحذروا الذُّنوب كلَّها؛ فقد أُهبط آدمُ بلُقْمةٍ تناولها، وطُرد إبليس ولُعن من أجل سجدة لأبيكم استكبر عنها.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي

(١) كإنزال المطر والثَّلج، وهُبوبِ الرِّياح وطلوعِ الشَّمس. فكم في طلوع الشَّمس من ألم لمسافر وحاضر؟! وكم من نزول الغيث والثُّلوج من أذى؟! وكم في هذا الحرِّ والبرد والرِّياح من أذى موجب لأنواع من الآلام؟! وما فيها من المنافعِ أضعافُ أضعافِ ذلك.

مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۞ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧١-٨٥]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلَقَه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

وأشهد ألَّا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضدَّ ولا مُعِين.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، سيِّدُ البشر أجمعين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه، والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الله سبحانه لمَّا أراد خَلْقَ آدمَ عليه السلام أخذ من جميع الأرض قبضة من التُّراب، ثمَّ ألقى عليها الماء، فصارت طيناً أملس، ثمَّ أرسل عليها الرِّيح فجففها حتى صارت تراباً يابساً، ثمَّ قدَّر لها الأعضاء والمنافذ، والأوصال والرُّطوبات، وصوَّرها فأبدع في تصويرها، وأظهرها في أحسن الأشكال، وهيَّأ كلَّ جزء منها لِمَا يُراد له، وقدَّره لِمَا خُلق له على أبلغ الوجوه، وألقاها على باب الجنَّة أربعين سنة(١)، والملائكة تراها ولا تعرف ما يُراد منها، وإبليس يمرُّ على جسده فيعجب منه ويقول: خُلقتَ لأمر عظيم؛ ولئن سُلِّطتُ عليك لأهلِكنَّك، ولئن سُلِّطتَ عليَّ لأعصينك. ولم يعلم أنَّ هلاكه على يده.

(١) لأنَّ دأب المحبِّ: الوقوفُ على باب الحبيب. (الفوائد ص ٦٤).

فلمَّا تكامل تصويرها وصارت جسداً مصوَّراً مشكَّلاً كأنَّه ينطق إلَّا أنَّه لا روح فيه ولا حياة: أرسل الله إليه روحَه جبريلَ فنفخ فيه نفخة، وانقلب ذلك الطِّينُ لحماً ودماً، وعظاماً وعروقاً، وسمعاً وبصراً، وشمَّاً ولُمْساً، وحركة وكلاماً، فأوَّلُ شيء بدأ به أن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فقال له خالقُه وباريه ومصوِّرُه: يرحمك الله يا آدم، فاستوى جالساً أجملَ شيء وأحسنَه منظراً، وأتمَّه خَلْقاً، وأبدعه صورة، فقال الرَّبُّ تعالى لجميع ملائكته: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤]؛ فبادروا بالسُّجود تعظيماً وطاعةً لأمر الواحد المعبود(١).

ثمَّ قال لهم: لنا في هذه القبضة من التُّراب شرعٌ أبدعَ ممَّا ترون، وجمالٌ باطنٌ أحسنَ ممَّا تُبصرون، فَلَنُزَيِّين باطنَه أحسنَ من زينةِ ظاهرِه، ولَنَجْعَلَنَّه من أعظم آياتنا، نعلِّمُه أسماء كلِّ شيء ممَّا لا تُحسنه الملائكة.

ثمَّ اشتقَّ منه صورةً هي مثلُه في الحُسْن والجمال ـ حواء ـ؛ ليسكن إليها وتقرَّ نفسُه، ولِيَخْرُجَ من بينهما من لا يُحصي عددَه سواه من الرِّجال والنِّساء. روى البخاري ومسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله آدم عليه السلام وطولُه ستُّون ذراعاً فكلُّ من يدخل الجنَّة على صورة آدم**، قال: **فلم يزل الخلق ينقص حتَّى الآن**»، وروى التِّرمذي وأبو داود: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض ـ منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبَيْنَ ذلك، والسَّهْلُ والحَزَن، والخبيث والطَّيِّب ـ**».

كما أنَّ المادَّة التي خُلِق منها الجنُّ، فيها الإحراق والعلو والفساد،

---

(١) فالسَّجدة لآدم إكراماً وإعظاماً، واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله؛ لأنها امتثالٌ لأمره تعالى.

وفيها الإشـراق والإضاءة والنُّـور، فأخرج منها سـبحانه هذا وهـذا، حكمةٌ باهـرة، وقـدرةٌ قاهرة، وآيـةٌ دالَّـة على أنَّـه ليس كمثله شـيء وهو السَّـميع البصير[١].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) شـفاء العليل ص ٢٤٩، ٢٤١، ٢٤٢، ١٠، ٩، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٧. الفوائد ص ٦٤. التفسـير القيِّـم ١٣٤، ١٣٠. الوابـل الصَّيِّـب ص ١٦٤. فتاوى ابن تيمية جـ ١٧/ ٢٦٧، ٢٥١. بدائع جـ ٤/ ١٤١، ١٤٢.

وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل وجوده من الأدلَّة على مُوجِده ومصوِّره العليم.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، يخلق ما يشاء ويختار، ويصور خلقه في الأرحام كيف يشاء بأسبابٍ قدَّرها، وحِكَمٍ دبَّرها. أعطى الذَّكَرَ الذُّكوريَّة، والأنثى الأنوثيَّة، والماءُ واحد، والجوهرُ واحد، والوعاءُ واحد، واللِّقاحُ واحد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: ٦].

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أخبر عن المرسوم الإلٰهي الذي يُلقِيه إلى مَلَكِ التَّصوير، حين يقول: «**يا ربِّ! أذكَرٌ أم أُنثى؟ شقيٌّ أم سعيد؟ فما الرِّزق؟ فما الأجل؟**» فيوحِي ربُّك ما يشاء، ويَكتب المَلَك الكريم.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريَات: ٢١].

عباد الله:

لمَّا كان أقربُ الأشياءِ إلى الإنسان نفسَه، دعاه خالقه وبارئُه ومصوِّرُه

وفاطره مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التَّبصُّر والتَّفكُّر في نفسه، فإذا تفكَّر في نفسه اْستنارت له آياتُ الرُّبوبيَّة، وسطعت له أنوارُ اليقين، واْضْمَحَلَّتْ عنه غمرات الشَّكِّ والرِّيب، واْنقشعت عنه ظلمات الجهل.

فإنَّه إذا نظر في نفسه وجد آثارَ التَّدبير فيه قائمات، وأدلَّةَ التَّوحيد على ربِّه ناطقات، شاهدةً لمدبِّره، دالَّةً عليه، مرشدةً إليه، إذ يجده مكوَّناً من قَطْرة ماءٍ؛ لُحُوماً مُنْضَدَة، وعظاماً مركَّبة، وأوصالاً متعدِّدة، مأسورةً مشددةً بجبال العروق والأعصاب، جُمعت بجلد متين، مشتملاً على ثلاثمِائةٍ وستِّين مِفْصلاً، ما بين كبيرٍ وصغير، وثخينٍ ودقيق، ومستطيلٍ ومستدير، ومستقيمٍ ومنحنٍ، وشدَّ هذه الأوصالَ بثلاث مِئةٍ وستِّين عِرْقاً ـ أعصاباً ـ للاتِّصال والانفصال، والقبض والبسط، والمدِّ والضَّمِّ، والصَّنائع والكتابة. وجعل فيه عشرة أبواب: فبابان للسَّمع، وبابان للبصر، وبابان للشَّمِّ، وبابان للطَّعام والشَّراب والتَّنفُّس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه اْحتباسها.

عباد الله:

لننظر في هذه الأعضاء ومنافعها بالتَّفصيل:

اْبدأ «**بالرَّأس**»: تأمَّل هذه القبَّة العظيمة التي رُكِّبت على المنكبين وما أُودِع فيها من العجائب، وما رُكِّب فيها من الخزائن، وما أُودِع في تلك الخزائن من المنافع، وما اْشتملت عليه من العِظَامِ المختلفةِ الأشكال والصِّفات والمنافع، ومن الرُّطوبات والأعصاب، والطُّرق والمجاري، والدِّماغ والمنافذ، والقوى الباطنة ـ من الذِّكْرِ والفِكْر، والتَّخيُّلِ وقوَّةِ الحفظ ـ[1].

(١) ففي مُقدَّمه: مَحَلُّ الحفظ والتَّخيُّل. والبطنُ الأوسط: مَحَلُّ التَّأمُّل والتَّفكُّر. والبطن الأخير: مَحَلُّ التَّذكُّر والاسترجاع لما كان قد نسيه. =

وذلـك مـن أعظـم آيـات الله وأدلَّتـه وحكمتـه، كيـف ترتسـم صـورة السَّـمواتِ والأرض، والبحـارِ والشَّـمسِ والقمـر، والأقاليـمِ والممالـكِ والأمم، في هذا المحلِ الصَّغير؟! والإنسان يحفظ كتباً كثيرة، وعلوماً شتَّى متعددة، وصنائعَ مختلِفةً من غير أن يختلط بعضُ هذه الصُّور ببعض.

ثمَّ أنزِل إلـى «**العين**»، وتأمَّل عجائبَها وشـكلَها وإيداعَ النُّـور الباصرِ فيها، وتركيبَها من عشـر طبقـات، ركبَّها سـبحانه في أعلا مـكان من الـرَّأس بمنزلة طليعتِه والكاشفِ والرَّائدِ له، وجعل سـبحانه موضع الإبصارِ في قَدْر العَدَسة، ثـم أَظْهَرَ في تلك العَدَسـةِ قَـدْرَ السَّـماءِ والأرضِ والجبالِ والبحارِ والشَّـمسِ والقمر.

وجعـل داخلَ مـاءِ العينِ مالحـاً؛ لئـلَّا تذيبَ الحـرارةُ الدَّائمـةُ ما هناك من الشَّـحم، وجعلها مصونةً بالأجفان؛ لتسـترَها وتحفظَها وتُصْقِلَها وتدفعَ الأقذارَ عنها.

وجعل شـعرَ الأجفـانِ أسـود؛ ليكون سـبباً لاجتمـاع النُّـور الذي به الإبصار، وأبلغَ في الحسنِ والجمال، وخلق سبحانه لتَحرُّكِ الحدقةِ ستَّ عضـلاتٍ، لو نقصت واحـدةٌ منها لاختلّ أمـرُ العين، ومع ذلك فيسـتدل بأحـوال العين علـى أحـوال القلب ـ مـن رضاه وغضبـه، وحبِّـه وبغضِه ونفرتِه ـ.

ثمَّ اُعْدِل إلى «**الأُذنين**» وهما رسـولا القلب، وتأمَّل شَـقَّهما في جانبي الوجه وخَلْقَهما، وإيداعَهُما القوَّةَ السَّمعيَّة، يُدركان بها المعانيَ الغائبةَ الَّتي تَرِدُ على العبد ـ مِنْ أمامِه ومِنْ خلفِه وعن جانِبَيْه ـ، وإيداعَ الرُّطوبَة فيهما.

= ولـكلِّ واحـدٍ من هذه الأمور الثَّلاثة، أمرٌ مهمٌّ للإنسـان لا بدَّ له منه؛ لاسـتيعاب المعلومات واُسترجاعها، والقدرةِ الذِّهنيةِ على الفَهْم والتَّحليل، والرَّبط والاستنباط والتَّخيُّل.

وجَعَلَها مُرَّةً لتمتنع الهوامُّ عن الدُّخول فيهما، وحوَّطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصَّوت ويؤدِّيانه إلى الصِّماخ، وجعل في الصَّدَفتين تعريجاتٍ؛ لتطول المسافةُ فتكسِرُ حِدَّةَ الصَّوت، ولئلَّا يفاجئَهما الدَّاخلُ إليهما من الدَّوابِّ والحشرات.

ثمَّ أنزِل إلى «**الأنف**»، وتأمَّل شكلَه وخَلْقَه، وكيف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائماً معتدلاً في أحسنِ شكلٍ وأوفقِه للمنفعة؟! وفتح فيه بابين، وأودع فيهما حاسَّةَ الشَّمِّ التي يُدرِكُ بها الرَّوائحَ وأنواعَها وكيفيَّاتِها ومنافِعَها ومضارَّها، ويستدل بها على مضارِّ الأغذية والأدوية ومنافعِها، ويعين أيضاً على تقطيع الحروف(١).

وجَعَلَه مَصَبّاً للفضلات النَّازلة من الدِّماغ؛ ليستريح منها، وستره بساترٍ أبديٍّ؛ لئلَّا تبدوَ تلك الفضلاتُ في عين الرَّائي، وأيضاً فإنَّه يستنشق بالمَنْخِرَين الهواءَ الباردَ الرَّطبَ، فيستغني بذلك عن فتح الفم(٢)، والهواء الذي يستنشقه ينزل إلى المَنْخِرَين فينكسر بَرْدُه فيهما، ثمَّ يصل إلى الحلق فيعتدل مزاجه هناك، ثمَّ يصل إلى الرِّئة ألطفَ ما يكون، فإذا أَخَذَت الرِّئة ما تحتاجه من الهواء؛ عاد من الرِّئتين إلى الحلقوم، ثمَّ إلى المَنْخِرَين.

ولم يضيِّع أحكمُ الحاكمين ذلك «**النَّفَس**»؛ بل جعل إخراجَه سبباً لحدوث الصَّوت، ثمَّ جعل سبحانه في الحنجرة واللِّسان والحَنَك باختلافها الصَّوت، فَيَحْدُثُ الحرف، ثم ألهم الإنسان أن يركِّب ذلك

(١) قلت: ولذلك إذا حدث في الأنف لحمية زائدة، نقص هذا التَّقطيع.
(٢) وأُعينت هذه الحواسّ بمخلوقات أُخَرَ منفصلة عنها تكون واسطةً في إحساسها؛ فأعينت حاسَّةُ البصر بالضِّياء والشُّعاع، وحاسَّةُ السَّمعِ بالهواء، وحاسَّةُ الشَّمّ بالنَّسيم اللَّطيفِ يحمل إليها الرَّائحة، وحاسَّةُ الذَّوقِ بالرِّيق، وحاسَّة اللَّمس بقوَّةٍ جعلها الله فيها لم تحتج إلى شيء خارج.

الحرف إلى مثله ونظيره، فَتَحْدُثُ الكلمة، ثم ألهمه تركيب تلك الكلمةِ إلى مثلها، فيَحْدُث الكلامُ الدَّالُّ على أنواع المعاني.

ثمَّ إنَّه سبحانه جعل «**الحناجر**» مختلفةَ الأشكال في الضِّيق والسَّعة، والخشونةِ والملامسة؛ لتختلف الأصوات باختلافها، فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان، فميَّز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السَّمع والبصر. فتأمَّل هذه الحِكَم الباهرةَ في اتِّصال النَّفَس إلى القلب لحفظ حياته، ثمَّ عند الحاجة إلى إخراجه والاستغناء عنه جعله سبباً لهذه المنفعة العظيمة.

وأمَّا «**الفَمُ**» فمَحَلّ العجائب، وبابُ الطَّعامِ والشَّرابِ والنَّفَسِ والكلام، ومَكِنُّ اللِّسانِ النَّاطقِ الذي هو آلة العلوم، وتُرْجمانُ القلبِ ورسولُهُ المؤدِّي عنه، وفيه منفعة الذَّوقِ والإدراكِ وتحريكِ الطَّعام[١]، والدَّليل على اعتدال مزاجِ القلب وانحرافِه، وعلى استقامته واعوجاجِه، وعلى أحوال المعدة والأمعاء، وجعله سبحانه عضواً لحميّاً لا عظم فيه ولا عصب؛ ليسهل عليه القبضُ والبسط، والحركةُ الكثيرةُ في أقاصي الفمِ وجوانبِه.

وأمَّا «**الأسنان**» فلمَّا كان الطَّعام لا يمكن تحوُّله إلَّا بعد طحنه: جعل الرَّبُّ تبارك وتعالى آلةً للتَّقطيع والتَّفصيل، وآلةً للطَّحن. فجعل آلة القطع ـ وهي الثَّنايا وما يليها ـ حادَّةَ الرَّأس؛ ليَسْهُلَ بها القطع. وجعل النَّواجذَ وما يليها من الأضراس مسطّحةَ الرُّؤوس عريضة؛ ليتأتَّى بها الطَّحن، ونَظَمَها أحسنَ نظام؛ كاللُّؤلؤ المُنَظَّم في سلك، أنبتها سبحانه من نفس اللَّحم، وتَخْرُج من خلاله، كما ينبت الزَّرع في الأرض[٢].

(١) وجَعَل ماءه حلواً عذباً؛ ليدرك طعومَ الأشياءِ على ما هي عليه.
(٢) ولم تنشأ مع الطِّفل لاستغنائه عنها بالرّضاع، ولو نشأت معه من حين يولد لأضرت بحَلَمةِ الثَّدي، إذ لا عقل له يحرزه؛ فكانت الأم تمتنع من إرضاعه.

وزيَّـن «**الوجـه**» أيضـاً بمـا أنبت فيـه مـن الشُّـعور المختلفة الأشـكال والمقاديـر، تأمَّل حالَ الشَّـعْرِ ومنبتَـه، والغايةَ التـي خُلِق مـن أجلها، وهي شيئان:

أحدُهما: عام، وهو: تنقيـة البدن من الفضول الدُّخانِيَةِ الغليظة؛ كشـعر العانة والإبط والأنف.

والآخَر: خاصٌّ، وهـو: إمَّا للزِّينة، أو للوقاية؛ ففي شـعر الـرَّأس منافع ومصالح، منها: وقايته عـن الحرِّ والبرد والمرض، ومنها: الزِّينة والحُسْـن. وفـي شـعر الحاجبين ـ مع الحسـن والجمـال والزِّينـة ـ: وقايـةُ العين ممَّا ينحـدر مـن الـرَّأس، ولـو نقص عـن هـذا المقـدار لزالـت منفعـة الجمال والوقاية، ولو زاد عليه لغطَّى العينَ وأضرَّ بها وَحَالَ بينها وبين ما تدركه.

وأما شعر اللِّحية ففيه منافع، منها: الزِّينة والوقار والهيبة، ولهذا لا يُرى على الصِّبيان والنِّسـاء من الهيبـة والوقار ما يُرى علـى ذوي اللِّحى، ومنها: التَّمييز بين الرِّجال والنِّساء. والنِّسـاء لمَّا كُنَّ مَحَلَّ الاستمتاع والتَّقبيل، كان الأحسنُ والأَولى خلوَّهنَّ عن اللِّحى.

وزيَّن الشَّفتين بما أنبت فوقَهما من الشَّارب وتحتَهما من العنفقة، وزيَّن الجبهة بالحاجبين وقوَّسهما وأحسن خَطَّهُما.

ثمَّ انْـزِل إلـى «**الصَّدر**» تـرى معـدنَ العقـلِ والعلـمِ والحِلْـم، والرِّضا والغضـبِ والشَّـجاعة، والكـرمِ والصَّبـرِ والاحتمـال، والحـبِّ والإرادة، والوقارِ والسَّـكينة والبِرّ، وسـائرَ صفـاتِ الكمال وأضدادِهـا، فتجد صدورَ العِلْية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسـان، وصدورَ السَّـفلة تغلي بالفجورِ والشُّرورِ والإساءة، والحسدِ والكبر.

وفي الصَّدر «**القلبُ**» الذي هو أشرف ما في الإنسان، وهو قِوام الحياة، وهو منبع الرُّوح الحيواني والحرارةِ الغريزية، وهو مَحَلُّ نظرِ الرَّبِّ تعالى ومعرفتِه، ومحبَّتِه وخشيتِه، والتَّوكُّلِ عليه والإنابةِ إليه، والرِّضا به وعنه. والعبوديَّةُ عليه أوَّلاً، وعلى رعيَّته وجندِه تبعاً، فالجوارح أَتْباعُ القلب، والذي يسري إلى الجوارح من الطَّاعات أو المعاصي إنَّما هي آثاره، فإنْ أظلم أظلمت الجوارح، وإن ٱستنار ٱستنارت، ومع هذا فهو بين أصبعين من أصابع الرَّحمن ﷻ، فسبحان مقلِّبِ القلوب، ومُودِعها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يَحُولُ بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه. مصرِّفُ القلوب كيف أراد أوحى إلى قلوب الأولياء أَنِ ٱقْلِبي إليَّ؛ فبادرت وقامت بين يدي ربِّ العالمين، وكَرِه ﷻ ٱنبعاثَ آخرين فثبَّطهم، وقيل: ٱقعدوا مع القاعدين.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وتفكَّروا في أنفسكم وما فيها من العبرة والدّلالة على خالقكم وبارئكم، والزَّجرِ عن معصيته.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ـ٣٥].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه... إلخ

أمَّا بعد: فيا عباد اللّٰه:

القلب يُطلق على معنيين:

على العضـو اللَّحمي، الصَّنوبريِّ الشَّـكل، المُوْدَعِ في الجانب الأيسـر من الصَّدر، وفي بطنه تجويف، وفي التَّجويف دم أسود.

والثَّانـي: أمر معنـوي، وهو لطيفـة ربَّانيـة رحمانيَّـة روحانيَّـة، لها بهذا العضو تعلُّق واُختصاص، وتلك هي حقيقة الإنسانيَّة، وهي «الرُّوح».

عباد اللّٰه:

وللمَلَـكِ لمَّـة بالقلب، وللشَّـيطان لمَّـة، فإذا ألـمَّ به المَلَـكُ حدث من لمَّته: الانفسـاح والانشـراح، والنُّور والرَّحمة، والإخلاص والإنابة، ومحبَّةُ الله وإيثارُه على ما سـواه، وقِصَرُ الأمل والتَّجافي عـن دار البلاء والامتحان والغرور؛ فلو دامت له تلك الحالة، لكان في أهنأ عيش وألذِّه وأطيبِه، ولكن تأتيه لمَّةُ الشَّـيطان فتُحدِث له من الضِّيقِ والظُّلمـة، والهمِّ والغمِّ والخوف، والسَّخطِ على المقدور، والشَّكِّ في الحقِّ، والحرصِ على الدُّنيا وعاجلِها، والغفلةِ عن الله، ما هو من أعظمِ عذاب القلب.

ثمَّ مـن النَّاس من تكـون لمَّـةُ المَلَكِ أغلبَ مـن لمَّة الشَّـيطان وأقوى. ومنهـم من تكون لمَّةُ الشَّـيطان أغلبَ عليـه وأقوى. والشَّـيطان يَلُمُّ بالقلب لِمَا له هناك من جواذبَ تجذبه؛ فإذا كانت الجواذب صفاتٍ، قَوِيَ سـلطانه هنـاك، واْسـتفحل أمـره، ووجـد موطئـاً ومقـرّاً؛ فتأتـي الأذكار والدَّعوات كحديث النَّفـس لا تدفع سـلطان الشَّـيطان. فإذا قلـع العبد تلـك الصِّفاتِ وعَمِلَ على التَّطهير منها والاغتسـالِ بالتَّوبة النَّصوح؛ بقي للشَّيطان بالقلب خطراتٌ ووسـاوسُ ولمَّـاتٌ من غير اْسـتقرار، وذلـك يُضعفه ويُقـوِّي لمَّةَ المَلَكِ؛ فتأتي الأذكارُ والدَّعواتُ والتَّعوُّذاتُ فتدفعه بأسـهلِ شيء ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

عباد الله:

وجماع الطُّـرقِ والأبوابِ الَّتي يُصـان منها القلب وجنـودُه أربعة، فمن ضبطهـا وعدَّلها وأصلـح مجاريَها وصَرَفَها فـي محالِّها اللَّائقةِ بها؛ اْسـتفاد منهـا قلبُـه وجوارحُـه، ولم يَشْـمَتْ به عـدوه، وهـي: الحرص، والشَّـهوة، والغضـب، والحسـد، فمـن كان حرصـه إنَّما هـو على مـا ينفعه، وحَسَـدُه منافسـةً في الخير، وغَضَبُه لله على أعدائه، وشـهوتُه مسـتعملةً فيما أبيح له وعوناً له على ما أُمر به؛ لم تضرَّه هذه الأربعة؛ بل اْنتفع بها أعظم اْنتفاعٍ(١).

إنّ أحسن الحديث...

(١) مفتاح دار السَّعادة جـ ١/ ١٨٩ ـ ١٩١، ٢٧١، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٦٤. التبيان ص ١٨٨، ٢٤٩ـ ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ١٩٠ ـ ١٩٧، ٢٥٨، ١٢٧، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢.

أطـــوار الإنســـان
ودلالاتها على خالقه العظيم

الحمد لله الذي تعرَّف إلى خلقه بأنواع التعرُّفات، ونصب لهم الدّلالات، وأوضح لهم الآيات البيِّنات؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢]، وقال في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ [الحج: ٥].

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، دعا عبادَه إلى التَّفكُّر في آياته ومخلوقاته؛ ليستدلُّوا بذلك على وحدانيَّته، وصفاتِ كماله، ونعوتِ جلاله.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، إمامُ المتفكِّرين، وقدوةُ الذَّاكرين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ندب سبحانه ابنَ آدم في هذه الآيات إلى النَّظر والتَّفكُّر في نفسه، في مبْدأ خلقِه ووسطِه وآخرِه؛ إذ نَفْسُه وخَلْقُه من أعظم الدَّلائل على فاطره،

وفيه مـن العجائب الدَّالـة على عظمة الله، مـا تنقضي الأعمـار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه، معرضٌ عن التَّفكُّر فيه.

لينظـر ٱبـنُ آدم كيـف جمـع سـبحانه بيـن الذَّكـر والأنثـى؟! بأن قادهمـا بسلسـلة المحبَّـة والشَّـهوة، التـي هـي سـبب تخليـقِ الولـد وتكوينِه من نطفة.

ولينظر بعين البصيرة إلى «**النُّطفة**» ـ وهي قَطْرةٌ ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] ـ ضعيـفٌ مسـتقذَر، لو مـرَّت بها السَّـاعةُ من الزَّمـان فسـدت وأنتنت، كيف ٱسـتخرجها ربُّ الأربـاب العليـمُ القديـرُ مـن بين الصُّلـب والتَّرائـب(١)؟! منقـادةٌ لقدرته، مطيعة لمشـيئته، على ضيق طرقها وٱختـلاف مجاريها، إلى أن سـاقها إلى مسـتقرِّها ومجتمعها في مكان لا يناله هواءٌ يُفسـده، ولا بَرْدٌ يُجمِّـده، ولا عارِضَ يصل إليه، ولا آفةَ تتسـلط عليه، فأقامـت النُّطفة هناك برهةً من الدَّهر.

ثمَّ قلب سـبحانه تلك النُّطفةَ البيضاءَ المشـرقةَ «**علقةً**» ـ دماً أحمر ـ قد تغيَّر لونُها وشكلُها وصفاتُها، فأقامت كذلك مُدَّة.

ثـمَّ جعلها «**مضغـة**» ـ قطعةَ لحـمٍ بقدر مـا يمضغها الماضـغ ـ مخالِفةً للعَلَقَةِ في لونها وحقيقتها وشكلها.

ثمَّ قسَّـم تلك الأجزاءَ المتشـابهةَ المتسـاويةَ إلى «**العظـام**» و«**العروق**» و«**الأعصـاب**»، ثـمَّ ربـط بعضهـا ببعض أقـوى رِبـاط وأشـدَّه وأبعـدَه عن الانحلال، ثمَّ كسـاها «**لحماً**» ركَّبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاءً وحافظاً، وجعلها حاملة له مقيمة له.

(١) فالحيوان ينعقد من ماء الذَّكر وماء الأنثى، كما ينعقد النَّبات من الماء والتُّراب والهواء.

وٱنظر كيف صوَّرها فأحسن صورها، وشقَّ لها السَّمعَ والبصر، والفمَ والأنفَ وسائرَ المنافذ، ومدَّ اليدين والرِّجلين وبَسَطَهما، وقسَم رؤوسهما بالأصابع، ثمَّ قَسَم الأصابعَ بالأنامل، ثمَّ ركَّب فيها الأظفار، وركَّب الأعضاء الباطنة ـ من القلب والمعدة، والأمعاء والكبد، والمرارة والطِّحال، والرِّئة والمثانة، وغيرِ ذلك ـ كلٌّ واحد منها له قَدْر يخصُّه، ومنفعة تخصُّه.

تأمَّل أعضاءك وتقديرَ كلِّ عضوٍ منها للإِرْبِ والمنفعة المهيأة لها.

«**فاليدان**»: للعلاج[١] والبطش، والأخذِ والإعطاء، والحمايةِ والدَّفع.

و«**الرِّجلان**»: لحمل البدن، والسَّعي والرُّكوب، وٱنتصابِ القامة.

و«**العينان**»: للاهتداء والجَمَال، والزِّينة والمَلاحة، ورؤيةِ ما في السَّموات والأرض، وآياتِهما وعجائبِهما.

و«**الفم**»: للغذاء والكلام والجمال، وغيرِ ذلك.

و«**الأنف**»: للتَّنفُّس وإخراج فضلات الدِّماغ، وزينةٍ للوجه.

و«**اللِّسان**»: للبيان والتَّرجمة والتَّبليغ عنك.

و«**الأذنان**»: صاحبتا الأَخبار تؤديان إليك[٢].

وتأمَّل «**الجهاز الهضمي**»: تأمَّل أعضاءَ هضمِ غذائِك وما أودع الله فيها من القُوى التي تُحيل أنواعَ الأطعمة ـ من حنطة ولحم، وفاكهة وماء،

---

(١) معالجة الأعمال.

(٢) هذه الأسطر فيها نوع تكرار مع ما تقدم، لكن بأسلوب آخر وأخصر، وسياقها أيضاً؛ لأجل ما بعدها ـ الجهاز الهضمي ـ.

وغيرِهـا ـ إلى دم يغـذِّي أجزاءَ جسـمِك بما يناسـب كلَّ عضوٍ وحاسَّـة، وإلَّا تحوَّل إلى سُمّ.

«**فالفـم**» ـ مع كونه يقطِّع الغـذاء ويَخْلِطه ـ: يقومُ بجـزء من الهضم بما أُودِع فيه من اللُّعاب.

و«**المريء**» ـ مـع كونه منفذاً للمعـدة ـ: يقوم بجزء مـن الهضم بما فيه من حركات وإفرازات لزجةٍ ينزلق بها الغذاء إلى المعدة.

و«**المعـدة**» ـ مـع كونهـا خِزَانـةً حافظـةً للغـذاء ـ: تُتِـمُّ عمليـةَ طحـنِ الأطعمـة، وتبـدأ بهضمهـا واْسـتحلابها، وتسـاعد بحموضتهـا القويَّة على تعقيم الأطعمة، وتنظِّم حركة عبورها إلى الأمعاء.

و«**الأمعاء**»: تُتِمُّ هضمَ الطَّعامِ وتحليلَه إلى عناصره الأوَّلية، ويسـاعدها على ذلك عصـاراتُ الكبد والمعثكلـة ـ البنكرياس ـ، ومـن خلال جدران الأمعاء يجري اْمتصاصُ خلاصـةِ المواد المهضومة ودفعُهـا إلى الكبد، ثمَّ التَّخلُّصُ من الثُّفل ـ الفضلات ـ.

ثمَّ «**الكبـد**»: يقوم بأكثرَ من خمسـين وظيفـة ـ من التَّخزيـن والتَّأليف، وتعديلِ السُّموم ـ، ويساعد الكبدَ «**الطِّحال**»[١] و«**الكُليتان**»[٢].

---

(١) الطِّحال: يُعنى بتشـكيل خلايا الدَّم، ويسـاعد على اْسـتقلاب معدن الحديد، وهو: مسـتودع للدَّم، ويقوم بتدمير الخلايا الحمر والبيض القديمة التي اْنعدمت فائدتها، ويساعد على إبقاء الدَّورة الدَّموية خالية من الجراثيم والمواد الغريبة.

(٢) والكُليتان: تقومان بتصفية الدَّم الجاري في الجسم من كلِّ شوائبه ستاً وثلاثين مرَّة في اليوم، يتصفى بالرَّشح قرابةُ مئتي لتر من الدَّم يومياً بواسطة الكَبَبِ التي تصل إلى مليون كَبَّة، ويعود الـدَّم ليمتـص مرَّة أخرى بواسـطة الأنابيب الكُلويـة التي يمر فيها قرابة مئة وثمانية وتسـعين لتراً، ولا يسـمحان للعناصر المولِّدة للمواد الغذائية بالتَّسـرُّب، ويطرحان لترين فقط ـ وهي الفضلة المعروفة بالبول ـ إلى المثانة.

فـإذا تنقى الدَّم مـن تلك الفضـلات وعملت فيـه هذه الخَـدَمُ بقواها الَّتي أودعها الله فيها هذا العمل وأصلحته هذا الإصلاح: اندفع من الكبد إلى «**القلب**» بواسـطة الوريد الأجوف السُّـفلي فيصبّ من الأُذَيْنِ الأيمن من القلب[١]، ومنه إلى البُطَيْنِ الأيمن من القلـب، وهذا غليظ أزرق غيرُ مصفّى.

فيضخُّه البُطَيْنُ الأيمن إلى «**الرِّئتين**» فينبث في جرمهما، ويخالط الهواءَ النَّقيَّ ويتصفّى[٢]، ثمَّ يعود بواسـطة الأوردة الرِّئويَّة إلى الأُذَيْن الأيسـر من القلب، ومنه إلى البُطَيْنِ الأيسر منه، فيضخُّه بواسطة الشّريان ـ الأَبْهر ـ إلى العـروق الضَّوارب[٣]؛ فيوصل سـبحانه الغذاءَ بواسـطتها إلـى كلِّ جزء من البدن على مقداره وصفته المناسبة له، وإلى كلِّ حاسَّة بحسبها ـ فيحيله إلى العظم عظماً، وإلى اللَّحم لحماً، وإلى العَصَب عَصَباً، وإلى الشَّعْر شَعْراً، وهكذا...

(١) ويصب معه فيه الوريدُ الأجوفُ العلويُّ من بقيَّة الجسم.

(٢) وفي الرِّئتين سـبع مئة وخمسـون مليون سَـنَخ رئوي تعمل لتصفية الدَّم باسـتمرار، بمعدل خمس لتـرات فـي كلِّ دقيقـة. في كلِّ يوم يتنفَّس الإنسـانُ خمسـة وعشـرين ألف مرَّة، يسـحب فيها مئة وثمانين متراً مكعباً من الهواء، يتسرَّب منها ستة أمتار ونصف متر مكعب من غاز الأكسجين إلى الدَّم، فيصـفي الدَّمَ بسحب غاز الفحم ومَنْح غاز الأكسجين اللَّازم للبدن.

(٣) والقلب مؤلَّف من مضخَّتين لا واحدة، الأولى: لدفع الدَّم باتِّجاه الرِّئتين، والثَّانية: لإرسـاله إلى سائر أنحاء الجسم.
يضخُّ القلب يومياً ثمان مئة لتر من الدَّم، وتبلغ ضربات القلب ستِّين إلى ثمانين في الدَّقيقة، وفي كلِّ مرَّة يَدْخل القلبَ حوالي ربع رطل من الدَّم، ويسـتغرق مرورُ دفعة واحدة من الدَّم خلال القلب ثانيةً ونصف الثَّانية، والطَّريقُ من القلب إلى الرِّئة وثُمَّ مرَّة أخـرى ستَّ ثـوانٍ، وهذه هي الدَّورة الدَّموية الصُّغرى.
والـدَّم الذَّاهـب إلـى الدِّماغ يعود إلى القلب في ثمـانِ ثوانٍ، بينما يعود الـدَّمُ إلى القلب من أصابع القدم في ثماني عشرة ثانية، وهذه هي الدَّورة الدَّموية الكبرى.

فإنَّه سبحانه هو الذي خلق هذا كلَّه، وهو الذي يرزق هذا كلَّه رزقاً ثانياً. الرِّزق الأوَّل: خَلْقُ الغذاء، وهذا إيصاله إلى الأعضاء، فتبارك الَّذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه.

فأعِد النَّظر ـ يا عبد الله ـ في نفسك، وتأمَّل حكمةَ اللَّطيفِ الخبيرِ في تركيب البدن، ووضعِ هذه الأعضاءِ ومواضعِها، وإعدادِها لما أُعدَّت له.

وٱنظر إلى هذه القوى المتصرفة في غذائك ـ القوَّةِ المنضجة له، والقوَّةِ الماسكة له، والقوَّةِ الدَّافعة له إلى الأعضاء، والقوَّةِ الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتَها منه ـ إلى غيرِ ذلك من عجائب خَلْقه الظاهرةِ والباطنة.

ٱنظر إلى النُّطفة، وتأمَّل حالها أوَّلاً وما صارت إليه ثانياً، وأنَّه لو ٱجتمع الإنسُ والجنُّ على أن يخلقوا له سمعاً أو بصراً، أو عقلاً أو قدرة، أو علماً أو روحاً؛ بل عظماً واحداً من أصغر عظامها، بل عرقاً من أدقِّ عروقها، بل شعرةً واحدة، أو ليقلبوا من الطَّعام دماً صالحاً لكلِّ عضوٍ من أعضائه ليصير في اللَّحم لحماً، وفي العظم عظماً، وفي العَصَبِ عَصَباً، وفي الظُّفُرِ ظفراً، وفي الشَّعْر شَعْراً، وفي السَّمع والبصرِ وآلةِ الحسِّ كذلك؛ لعَجَزوا؛ بل ذلك كلُّه من آثار صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء، فويلٌ للمكذِّبين وبُعداً للجاحدين.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وكونوا من المتفكِّرين المعتبرين في أنفسكم، وٱشكروه أنْ خلقكم في أحسن صورةٍ وشَكْلٍ وٱعتدال، ورزقكم من الطيِّبات بإيجادها، وخَلَقَ الأجهزةَ والقوى الباهرةَ لهضمِها، وسَوْقِها إلى الأعضاء العطشى لبقاء حياتها ونموها، و﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ـ٣٢].

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده...

أمَّا بعد: فيا أيُّها الإنسان:

أَعِدِ الآن النَّظر في نفسـك مرَّةً بعد مرَّة، مَنِ الَّـذي دبَّرك بألطف التَّدبير وأنت جنيـنٌ في بطن أمِّك في موضـع لا يدَ تنالك، ولا بصـرَ يُدركك، ولا حيلةَ لك في التماس الغذاء، ولا في دفع الضَّـرر؟! فَمَنِ الَّذي أجرى إليك مـن دم الأم ما يَغْذُوك كما يَغْذُو الماءُ النَّبات، وقَلَـبَ ذلك الدَّم لبناً؟، حتى إذا كمل خلقُك واْستحكم وقَوِيَ أَديمُك على مباشرة الهواء، وبصرُك على ملاقاة الضِّياء، وصَلُبَت عظامُك على مباشرة الأيدي والتَّقلُّبِ على الغبراء، هاج الطَّلْـقْ بأمـك فأزعجك إلى الخـروج أَيَّما إزعـاج إلى عالـم الابتلاء، فَرَكَضَك الرَّحِمُ ركضةً من مكانك كأنَّه لم يضمَّك قط.

ومَنِ الَّذي صَـرَف ذلك اللَّبن الـذي كنت تتغذَّى به في بطـن أمِّك إلى خِزانتين معلقتين على صدرها؟! ومَنِ الَّذي رقَّقه لك وصفَّاه وأطاب طعمه وحسَّـن لونـه وأحكـم طبخـه؟! ومَنْ عطـف عليك قلـب الأم ووضـع فيه الحنانَ العجيبَ والرَّحمةَ الباهرة؟![١].

(١) حتى إنَّها تكون في أَهنأ ما تكون من شأنها وراحتها ومَقِيلها، فإذا أحسَّت منك بأدنى صوت أو بكاء، قامت إليك وآثرتك على نفسها، منقادة إليك بغير قائد ولا سائق.

حتى إذا قوي بدنك، وٱتَّسعت أمعاؤك، وخَشُنت عظامك، وٱحْتَجْتَ إلى غذاءٍ أصلب من غذائك، وضع فيك آلةَ القطعِ والطَّحن، وكلّما ٱزددت قوَّة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة، زيد لك في تلك الآلات. فمَنِ الَّذي ساعدك بها ومكَّنك من ضروب الغذاء إلاَّ أحكمُ الحاكمين وأرحم الرَّاحمين؟!

فاشكره وٱذكره، وأحسن عبادته وحده، على أَنَّ خَلْقَكَ في أحسن تقويم، وتغذيَتَك بأصناف النِّعم وأنت صغير وكبير(١)، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

عباد الله:

إنَّ أحسن الحديث...

(١) مراجع هذه الخطبة كما يلي:
مفتاح دار السعادة جـ ١/ ١٨٩ ـ ١٩١. التّبيان ص ٢٤٠، ٢٢٦ ـ ٢٢٨، ٢٤١، ٣٣١، ٢٣٥، ٢٣٠.
ومن كتب الطِّبِّ الحديث: «الطِّبّ محراب الإيمان» جـ ٢/ ٢٥٩، ٣٠٤، ٤٧، ١٩، ٢٩٧، ١٢٩، ٩، ١٠، ١٥، ١٧٠، ٣٠١، ١١٤، ٩٠، ١٩١، ١٢٤ ـ ١٢٩.
و«الصِّحة والسَّلامة» ص ١٦٢، ١٥، ٦٠. و«الصِّحَّة والوقاية» ص ٦٠، ١٠٠.
ذكرتُ بعضَ هذه التَّفصيلات في «الجهاز الهضمي» من هذه الكتب وأكثرها بصفة تعليق، وهي دالَّة على عظمة الله وقدرته، وعلمه وحكمته.

الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقه ثمَّ هدى

الحمد لله الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، أعطى كلَّ شيء من الخلق والتَّصوير ما يصلح به لِمَا خُلق له، ثمَّ هداه لما خُلق له وهو الحكيم الخبير.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، له في كلِّ مخلوق حكمةٌ باهرة، وآيةٌ ظاهرة، وبرهانٌ قاطع يدلُّ على أنَّه ربُّ كلِّ شيء ومليكُه، وأنَّه المنفرد بكلِّ كمال دون خلقه، وأنَّه على كلِّ شيء قدير، وبكلِّ شيء عليم.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله. هدى أمَّته هدايةَ البيانِ والإرشاد، وأمَّا هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ فإلى المَلِكِ العَلَّام.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ذكر الله تبارك وتعالى عن فرعون أنَّه قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] أي: أعطى كلَّ شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كلَّ عضو شكلَه وهيئتَه، وأعطى كلَّ موجود خلقَه المختصَّ به، ثمَّ هداه إلى ما خُلق له من الأعمال.

هذه الهداية شاملة للحيوان كلِّه ـ ناطقِه وبهيمِه، طيرِه ودوابِّه، فصيحِه

وأعجمِه ـ هداه لما يُصْلِحه في معيشته ومطعمه، ومشربه ومَنْكِحِه، وتقلُّبِه وتصرُّفه بإرادته.

وكذلك كلُّ عضو له هدايةٌ تليق به؛ فهدى الرِّجلينِ للمشي، واليدينِ للبطش والعمل، واللِّسانَ للكلام، والأذنَ للاستماع، والعينَ لكشف المرئيَّات، وكلَّ عضو لما خُلق له.

وهدى الزَّوجين من كلِّ حيوان إلى الازدواج والتَّناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التِقَام الثَّديِ عند خروجه من بطن أمِّه، وهداه إلى معرفة أمِّه دونَ غيرها حتى يتبعَها أين ذهبت، والقصدِ إلى ما ينفعه من المرعى دون ما يضرُّه منه، وهدى الطَّيرَ والوحشَ إلى الأفعال العجيبة التي يَعْجز عنها الإنسان. ومراتبُ هدايته سبحانه لا يُحصيها إلا هو، فتبارك الله ربُّ العالمين.

وهدى «**النَّحل**» أن تتَّخِذَ من الجبال بيوتاً ومن الشَّجر ومن الأبنية، ثمَّ تَسْلُكَ سبلَ ربِّها مذلَّلةً لها لا تستعصي عليها، ثمَّ تأويَ إلى بيوتها، وهداها إلى طاعةِ يعسوبها وأتباعِه والائتِمَامِ به أين توجَّه بها، ثمَّ هداها إلى بناء البيوت العجيبةِ الصَّنعة المحكمةِ البناء.

ومن تأمَّل بعض هدايته المبثوثة في العالم؛ شهد بأنَّه الله الذي لا إلٰه إلا هو، عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ العزيزُ الحكيم.

وانْتَقِل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات «**النُّبوَّة**» و«**المعاد**» بأيسر نظر وأول وهلة، وأحسنِ طريق وأخصرِها وأبعدها عن كلِّ شبهة، وأنَّ مَنْ هَدَى هذه الحيواناتِ هذه الهدايةَ التي تَعْجزُ عقولُ العقلاء عنها، لا يليق به أن يترك هذا النَّوع الإنساني ـ الذي هو خلاصةُ الوجود ـ الذي كرَّمه وفضَّله على كثير مِنْ خَلْقِه ـ مهملاً وسدىً معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته

وأفضلِ غاياته. وهذا أحد ما يَدلُّ على إثبات المعاد بالعقل والشَّرع.

وهذا «**النَّمل**» من أهدى الحيوانات، وهدايتُها من أعجب شيء؛ فإنَّ النَّملة الصَّغيرة تخرج من بيتها وتطلب قُوتَها ـ وإن بَعُدت عليها الطَّريق ـ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طريق معوجَّة بعيدةٍ ذاتِ صعودٍ وهبوطٍ في غايةٍ من التَّوَعُّر، حتى تصلَ إلى بيوتها فتُخَزِّنَ فيها أقواتَها في وقت الإمكان، فإذا خزَّنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلَقَته فِلْقتين لئلَّا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بللٌ وخافت عليه العَفَنَ والفسادَ انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثمَّ أعادته إليها، ولا تتغذَّى منها نملة ممَّا جمعه غيرُها.

ويكفي في هداية النَّمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النَّملة التي سمع سليمانُ كلامَها وخطابَها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] فجمعت بين الاعتذار عن مضرَّة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أُمَّة النَّمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسَّم سليمان ضاحكاً من قولها، وإنَّه لَمَوْضِعُ تعجُّبٍ وتبسُّم.

ومن عجيب هدايتها: أنَّها تعرف ربَّها بأنَّه فوق السَّموات على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في «كتاب الزُّهد»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال: «**خرج نبيٌّ من الأنبياء بالنَّاس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعةٍ قوائِمَها إلى السَّماء تدعو؛ مستلقيةٍ على ظهرها، وهي تقول: اللَّهم إنَّا خلقٌ من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإمَّا أن تسقيَنا وترزقَنا وإمَّا أن**

تُهلكَنا، فقال: اُرجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم»(١).

وهذا «**الهدهد**» من أهدى الحيوان وأبصرِه بمواضع الماء تحتَ الأرض لا يراه غيره، ومن هدايته: ما حكاه الله عنه في كتابه أنَّه قال لنبيِّه سليمانَ وقد فقده وتوعَّده، فلما جاء بَدَرَهُ بالعذر قبل أن ينذره سليمانُ بالعقوبة، وخَاطَبَهُ خطاباً هيَّجه على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، ثمَّ كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكَّداً بأدلَّةِ التَّأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [النمل: ٢٣].

ثمَّ أخبر عن شأن تلك المَلِكَة وأنَّها من أَجلِّ الملوك بحيث أُوتِيَتْ من كلِّ شيء يؤتاه الملوك، ثمَّ زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه أنَّه عرش عظيم، ثمَّ أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

ثمَّ أخبر عن المُغْوِي لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشَّيطان لهم أعمالَهم حتى صدَّهم عن السَّبيل المستقيم ـ وهو السُّجود لله وحده ـ، ثمَّ أخبر أنَّ ذلك الصَّدَّ حال بينهم وبين الهداية ـ والسُّجود لله الذي لا ينبغي السُّجود إلَّا له ـ، ثمَّ ذكر من أفعاله سبحانه إخراج ﴿ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٢٥] وهو المخبوء فيهما من المطرِ والنَّبات والمعادن، وأنواعِ ما ينزل من السَّماء وما يخرج من الأرض.

---

(١) وهي تدرك بالشَّمِّ من البُعد، ما يدركه غيرُها بالبصر أو السَّمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أَكَل فيه الإنسان وبقي فيه فَتاتٌ من الخبز أو غيره، فَتَحْمِلُه وتذهب به ـ وإن كان أكبرَ منها ـ، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصفٍّ من النَّمل يتساعدون على حمله ونقله. ولها قصص من ذلك. انظر: البدائع جـ ١ ص ٧٠.

وهـذا «**الحَمَام**» مـن أعجب الحيوان هدايـة، حتَّى قال الشَّـافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعقـل الطَّير: الحَمَـام»، وبُرُدُ الحَمَام ـ هـي التي تحمل الرَّسـائلَ والكتبَ في الأزمان السَّـابقة ـ رُبَّمـا زادت قيمةُ الطَّيرِ منها علـى قيمة العبد، يذهب ويرجـع إلى مكانه من مسـيرة ثلاثة آلاف ميـلٍ فما دونهـا. وهداية الحيوان إلى مصالح معاشها ـ كالبحر ـ حدِّث ولا حرج.

ومـن عجائـب أَمْـرِ «**القـرد**»: مـا ذكـره البخـاريُّ فـي صحيحـه: عـن عمرو بـن ميمـون الأودي قـال: «رأَيـت فـي الجاهليـة قـرداً وقـردةً زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا»؛ فهولاء القرود أقاموا حدَّ الله حين عطَّله بنو آدم.

و«**البقـرة**» يُضـرب ببلادتها المثـل، وقد أخبـر النَّبـيُّ ﷺ: «**أنَّ رجلاً بينما هو يسـوق بقرة إذْ ركبها، فقالـت: إنِّي لم أُخلق لهـذا**، فقال النَّاس: سـبحان الله بقـرةٌ تتكلَّـم! فقـال النَّبيُّ ﷺ: **إنِّـي أُومـن بهذا أنـا وأبو بكر وعمر ـ وما هُمَا ثَـمَّ ـ**، ثُمَّ قال: **بينما رجل يرعـى غنماً له إذْ عدى الذِّئب على شـاة منها فاسـتنقذها منه، فقال الذِّئب: هذه ٱسـتنقذْتَها منِّي فمن لها يومُ السَّـبُع يومَ لا راعي لها غيري**؟! فقال النَّاس: سبحان الله ذئبٌ يتكلَّم! فقال رسـول الله ﷺ: **إنِّي أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ـ وما هُمَا ثَمَّ ـ**».

ومـن هداية «**الحمـار**» الذي هو مـن أبلد الحيـوان: أنَّ الرَّجل يسـير به ويأتي به إلـى منزله من البُعْد في ليلة مظلمة فيعـرف المنزل، فإذا خُلِّيَ جاء إليه، ويُفرِّق بين الصَّوتِ الذي يُسـتوقَف به، والصَّـوتِ الذي يُحثُّ به على السَّير.

وهذا «**الثَّعلب**» إذا ٱشتدَّ به الجوع ٱنتفخ ورمى بنفسه في الصَّحراء كأنَّه جيفـة، فتتداوله الطَّير، فلا يُظهِرُ حركةً ولا نَفَسـاً، فلا تشـك أنه ميِّت، حتى

إذا نقر بمنقاره وَثَبَ عليها فضمَّها ضمَّة الموت.

وهذا «**ابن عرسٍ والقنفذ**» إذا أكلا الأفاعي والحيَّات، عَمَدا إلى الصّعتر النَّهري فأكلا منه؛ كالتّرياق لذلك.

وكثيرٌ من العقلاء يتعلَّم من الحيوان البهيم أموراً تنفعه في معاشِه وأخلاقِه، وصناعتِه وحربِه، وحزمِه وصبرِه[1].

فتفكَّروا ـ عباد الله ـ في هداية هذه الحيوانات لِمَا خُلقت له، واْعرفوا عظمة باريها، وتفهَّموا قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

بارك الله لي ولكم...

(١) وذكر اْبن القيِّم من أخلاق الدِّيك والأُسُود...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي سبَّحت الكائنات بحمده.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا مثل له من خلقه.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، أكملُ خلق الله خلقاً، وأرفعُهم عنده منزلاً، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] قال ابن عبَّاس: «يعرفونني ويوحِّدونني، ويسبِّحونني»، وقال ابن قتيبة: « ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في طلب الغذاء وابتغاء الرِّزق وتوقِّي المهالك»، وقال سفيان بن عيينة: «ما في الأرض آدميٌّ إلا وفيه شَبه من البهائم؛ فمنهم من يَهْتَصِر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عَدْوَ الذِّئب، ومنهم من يَنْبَحُ نِباح الكلب، ومنهم من يتطوَّس كفعل الطَّاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطَّعام الطَّيب عافته، فإذا قام الرَّجل عن رجيعه وَلَغَت فيه، فكذلك تجد من الآدميِّين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه».

قال الخطَّابي: «ما أحسـنَ ما تأوَّلَ سـفيانُ هذه الآية، واستنبط منها هذا الحُكم؛ أنَّ المراد المماثلة في الطَّبائع والأخلاق».

والله سـبحانه جعل بعضَ الدَّواب كَسُـوباً محتالاً، وبعضَها متوكِّلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدَّخر لنفسه قوت سنة، وبعضها يتَّكل على الثِّقة بأنَّ له في كلِّ يوم قدرَ كفايته رزقاً مضموناً وأمـراً مقطوعاً، وبعضها يدَّخر، وبعضها لا كسب له.

وبعـض الذُّكورة يعـول ولـده، وبعضهـا لا يعرف ولـده البتَّـة، وبعض الإنـاث تكفل ولدهـا لا تعـدوه، وبعضها تضع ولدهـا وتَكْفُل ولـد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تـزال تعرفه وتعطف عليه، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهمَّ في طلبه.

وبعضها يَعْرف الإحسـان ويشـكره، وبعضهـا ليس ذلك عنده شـيئاً، وبعضها يُؤْثِر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أُمَّةً من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يحـبّ السِّـفاد[(١)] ويُكْثِر منـه، وبعضهـا لا يفعله إلاَّ في السَّـنة مرَّة، وبعضهـا يقتصر على أُنثـاه، وبعضها لا يقف على أنثى ولـو كانت أُمَّه أو أُختَه، وبعضها لا تُمكِّن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا ترد يد لامس.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النِّفار، وبعضها لا يأكل إلَّا الطَّيِّـب، وبعضها لا يأكل إلَّا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يُـؤذي إلَّا مَنْ بالغ في أذاها، وبعضها يُؤذي من لَّا يؤذيها، وبعضها حقود لا تنسـى الإسـاءة، وبعضهـا لا يذكرها البتَّة،

(١) السِّفاد: نَزْوُ الذَّكر على الأنثى.

وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتدّ غضبه فلا يزالُ يُسترضَى حتى يرضى.

وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثرُ النَّاس، وبعضها لا معرفةَ له بشيء من ذلك البتَّة، وبعضها يستقبح القبيح وينفُرُ منه، وبعضها الحسن والقبيح منه سواء، وبعضها يقبل التَّعليم بسرعة، وبعضها مع الطُّول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كلُّه من أدلِّ الدَّلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التَّدبير والتَّأنِّي لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتَّسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته سبحانه، وما يعلم كلُّ عاقل أنه لم يُخلق عبثاً ولم يُترك سدى[1].

---

(١) شفاء العليل ص ٦٦ـ٦٨، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٠، ٧١. البدائع جـ ١/ ٣٥، ٣٦.

كيف لا يُحَبُّ اللّٰه؟

الأسباب الجالبة لمحبَّته، وعلامات صدقها

الحمد لله الذي نصب طاعته والخضوع له على صدق محبَّته دليلاً، وفَضَّل أهل محبَّتِهِ ومحبَّةِ كتابِه ورسولِه على سائر المحبِّينَ تفضيلاً.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةَ مقرٍّ بربوبيَّته، شاهدٍ بوحدانيَّته، منقادٍ إليه لمحبَّته، مذعنٍ له بطاعته، معترفٍ بنعمته، فارٍّ إليه من ذنبه وخطيئته، لا يبتغي سواه ربّاً، ولا يتَّخذُ من دونه وليّاً ولا وكيلاً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، وخِيرَتُه من خلقه، وأمينُه على وحيه، وسفيرُه بينه وبين عباده، أحبُّهم إليه، وأكرمُهم عليه، فصلَّى الله وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ عباده المؤمنين عليه، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

أمَّا بعد:

فروى التِّرمذيُّ وحسَّنه: عن ٱبن عبَّاسٍ ﵄ مرفوعاً: «**أَحبُّوا لِمَا يَغْذُوكم به من نِعَمِه**».

والمحبَّة ـ يا عباد الله ـ تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنِّعم؛ فإن القلوب جُبلت على حبِّ من أحسن إليها وبُغْضِ من أساء إليها، ولا أحد أعظمُ إحساناً من الله سبحانه، فإنَّ إحسانه على عبده في كلِّ

نَفَسٍ ولحظة، وهـو يتقلَّب في إحسـانه في جميـع أحواله، ولا سـبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسـان، فضلاً عن أنواعـه أو أفراده، ويكفي أنَّ من بعض أنواعه نعمةَ النَّفَس التي لا تـكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كلِّ يـوم وليلة أربعة وعشـرون ألـف نعمة، فإنَّـه يتنفس في اليـوم واللَّيلة أربعة وعشـرين ألف نَفَس، فمـا الظنُّ بما فوق ذلـك وأعظم منه؟! ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

هـذا إلى مـا يصرف عنـه مـن المضـرَّات وأنـواعِ الأذى التـي تقصده، ولعلَّها توازِن النِّعم في الكثرة، والعبدُ لا شعور له بأكثرها ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الأنبيَاء: ٤٢] أي: هـو سـبحانه المُنعِـم عليهـم بحفظهم وحراستهم ممَّا يؤذيهم باللَّيل والنَّهار وحده، لا حافظَ لهم غيرُه.

هذا مع غناه التَّامِّ عنهـم وفقرِهم التَّامِّ إليه سـبحانه ، وفي بعض الآثار: «**أنا الجواد، ومَنْ أعظمُ منِّي جوداً وكرماً؟! أَبيت أَكْلأُ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم**»، وفي التِّرمـذيِّ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا رأى السَّـحاب قـال: «**هذه روايـا الأرضِ يسـوقها الله إلـى قـوم لا يذكرونـه ولا يعبدونه**»، وفي الصَّحيحيـن عنه ﷺ أنَّه قـال: «**لا أحدَ أصبرُ على أذىً سـمعه من الله، إنَّهـم ليجعلون له الولـد وهو يرزقهـم ويعافيهم**»، وفي بعـض الآثار: يقول الله تعالى: «**ابـنَ آدم! خيري إليك نازل، كـم أتحبب إليك بالنِّعـم وأنا غنيٌّ عنـك؟! وكم تتبغـض إلـيَّ بالمعاصي وأنـت فقير إلـيَّ؟! ولا يـزال المَلَكُ الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح**».

ولو لم يكن مِنْ تحبُّبِه إلى عباده وإحسـانه إليهم وبـرِّه بهم إلَّا أنه خَلَق لهم ما في السَّـموات والأرض وما في الدُّنيا والآخرة، ثـمَّ أَهَّلهم وكرَّمهم، وأرسل إليهم رسـلَه، وأنزل عليهم كتبَه، وشرع لهم شـرائعَه، وأَذِنَ لهم في

مناجاته كلَّ وقتٍ أرادوا، وكتب لهم بكلِّ حسنة يعملونها عشرَ أمثالِها إلى سبعِ مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسَّيِّئة واحدة، فإن تابوا منها مَحَاهَا وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوبُ أحدهم عَنانَ السَّماء ثمَّ ٱستغفره غَفرَ له، ولو لقيه بقُرَاب الأرض خطايا ثمَّ لقيه بالتَّوحيد لا يُشرِكُ به شيئاً لأتاه بقُرَابِها مغفرة.

وشرع لهم الحَجَّ الذي يهدم ما كان قبله، فوفَّقهم لفعله، وكفَّر عنهم سيِّئاتِهم به؛ وكذلك ما شرعه لهم من الطَّاعات والقربات، هو الذي أمرهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إيَّاها، ورتَّب عليها جزاءها، فمنه السَّبب، ومنه الجزاء، ومنه التَّوفيق، ومنه العطاء أوَّلاً وآخراً.

أَعطى عبدَه مالَه وقال: تقرَّبْ بهذا إليَّ أَقبلْه منك، فالعبد له، والمال له، والثَّواب منه؛ فهو المعطي أوَّلاً وآخراً.

فكيف لا يُحَبُّ مَنْ هذا شأنه؟! وكيف لا يستحيي العبد أن يصرف شيئاً من محبَّته إلى غيره؟! ومَنْ أولى بالحمد والثَّناء والمحبة منه؟! ومَنْ أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟! فسبحانه وبحمده لا إلٰه إلا هو العزيزُ الحكيم.

ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظمَ فرحٍ وأكملَه، ويكفِّرُ عنه ذنوبه، ويوجبُ له محبَّته بالتَّوبة، وهو الذي ألهمه إيَّاها، ووفَّقه لها، وأعانه عليها.

وملأ سبحانه سمواتِه من ملائكته، وٱستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، وٱستعمل حملة العرش منهم في الدُّعاء لعباده المؤمنين، والاستغفارِ لذنوبهم، ووقايتِهم عذابَ الجحيم، والشَّفاعةِ إليه بإذنه أن يُدخلهم جنَّاتِه.

فانظروا إلى هذه العنايةِ وهذا الإحسانِ وهذا التَّحنُّنِ والعطفِ والتَّحبُّبِ إلى العباد واللُّطفِ التَّامِّ بهم.

ومع هذا ـ بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه ـ يَنْزِل كلَّ ليلة إلى سماء الدُّنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئَهم إلى التَّوبة، ومريضَهم إلى أن يشفيَه، وفقيرَهم إلى أن يسألَه غناه، وذا حاجتِهم أن يسألَه قضاءَها كلَّ ليلة.

ويدعوهم إلى التَّوبة وقد حاربوه وعذَّبوا أولياءه وأحرقوهم بالنَّار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البُرُوج: ١٠]، وقال بعض السَّلف: «انظروا إلى كرمه، كيف عذَّبوا أولياءه وحرَّقوهم بالنَّار وهو يدعوهم إلى التَّوبة؟!».

فهذا الباب يدخل منه كلُّ أحد إلى محبَّته سبحانه وتعالى؛ فإنَّ نعمته على عباده مشهودة لهم يتقلَّبون فيها عَدَدَ الأنفاس واللَّحظات.

فإذا انضمَّ داعي الإحسانِ والإنعامِ إلى داعي الكمال والجمال، لم يتخلَّفْ عن محبَّة مَنْ هذا شأنه إلَّا أردأُ القلوب وأخبثُها، وأشدُّها نقصاً، وأبعدُها من كلِّ خير؛ فإنَّ الله فطر القلوبَ على محبَّةِ المحسنِ الكامل في أوصافه وأخلاقه، ولا أحدَ أعظمُ إحساناً منه سبحانه وتعالى، ولا شيءَ أكملُ منه ولا أجمل، فكلُّ كمالٍ وجمالٍ في المخلوق من آثار صُنعه سبحانه وتعالى ودالٌّ على كمال مبدعه، كما أنَّ كلَّ عِلْمٍ في الوجود فهو من آثار علمه، وكلَّ قدرة فمن آثار قدرته؛ ولا نسبة أصلاً بين كمالاتِ العَالَمِ وكمالِ الله سبحانه[1].

(١) ونذكر من ذلك صفةً واحدةً تُعتبر بها سائرُ الصفات، وهو أنك لو فرضت جمال الخلق =

فيجب أن يكون حبُّ العبد له أعظمَ من حبِّه لكلِّ شيء بما لا نسبة بينهما. ومن لَّم يتحقَّق بمحبَّته علماً وعملاً لم يتحقَّق بشهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله؛ فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ بحبِّها، وتخضع له وتذلُّ له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكَّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئنُّ بذكره، وتسكن إلى حبِّه، وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا كانت «لا إلٰه إلَّا الله» أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهلَ اللهِ وحزبَه، والمنكرون لها أعداؤه وأهلُ غضبِه ونقمتِه.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وأحبُّوا الله بكلِّ قلوبكم؛ فهذا شأن المؤمنين به.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

بارك الله لي ولكم...

= كلِّهم ـ من أوَّلهم إلى آخرهم ـ اْجتمع لشخص واحد منهم، ثمَّ كان الخلق كلُّهم على جمال ذلك الشَّخص، لكان نسبته إلى جمال الرَّبِّ تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشَّمس.
وكذلك قوَّته سبحانه، وعلمُه وسمعُه وبصرُه، وكلامُه وقدرتُه ورحمتُه، وحكمتُه ووجودُه وسائرُ صفاته.
وهذا مما دلَّت عليه آياته الكونيَّةُ السَّمعيَّةُ، وأخبرت به رسله عنه، كما في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**إن الله لا ينام**... ـ إلى أن قال ـ: **حجابه النُّور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما أنتهى إليه بصرُه من خلقه**»، فإذا كانت سُبُحَاتُ وجهه تعالى لا يقوم لها شيء من خلقه، ولو كشف حجابَ النُّور عن تلك السُّبحات لَأَحْرَقَ العالمَ العلويَّ والسُّفليَّ، فما الظَّنُّ بجلال ذلك الوجه الكريم وعظمته وكبريائه وكماله وجلاله؟!
وإذا كانت السَّمواتُ مع عظمتها وسَعَتها يجعلها على أصبع من أصابعه، والأرضُ على أصبع، والجبالُ على أصبع، والبحارُ على أصبع، فما الظَّنُّ باليد الكريمة التي هي صفة من صفات ذاته؟!. (الصَّواعق ص ١٠٨٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله على نعمه وإحسانه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، الكاملُ في صفاته وأسمائه.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، أعرفُ الخلق بربِّه، وأشـدُّهم حبّاً له وطلباً لرضوانه، اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه، وأتباعـه الذين عرفوا أنَّ الغايـة من الخلق هي العبـادة، والعبادةُ هي غاية المحبَّة والذُّلِّ له سبحانه .

أمَّا بعد: عباد الله:

تظهر حقيقة المحبَّة في مواطنَ أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعِه وتفرُّغِ حواسِّـه وجوارحِه من الشَّواغل؛ فإنَّه لا ينام إلَّا على ذكر من يحبُّه وشَغَل قلبَه به.

الثَّاني: عنـد انتباهه من النَّوم، فأولُ شـيءٍ يسـبق إلى قلبه ذكـرُ محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النَّوم.

الثَّالث: عند دخوله في الصَّـلاة، فإنَّها مَحَكُّ الأحوال، وميزان الإيمان، بهـا يُوزن إيمان الرَّجـل ويتحقَّق حالُـه ومَقامُه ومقدارُ قربه مـن الله ونصيبُه

منه، فـإذا قام إلـى الصَّلاة واْطمـأنَّ بذكـره، وقرَّت عينُـه بالمثـول بين يديه ومناجاتِه، واْنفسح قلبه واْنشرح واْستراح؛ دلَّ على حقيقة المحبَّة.

الرَّابع: عند الشَّـدائد والأهوال؛ فإنَّ القلب في هذا الموطن لا يَذكُر إلَّا أحبَّ الأشياء إليه، ولا يهربُ إلَّا إلى محبوبه الأعظمِ عنده.

والمحبُّ يتسـلَّى بمحبوبه عـن كلِّ مصيبة يُصاب بهـا دونه؛ ولهذا لمَّا خرجت تلـك المـرأة الأنصارية[(١)] يـوم أُحـد تنظر ما فعل رسـول الله ﷺ مرَّت بأبيها وأخيها مقتولين فلم تقف عندهمـا، وجاوزتهما تقول: ما فعل رسـول الله؟ فقيل لها: ها هو ذا حيّ، فلمَّا نظرت إليه قالـت: ما أبالي إذا سَـلِمْتَ هلك من هلك.

وهكذا مصائـبُ الموتِ وما بعده ومصائـبُ القيامةِ إنَّما تَسْـهُلُ وتهونُ بالمحبَّـة، وأعظـمُ المصائب مصيبـةُ النَّـار، ولا يدفعها إلا محبَّـةُ الله وحده ومتابعةُ رسوله ﷺ.

فالمحبَّـة أصلُ كلِّ خيـر في الدُّنيا والآخـرة؛ كما قال سـحنون: «ذهب المحبُّون بشـرف الدُّنيا والآخرة، فـإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**المـرءُ مع مَنْ أحَبَّ**» فهم مع الله»[(٢)].

اللَّهمَّ اْجعلْ حبَّك أحبَّ إلينا من أنفسنا، ومن الماء البارد على الظَّمأ.

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) من بني دينار.

(٢) روضـة المحبيـن ص ٣١٥. طريـق الهجرتيـن ص ٣١٥ـ٣١٨، ٣٠٦، ٣٢٢. الصَّواعـق ص١٠٨٢. والجواب الكافي ص ٤٢.

الطَّاعــة حياة القلـوب

علامة صحَّة القلب، ومرضه

الحمد لله الـذي ظهر لأوليائه بنعـوت جلاله، البصيرِ الـذي يرى دبيب النَّملةِ السَّـوداءِ على الصَّخرة الصَّمَّـاءِ، في اللَّيلة الظَّلمـاء، حيث كانت من سهله وجباله، ويرى تقلُّبَ قلبِ عبدِه ويشاهدُ ٱختلافَ أحواله.

أحمده سـبحانه هو أرحم بعبده من الوالدة بولدهـا الرَّفيقةِ به في حَمْله ورَضَاعـه وفِصَالِـه إذا تـاب إليـه العبد، فهـو تعالى أفـرحُ بتوبته مـن الفاقد لراحلته الَّتي عليها طعامه وشـرابه في الأرض المهلكةِ إذا وجدها وقد تهيَّأ لموته وٱنقطاعِ أوصاله.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا رادَّ لحُكْمِه، ولا معقِّب لأمره.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، بلَّغ الرِّسـالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّـة، وجاهد في الله حـقَّ جهاده، وأقـام الدِّين، وتـرك أمَّته علـى البيضاءِ الواضحةِ للسَّـالكين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فـإنَّ الله سـبحانه لم يخلـق خلقه هَمَـلاً؛ بل جعلهـم مـورداً للتَّكليف،

ومَحَـلًّا للأمـر والنَّهـي، وألزمهـم فَهْمَ مـا أرشـدهم إليه مجمـلاً ومفصلاً؛ وقسَّـمهم إلى شـقيٍّ وسـعيد، وجعل لكلٍّ مـن الفريقيـن منـزلاً، وأعطاهم مـواردَ العلمِ والعمل ـ مـن القلب والسَّـمع والبصر ـ، فمن ٱسـتعمل ذلك في طاعته وسـلك به طريق معرفته؛ فقد قام بشـكر ما أوتيـه من ذلك، ومن ٱسـتعمله في إراداته وشـهواته ولم يَرْعَ حقَّ خالقِه فيه؛ يخسـرْ إذا سُئل عن ذلك، ويحزنْ حزنـاً طويلاً، ويقـول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٦].

عباد الله:

إنَّ عبـادة الله وشـكرَه وذِكْرَه وأوامـرَه وحقَّه الذي أوجبـه على عباده وشرائعَه التي شَـرعها لهم هي قرَّة العيون، ولذَّةُ القلوب، ونعيمُ الأرواح وسـرورُها، وبهـا شـفاؤُها وسـعادتُها وفلاحُهـا، وكمالُهـا فـي معاشـها ومعادهـا؛ بل لا سـرورَ لهـا ولا فرحَ ولا لـذَّةَ ولا نعيـمَ فـي الحقيقة إلَّا بذلك، لكن لا يُدرِك هـذه القُرَّةَ وهذه اللَّذَّةَ وهـذا النَّعيمَ إلَّا من كان قلبه صحيحـاً، فالقلـب الصَّحيح هو الـذي يُؤْثـر النَّافعَ الشَّـافيَ علـى الضَّارِّ المـؤذي، قـال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

ومـن علامات صحَّـة القلب: أنَّـه إذا دخل فـي الصَّلاة ذهـب عنه همُّه وغمُّه بالدُّنيا، وٱشـتدَّ عليه خروجه منها، ووجد فيها راحتَه ونعيمَه وسـرورَ قلبِه، قـال ﷺ: «**يا بـلال! أَرِحْنَـا بالصَّـلاة**»، وقال عليـه الصَّلاة والسَّـلام: «**وجُعلت قرَّة عيني في الصَّلاة**».

ومنها: أن يَشُحَّ بوقته أن يذهب ضائعاً.

ومنها: أنَّه لا يزال يضربُ على صاحبـه حتى يُنيبَ إلى ربِّه ويُخبتَ إليه ويتعلَّقَ به.

ومنها: أن يترحَّلَ عن الدُّنيا ويَقْرُبَ من الآخرة حتى يصير من أهلها.

والقلـب قد يمـرض فتعتـلُّ صحَّتُـه، ولمرضـه علامات، ولـه علاج، فمـرض القلب أن يتعـذَّر عليه ما خُلق لـه من معرفة الله ومحبَّته والشَّـوقِ إلى لقائـه والإنابةِ إليـه، وإيثارِ ذلك على كلِّ شـهوة، فلو عـرف العبد كلَّ شـيء ولم يعرف ربَّه، فكأنَّه لم يعرف شـيئاً، ولو نال كلَّ حظٍّ من حظوظ الدُّنيـا ولذَّاتِها وشـهواتِها ولم يظفـر بمحبَّة الله والشَّـوقِ إليـه والأُنسِ به، فكأنَّه لـم يظفر بلذَّةٍ ولا نعيـمٍ ولا قرَّةِ عين؛ بل يصير معذَّبـاً بِنفْس ما كان يراه منعماً به ـ من جهةِ حسـرةِ فوته، ومن جهة فـوتِ ما هو خيرٌ له وأنفعُ وأدوم ـ.

وللقلـب مرضـان: مـرض الشَّـهوة، ومـرض الشُّـبهة، والقـرآن شـفاء للنَّوعين، ففيـه من البيِّنات والبراهيـن القطعيَّة ما يبيِّن الحـقَّ من الباطل في الاعتقادات والآراء الفاسـدة، فتزول أمراضُ الشُّبهِ المفسدة للعلم والتَّصوُّرِ والإدراك، بشرط فهمه ومعرفةِ المرادِ منه.

وأما شـفاؤه لمرض الشَّـهوات: فذلك بمـا فيه من الحكمـة والموعظة الحسـنة، بالتَّرغيب والتَّرهيـب، والتَّزهيدِ فـي الدُّنيا والتَّرغيـبِ في الآخرةِ، والأَمثـالِ والقصـص التـي فيها أنـواعُ العبـر والاسـتبصار، فيرغـب القلب السَّـليم إذا أبصر ذلك فيمـا ينفعه في معاشـه ومعاده، ويرهـب عمَّا يضرُّه؛ فيصيـر القلب محبّاً للرُّشـد مبغضاً للغـيِّ فتصلح إرادته، ويعـود إلى فطرته التي فُطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسـبيَّة، كما يعود البدن بصحَّته وصلاحه إلى الحال الطَّبيعيِّ فلا يقبل إلَّا الحـقّ، كما أن الطِّفل لا يقبل إلا

اللَّبن، قال تعالـى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وللقلب أمراض أُخر ـ مـن الرِّياء، والكِبْر والعُجْب، والحسـد والفخر والخيلاء، وحبِّ الرِّياسـة، والعلـوِّ في الأرض ـ وهذا المـرض مركَّب من مرض الشَّهوة والشُّبهة.

فأوصيكـم ونفسـي بتقـوى الله تعالـى ـ فتقواه هـي وصيَّـة الله للأوَّلين والآخرين ـ، وليكـن نَصْبَ أعينكم دائمـاً العنايةُ بصحَّة وسـلامة قلوبكم؛ لتصلـحَ إرادتُها فتصلـحَ أفعالهـا. وَغَذُّوها من الإيمـان والقرآن بمـا يزكِّيها ويقوِّيهـا ويُفرحُهـا وينَشِّـطُها، واحرصـوا دائمـاً علـى حِمْيَتِها عمَّـا يضرُّها ويؤذيها.

فالقلـب محتـاج إلـى مـا يحفـظ عليـه قُوَّتَـه، وذلـك بالإيمـان وأوراد الطَّاعات، وإلى حِمْيَةٍ عن المؤذي الضَّارِّ، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنـواع المخالفات، وتنقيته مـن كلِّ مادَّة فاسـدة تَعْرِضُ له، وذلـك بالتَّوبة النَّصـوحِ واستغفار غافـر الخطيئات؛ لتكمـل له السَّـعادةُ في الحيـاة وبعد الوفاة.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٢١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ومن غوى فلن يضرَّ إلا نفسه، ولن يضرَّ الله شيئاً.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، القائلُ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، طبيبُ القلوبِ العارفُ بأدوائها، النَّاصحُ المرشدُ لأتمِّ صحَّتِها وصلاحِها، القائلُ: «**أَلَا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صَلَحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، أَلَا وهي القلب**».

أمَّا بعد:

فقد صحَّ عن حذيفةَ بنِ اليمان ﵁: «القلوب أربعة: قلبٌ أَجردُ فيه سراج يُزْهر، فذلك قلب المؤمن. وقلبٌ أغلفُ، فذلك قلب الكافر. وقلبٌ منكوسٌ، فذلك قلبُ المنافقِ عَرَف ثمَّ أنكر، وأَبْصَر ثمَّ عمي. وقلب تمدّه مادَّتان: مادَّةُ إيمان، ومادَّةُ نفاق، وهو لِمَا غَلَب عليه منهما»، وقال عثمان بن عفَّان ﵁: «لو طَهُرت قلوبنا، لما شَبِعت من كلام الله».

فالقلـب الطَّاهر ـ لكمال حياتِـه ونورِه وتَخلُّصِه مـن الأدران والخبائث ـ لا يشـبع مـن القـرآن، ولا يتغـذَّى إلا بحقائقـه، ولا يتـداوى إلا بأدويته؛ بخلاف القلـب الذي لم يطهـرْه الله، فإنـه يتغذَّى مـن الأغذية التي تناسـبه بحسب ما فيه من النَّجاسة؛ كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصَّحيح.

فاتَّقوا الله ـ عبـاد الله ـ واْحرصوا على صحَّة وسـلامة قلوبكم أكثرَ من حرصكم على صحَّة أجسـامكم، فقد شَـخَص لكم الدَّاءُ والدَّواء، والحِمْيَةُ والغـذاء، وقـال طبيـب القلـوب والأبـدان: «**ما أُنـزل مـن داء، إلا أَنْـزلَ له شفاء**»[١].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) إغاثة اللَّهفان جـ ٤/ ٤٣، ٤٤، ٣١، ٦٨، ٧٠، ١١٠، ١٢٢، ١٠، ٢٠، ٧.

الشُّكر أَجَــلُّ المقامــات
ومن أجله خُلق الخلق

الحمد لله كمـا ينبغي لكـرم وجهه وعزِّ جلاله، وأشـكره سـبحانه على جزيل عطائِه وإنعامِه.

وأشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله وحـده لا شـريك له، الكامـلُ في ذاته وأسـمائه وصفاته وأفعاله.

وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبده ورسـوله، القائـمُ بحقوق ربِّه وحقـوقِ خلقه، ومع ذلك قال: «**لن يَدْخل أحدُكم الجنَّةَ بأعماله ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدنيَ الله برحمته وإفضاله**»، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كَمَلَت معرفتُهم بربِّهم وبما يُقرِّب من دار كرامته ورضوانه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الشُّـكر على النِّعم هو الغاية والهدف الذي من أجله خلق الله الخلق وأمرهم بمـا أمر؛ بل هو أَجـلُّ المقامـات وأعلاها، قال الله تبـارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النّحل:٧٨]، وأخبر سـبحانه إنّما يعبده مَنْ شَـكَره، فمن لَّم يشـكرْه لم يكن مـن أهل عبادتـه، فقـال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرة: ١٧٢]، وأثنى سبحانه على خليله إبراهيمَ بشكر نعمه، فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: ١٢٠ ـ ١٢١]، فأخبر أنَّه ﴿أُمَّةً﴾ أي: قدوةً يُؤتَمُّ به في الخير، وأنَّه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ ـ والقانت: هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف: هو المقبلُ على الله، المعرضُ عمَّا سواه ـ، ثمَّ ختم له بهذه الصفات بأنَّه ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾؛ فجعل الشُّكرَ غايةَ خليلِه.

والشُّكر: هو الاعتراف بالنِّعم باطناً، والتَّحدُّثُ بها ظاهراً، وصرفُها فيما يحب مسديها ومُولِيها(١)، روى التِّرمذيُّ من حديث القاسم بن محمَّد: عن عائشة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فعلم أنَّها من عند الله، إلَّا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبدٍ ندامةً على ذنبٍ، إلَّا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإنَّ الرَّجل يشتري الثَّوب بالدِّينار ليلبسَه فيحمد اللهَ فما يبلغ ركبتيه حتَّى يُغْفرَ له**»، وروى التِّرمذيُّ: عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أربعٌ مَنْ أُعطيهنَّ فقد أُعطي خيرَ الدُّنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجةً لا تبغيه خَوَناً في نفسها ولا في ماله**»، وروى الإمام أحمدُ بإسناده: عن ثابت قال: «كان داود عليه السلام قد جزَّأ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ على أهله، فلم يكن ساعةٌ من ليلٍ أو نهارٍ إلَّا وإنسان من آلِ داود قائمٌ يصلِّي فيها، قال: فعمَّهم الله تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: ١٣]».

ومن الشُّكر: أن تظهر على المرء آثارُ النِّعمة، فالله يحبُّ من عبده أن يَرى أثر نعمته عليه، فإنَّ ذلك شكرُها بلسان الحال، وفي صحيفة عمرو بن

---

(١) الشُّكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشَّاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألَّا يستعملها فيما يكره.
الشُّكر: يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، فمن استكملها؛ فهو الشَّاكر.
والحمد: يقع بالقلب واللِّسان. (عدة الصابرين).

شعيب: عن أبيه، عن جدِّه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**كلوا واْشربوا، وتصدَّقوا في غير مَخِيلَةٍ ولا سَرَف، فإنَّ الله يحبُّ أن يَرَى أثر نعمته على عبده**».

والشُّكر يكون على المحابِّ ـ من الأكل والشُّرب، والكساء والهداية، وغير ذلك ـ، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ مواطنَ الشُّكر ومناسباتِه، فمنها: ما روى سهيل ابن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دعا رجلٌ من الأنصار من أهل قباء النَّبيَّ ﷺ فانطلقنا معه، فلما طَعِم وغَسَل يديه قال: «**الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطْعَم، منَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكلُّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا، الحمد لله غيرَ مودَّع ربِّي ولا مكافَأ ولا مكفورٍ ولا مستغنًى عنه، الحمد لله الَّذي أَطْعَمَ من الطَّعام، وسقى من الشَّراب، وكسى من العُرْي، وهَدى من الضَّلالة، وبصَّر من العمى، وفضَّل على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلاً، الحمد لله ربِّ العالمين**».

وفي صحيح مسلم: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأَكْلَة فيحمدُه عليها، ويشربُ الشَّرْبة فيحمدُه عليها**»، فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء ـ الرِّضوان ـ في مقابلة شكره بالحمد.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً في أهل ولا مال ولا ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله، فيرى فيه آفةً دون الموت**»، وكان ﷺ إذا أُخبر بأمرٍ يسرُّه خرَّ ساجداً لله عز وجل.

وعلى كلِّ حاسَّةٍ وجارحةٍ شكرُ ما أُعطيت من النِّعم، قيل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: «إن رأيتَ بهما خيراً أعلنْتَه، وإن رأيتَ بهما شرّاً سترتْه. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سَمِعْتَ بهما خيراً وعيتَه، وإن سَمِعْتَ بهما شرّاً دفعتَه. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذْ بهما ما

ليس لهما، ولا تمنعْ حقّاً لله هو فيهما. قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفلُه طعاماً، وأعلاه عِلْماً. قال: فما شكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]. قـال: فما شـكر الرِّجلين؟ قـال: إنْ رأيـتَ خيراً أغبطتَّه استعْمَلْتَ بهما عملَه، وإنْ رأيتَ شـراً مقتَّه كففتهما عن عمله وأنت شاكرٌ لله».

والـرَّبُّ تعالى يُحمد على إعطـاء هذه الحواسِّ، وهـذه الجوارحِ ـ من السَّـمع والبصر واليدين والرِّجلينِ ـ، وإن قلَّ ما فـي يد صاحبها من المال فهو غني بهما، قال سـلمان الفارسـي ﵁: «إنَّ رجلاً بُسـط له من الدُّنيا، فانتُـزِع ما في يده، فجعل يحمـد الله ويثني عليه حتى لـم يكن له فراش إلا بَارِيَةٌ[1]. وبُسـط لآخر من الدُّنيا فقال لصاحب البارية: أَرأَيتُكَ أنت على ما تَحمدُ الله؟! قال: أحمده على ما أُعطيتُ به ما أَعْطَى الخلقَ لم أُعطَهم إيَّاه، قال: ومـا ذاك؟ قال: أرأيتَ بصرك؟ أرأيتَ لسـانك؟ أرأيتَ يديك؟ أرأيت رجليك؟».

وجاء رجـل إلـى يونسَ بنِ عُبيـد يشـكو ضيقَ حالـه، فقال لـه يونس: «أيسرُّك ببصـرك هـذه مئةُ ألـف درهـم؟ ـ الـرَّجـل: لا، قـال: فـبيـديـك مـئـةُ ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مئةُ ألف؟ قال: لا، قال: فذكَّره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئينَ الأُلوف وأنت تشكو الحاجة!!».

وقد يزوي اللهُ بعضَ الدُّنيا عن عبده ويكـون ذلك نعمة، قال أبو حازم: «نعمـة الله فيمـا زوى عنِّي مـن الدُّنيا أعظـمُ من نعمتـه فيما أعطانـي منها، إنِّـي رأيته أعطى أقواماً فهلكـوا، وكلُّ نعمة لا تُقرِّب مـن الله فهي بليَّة، وإذا

(١) البارية: الحصير المعمول بالقصب.

رأيـتَ الله يتابع عليك نعمه وأنـت تعصيه فاحذره»، وقال سـفيان في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعـرَاف: ١٨٢] قـال: «يسـبغ عليهـم النِّعـم، ويمنعهم الشُّكر».

وحتـى المصائـب تكـون نعمـاً باعتبـار، قـال شـريح: «ما أصيـب عبد بمصيبـة، إلَّا كان لله عليـه فيها ثـلاث نعم: ألَّا تكـون كانت فـي دينه، وألَّا تكون أعظم ممَّا كانت، وأنَّهـا لا بدَّ كائنةٌ فقد كانت»، وقـال عبدالعزيز بن أبي ثابـت: «رأيت في يد محمَّدِ بنِ واسـع قرحـة، فكأنَّه رأى ما شـقَّ علي منها، فقال: أتـدري ماذا عليَّ في هـذه القَرحة من نعمة؟، حيـن لم يجعلها في حدقتي، ولا طرفِ لساني، ولا على طرفِ ذكري، فهانت عليّ قَرحتُه».

والرَّبُّ تعالـى يذكِّر عبده يـوم القيامة بأنـواعِ نعمِه التي أنعـم بها عليه، قال حمَّاد بن زيـد: حدَّثنا ليث، عن أبي بردة، قـال: «قدمت المدينة فلقيت عبدَالله بن سـلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال لي: أَلَا تدخـل بيتاً دخله النَّبـيُّ ﷺ ونَطْعَمُك سـويقاً وتمراً؟ ثمّ قال: إنَّ الله إذا جمع النَّاس غـداً ذكَّرهم بما أنعم عليهم، فيقـول العبد: مـا آيةُ ذلك؟ فيقـول: آيةُ ذلـك أنَّك كنت في كربـة كذا وكذا فدعوتني فكشـفتها، وآيةُ ذلك أنَّك كنت في سـفرِ كذا وكذا فاسـتصحبتني فصحبتُك، قال: يُذكِّره حتى يَذكُر، فيقول: آيـة ذلك أنَّك خطبت فلانةَ بنتَ فلانٍ وخطبهـا معك خُطَّابٌ فزوَّجتُك ورددتهم، يَقِـفُ عَبْدُهُ بين يديه فيعدِّدُ عليـه نعمَه، فبكى، ثـمَّ بكى، ثمَّ قال: إنِّـي لأرجو الله ألَّا يُقْعِـدَ اللهُ عبداً بين يديه فيعذِّبَه».

ولو يتقصَّـى ربُّنا في المحاسـبة على النِّعـم لنفذت الحسـنات بأقلِّ نعمةٍ فـي البـدن؛ فإنَّ أعمـال العبـد لا توافـي نعمةً مـن نعـم الله عليه، ولهـذا فـي الحديـث الصَّحيـح: «**لـن يُنَجِّيَ أحـداً منكـم عملُـه**، قالوا:

ولا أنـت يا رسـول الله؟! قـال: **ولا أنـا، إلَّا أن يتغمَّدنـيَ الله برحمةٍ منه وفضـل**»، وكان أبـو المغيـرة إذا قيـل له: كيـف أصبحت يا أبـا محمَّد؟ قال: «أصبحنـا مُغرَقين بالنِّعـم، عاجزين عن الشُّـكر، يتحبَّـبُ إلينا ربُّنا وهو غنيٌّ عنَّـا، ونتمقَّت إليه ونحـن محتاجـون»، وروى الجريريُّ: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنَّ رسـول الله ﷺ أتـى على رجل وهو يقـول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك تمام النِّعمة، فقال: «**ٱبنَ آدم! هل تدري ما تمامُ النِّعمة؟** قال: يا رسـول الله! دعوتُ دعوةً أرجو بها الخير، فقـال: **إنَّ تمام النِّعمة: فوزٌ من النَّار، ودخولٌ في الجنَّة**».

فأوصيكم وإيَّايَ ـ عباد الله ـ بتقوى الله، والشُّـكرِ عند النَّعماء، ولْيَحْذَرِ المؤمنُ من نسـبة النِّعم إلى غيـر الله، أو يظنُّ أنَّها حصلـت بمجرَّد الصُّدفة، أو يقول: هذا بعملي وأنا محقـوقٌ به. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما من عبدٍ توكَّل بعبادة الله؛ إلَّا عزم اللهُ السَّمواتِ والأرضَ تَعْبُرُ رزقَه، فجعله في أيدي بني آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه، فإنِ العبدُ قَبِلَه أوجب عليه الشُّكر، وإنْ أباه وجد الغنيُّ الحميدُ فقراءَ يأخذون رزقَه ويشكرون له».

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ـ٣٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي وعد الشَّاكرين بالزِّيادة، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله الوليُّ الحميد.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، القائلُ: «**إذا أحبَّ أحدكم أن يرى قدرَ نعمةِ الله عليه؛ فلينظر إلى من تحته، ولا ينظرُ إلى من فوقه**»، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه الشَّاكرين في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

أمَّا بعد: عباد الله:

لقد كان للسَّلف الصَّالح النَّصيبُ الأوفرُ من الشُّكر والتَّقدير للنِّعم، ومعرفةُ أنواعها، كان الحسن البصري إذا ابتدأ حديثه يقول: «الحمد لله، اللَّهمَّ ربَّنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا، وهديتنا وعلَّمتنا، وأنقذتنا وفرَّجت عنَّا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدوَّنا، وبسطتَّ رزقنا، وأظهرت أَمننا، وجمعت فُرقتنا، وأحسنت معافاتِنا، ومِنْ كلِّ ما سألناك ربَّنا أعطيتنا؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو سرٍّ أو

علانية، أو خاصَّةٍ أو عامَّة، أو حيٍّ أو ميِّت، أو شاهدٍ أو غائب، لك الحمد حتَّى ترضى، ولك الشُّكر إذا رضيت».

وروى الإمام أحمد بإسناده: عن عبد الله بن الحارث قال: «أوحى الله إلى داود: أَحِبَّني وأَحِبَّ عبادي، وحبِّبني إلى عبادي، قال: يا ربِّ حبُّك، وحبُّ عبادك، فكيف أحببك إلى عبادك؟، قال: تذكرني عندهم، فإنَّهم لا يذكرون منِّي إلَّا الحَسَن»، وثبت في المسند والتِّرمذيِّ: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لمعاذ: «**إنِّي أحبُّك، فلا تنس أن تقول دُبَرَ كلِّ صلاة: اللَّهمَّ أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

فاقتدوا ـ عباد الله ـ بخيرة خلق الله ـ من الأنبياء والصُّلحاء ـ في الشُّكر عند النَّعماء، والصَّبر عند البلاء، وتدبَّروا ما في كتاب الله من الأمر بالشُّكر والثَّناء على الشَّاكرين[1].

واعلموا أنَّ أحسن الحديث كتاب الله...

(١) المرجع: (عدَّة الصَّابرين).

الصَّبر

وجوبه، وأنواعه، ونتائجه

الحمد لله الصَّبورِ الشَّكور، شَمِلت قدرتُه كلَّ مخلوق، وجرت مشيئتُه في خلقه بتصاريف الأمور.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، جلَّ عن الشَّبيه والنَّظير، وتعالى عن الشَّريك والظَّهير.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أعرفُ الخلق بربِّه، وأقومُهم بخشيته، وأنصحُهم لأمَّته، وأصبرُهم لحُكْمِه، وأشْكَرُهم لنعمه، فصلَّى اللهُ وملائكتُه عليه، كما وَحَّدَ اللهَ وعَرَّف به ودعا إليه، وسلَّم تسليماً كثيراً، ورضي الله عن جميع أصحابه وأتباعه الحامدين لربِّهم على السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، والشِّدَّةِ والرَّخاء.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الله تبارك وتعالى جعل الصَّبر آخيةَ[1] المؤمن التي يجول ثمَّ يرجع إليها، وساق إيمانَه الذي لا اعتماد له إلا عليها؛ فلا إيمانَ لمن لا صبر له، وإن كان فإيمانٌ قليلٌ في غاية الضَّعف، وصاحبُه ممَّن يعبد الله على حَرْفٍ؛

(١) الآخية: عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدَّابة.

فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به، وإنْ أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِر الدُّنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصَّفقة الخاسرة.

و«**الصَّبر**» ـ يا عباد الله ـ: خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاق النَّفس، يمتنع به مِنْ فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُل، وهو قوة من قوى النَّفس التي بها صلاحُ شأنِها وقِوامُ أمرها، قال النَّبيُّ ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسعَ من الصَّبر**»، وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصَّبر».

و«**النَّفْس**» مطيَّة العبد التي يسير عليها إلى الجنَّة أو النَّار، والصَّبر لها بمنزلة الخِطام والزِّمام، فإن لَّم يكن للمطيَّة خِطام ولا زِمام شردت في كلِّ مذهب، حُفِظ من خُطَب الحَجَّاج أنَّه قال: «اقْدُعوا هذه النُّفوس، فإنَّها طَلِعَةٌ إلى كلِّ سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله؛ فإن الصَّبر عن محارم الله أيسرُ من الصَّبر على عذابه».

و«**النَّفس لها قوَّتان**»: قوة الإقدام، وقوة الإحجام؛ فحقيقة الصَّبر: أن يجعل قوَّةَ الإقدام مصروفةً إلى ما ينفعه، وقوَّةَ الإحجام إمساكاً عمَّا يضره. والإنسان في معترك الحياة بين جيشين: جيشِ الدِّين، وجيش الهوى، فإمَّا أن يكون القهر والغلبة لداعي الدِّين؛ فيردُّ جيشَ الهوى مفلولاً، وهذا إنَّما يصل إليه بدوام الصَّبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم المنصورون في الدُّنيا والآخرة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وهم الَّذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠، ٣١]، وهم الذين جاهدوا في الله حقّ جهاده.

وإن كانت القوَّة والغلبة لداعي الهوى؛ سقط منازعُه ـ باعثُ الدِّين ـ بالكلِّيَّة، وٱستسلم البائسُ للشِّيطان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا، ويكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضَّعيف، أو يصيرُ الشَّيطانُ وجندُه من أعوانه، وهذه حال الفاجرِ القويِّ المتسلِّطِ، والمبتدعِ الدَّاعيةِ المتبوع، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شِقْوَتُهم وٱشتَرَوُا الحياة الدُّنيا بالآخرة، وإنَّما صاروا إلى هذا لمَّا أفلسوا من الصَّبر.

أو يكون الحرب سجالاً ودُوَلاً بين الجندين، فتارة له، وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتَقِلُّ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً. وتكون الحال يوم القيامة موازِنةً لهذه الأحوال الثَّلاث، فمِنَ النَّاس من يدخل الجنَّة ولا يدخل النَّار، ومنهم مَنْ يدخل النَّار ولا يدخل الجنَّة، ومنهم من يدخل النَّار ثمَّ يدخل الجنَّة.

و«**الإنسان**» لا يستغني عن الصَّبر في حالٍ من الأحوال؛ فإنَّه بين أمرٍ يجب عليه ٱمتثاله وتنفيذُه، ونهيٍ يجب عليه ٱجتنابه وتركُه، وقَدَرٍ يجري عليه بغير ٱختياره، ونعمةٍ يجب عليه شكرُ المنعِم بها.

فأمَّا «**الأمر**» الذي يجب عليه ٱمتثاله وتنفيذه؛ فهو الطَّاعة، والعبد محتاجٌ إلى الصَّبر عليها؛ لأنَّ النَّفس بطبعها تنفر عن كثير من العبوديَّة، أمَّا في «**الصلاة**» فَلِما في طبع النَّفس من الكسل وإيثار الرَّاحة، ولا سيَّما إذا ٱتَّفق مع ذلك قسوةُ القلب، ورَيْنُ الذَّنب، والمَيْلُ إلى الشَّهوات، ومخالطةُ أهلِ الغفلة، فلا يكاد العبد مع هذه الأمورِ وغيرِها أن يفعلها، وإنْ فعلها مع ذلك كان متكلِّفاً غائبَ القلبِ ذاهلاً عنها طالباً لفراقها، وأمَّا «**الزَّكاة**» فَلِما في طبع النَّفس من الشُّحِّ والبخل، وكذلك «**الحجّ، والجهاد**» للأمرين جميعاً.

ويحتاج العبد ههنا إلى الصَّبر قبل الشُّروع فيها: بتصحيح النِّيَّة والإخلاصِ، وتجنُّبِ دواعي الرِّياء والسُّمعة، وعقدِ العزم على توفِيَةِ العبادة حقَّها ـ بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتِها وسننِها ـ وعلى الصَّبر على ٱستصحاب ذكر المعبود فيها، وألَّا يَشتغِلَ عنه بعبادته، ثمّ الصَّبرِ بعد الفراغ من العمل عن الإتيان بما يبطله، وأن يصبر عن رؤيتها والعُجْبِ بها، والتَّكبُّرِ والتَّعظُّمِ بها، وأن يصبر عن نقلها من ديوان السِّرِّ إلى ديوان العلانية.

وأمَّا «**النَّهيُّ**» الذي يجب عليه ٱجتنابُه وتركُه؛ فهو المعاصي كلُّها، وأعظم ما يُعين على تركها: قطعُ المألوفات، ومفارقةُ الأَعْوانِ عليها في المجالسة والمحادثة، وقطعُ العوائدِ الفاسدة.

وممَّا يُعين على الصَّبر: إجلالُ اللهِ تبارك وتعالى أن يُعصَى وهو يَرَى ويَسْمَع.

ومنها: إيثارُ محبَّة الله تعالى؛ فإن المحِبَّ لمن يُحبُّ مطيعُ.

ومنها: ٱستحضار نعمته وإحسانه؛ فإنَّ الكريمَ لا يُقابَل بإساءةِ مَنْ أحسن إليه.

ومنها: تذكُّر الغضب والانتقام؛ فإنَّ الرَّبَّ إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء.

وكلُّ هذه الأمورِ ونحْوُها ممَّا يُعين على ترك المعصية.

وأمَّا «**الصَّبر على القَدَر**» الذي يجري عليه بغير ٱختياره ـ فكالأمراض والفقرِ وموتِ الأقارب وغيرِها ـ؛ فيجب عليه ألَّا يتسخَّطها.

وهذه الثَّلاثة ـ الصَّبرُ على المأمور، والصَّبرُ عن المحظور، والصَّبرُ على المصائب ـ هي الَّتي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالعزيمة الصَّادقة، والهمَّةُ العاليةُ والنَّخوة، والمروءُ الإنسانيَّة، وإدراكُ ما في المأمور من الخير والنَّفع واللَّذة والكمال، وإدراكُ ما في المحظور من الشَّرِّ والضُّرِّ والنَّقص؛ فمتى حصل له ذلك حصل له الصَّبر، وهانت عليه مَشاقُّهُ وَحَلَتْ له مَرارتُه.

وأمَّا «**النِّعمة**» التي يجب عليه شكرُ المنعِم بها عليه ـ فكالصِّحَّةِ والسَّلامة، والجاهِ والمال، وأنواع المَلاذِّ المباحة ـ هو محتاج إلى الصَّبر فيها، بألَّا يركنَ إليها، ولا يغترَّ بها، ولا تَحْملَه على الأَشَرِ والبَطَر، والفرحِ المذموم الذي لا يُحِبُّ اللهُ أهلَه، وألَّا ينهمك في نيلها ويبالغَ في ٱستقصائها، فمن بالغ في الأكل والشُّرب والجماع حُرِمَها. وأن يصبر على أداء حقِّ الله فيها لئلا يَسْلبَها، وأن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكِّنْ نفسَه من كلِّ ما تُريد منها، قال بعض السَّلف: «ٱبتلينا بالضَّرَّاء فصبرنا، وٱبتلينا بالسَّرَّاء فلم نصبر».

وهناك صبر مُحرَّم؛ كالصَّبر عن الطَّعام والشَّراب حتى يموت.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، ولازموا الصَّبرَ على المأمور، والصَّبرَ عن المحظور، والرِّضا بالمقدور، والشُّكرَ عند أسباب السُّرور، فقد ذمَّ اللهُ نوعَ الإنسانِ المتَّصفِ باليأس والكفر عند المصيبة، والفرحِ والفخرِ عند النِّعمة، ولا خَلَاصَ من هذا الذَّم إلا بالصَّبر والعمل الصَّالح.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١١].

بارك الله لي ولكم في القرآن...

الخطبة الثانية

الحمد لله العليِّ الكبير، السَّميعِ البصير.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، يسبِّح له ما في السَّموات وما في الأرض، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، وخيرتُه من بريَّته، وأعلاهم عنده منزلة، بلَّغ رسالة ربِّه، وصدع بأمره، وقام لله بالصَّبر والشُّكر حقَّ القيام حتى بلغ رضاه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن ٱتَّبع هداه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ٱتَّقوا الله تعالى ـ وتقواه: فعلُ ما أَمر، وتركُ ما حَظر، والصَّبرُ على ما قَدَّر ـ، وٱعلموا أنَّ النَّصر مع الصَّبر، والفَرَجَ مع الكَرْب، واليُسرَ مع العسر؛ وأنَّ الصبرَ أنصرُ لصاحبه من الرِّجال بلا عُدَّةٍ ولا عَدد، ومَحَلُّه من الظَّفر؛ كمَحَلِّ الرَّأس من الجسد، وقد ضمن الوفيُّ الصَّادق لأهله في محكم الكتاب، أن يُوفِّيَهم أجرَهم بغير حساب، وأخبر أنَّه معهم بنصره فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ فظفر الصَّابرون بهذه المعيَّة بخيرِ الدُّنيا والآخرة، وفازوا بها بنِعَمِه الباطنةِ والظَّاهرة، وخصّهم بالهداية دون من سواهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ فاصبروا وصابروا.

ومن لَّم يكنِ الصَّبر خُلُقاً له ومَلَكَةً، فتكَلَّفه واْستَدْعاه وزَاوَلَه: صار سجيَّة له وطبيعة؛ كما في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ومن يتصبَّرْ يصبِّرْه الله**»، كما أنَّه لا يزال يَتكَلَّفُ الحِلْمَ والوقار، والسَّكينةَ والثَّبات: حتى تصيرَ خُلُقاً له بمنزلة الطَّبائع(١).

وصلُّوا على خير هادٍ وبشيرٍ؛ فقد أمركم اللهُ بذلك في كتابه المبين، وبدأ بالصَّلاة عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(١) من (عدَّة الصَّابرين).
وذكر فيها: أنَّ في الأمراض نحوَ مئةِ فائدة.
ثمَّ قال: «وأما انتفاع القلب والرُّوح بالآلام والأمراض، فلا يَحُسُّ به إلَّا مَنْ فيه حياة، فصحَّة القلوب والأرواح موقوفة على آلام الأبدان ومشاقِّها، وأن اللَّذةَ والسُّرور، والخيرَ والنِّعم، والعافيةَ والصِّحَّةَ في هذه الدَّار المملوءةِ بالمحن والبلاء، أكثرُ من أضدادها بأضعافٍ مضاعفة، فأين إيلام الحيوان من لذَّته؟! وأين سقَمه من صحَّته؟! وأين جوعه وعطشه من شبعه وَريِّه؟! وتعبه من راحته؟! قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥،٦].
فآلام الدُّنيا جميعِها، نسبتها إلى آلام الآخرة، أقلُّ من نسبة ذرَّة إلى جبال الدُّنيا بكثير، وكذلك لذَّات الدُّنيا.
والله سبحانه لم يخلق الآلامَ واللَّذاتِ سدى... كلّ واحدة منهما تثمر الآخر. فلو كان الإنسان وغيرُه من الحيوان لا يجوع ولا يَعْطَش ولا يتألَّم في عالم الكون والفساد، لم يكن حيواناً، ولكانت هذه الدَّارُ دارَ بقاءٍ ولذَّةٍ مطلقةٍ كاملة، والله لم يجعلها كذلك، وإنَّما جعلها داراً ممتزجاً ألمُها بلذَّتها، وسرورُها بأحزانها، ونعمُها وصحَّتُها بسقمها، حكمة بالغة».
(شفاء العليل ص ٢٤٩، ٢٥٠).

«لا إله إلَّا اللّٰه» أوَّلاً

الحمـد لله الذي خلـق الجنَّة وجعـل مفتاحهـا «لا إلٰـه إلَّا الله»، أحمده سبحانه.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، شـهادةَ مخلصٍ فيها، موقِنٍ بها.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، الذي جدَّد ما ٱنْدَرَسَ من معالمها، ومـع ذلـك قـال لـه ربُّـه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ فصـدع بها ونادى، ووالى عليها وعادى، وقال: «**أُمرت أن أقاتـل النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله؛ فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقِّها**».

دعا إلى هذه الكلمة عشـرَ سـنين، ولم يَدْعُ قبلَها إلـى زكاة، ولا صيام، ولا حجٍّ وعمرةٍ إلى بيت الله الحرام.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه الذين جاهدوا مَنِ ٱمتنع مِنْ قولها، أو صدَّ عنها، أو نقضها.

أمَّا بعد: فيا عباد اللّٰه:

ٱتَّقوا الله تعالى، وجدِّدوا إيمانكم في المساء والصَّباح بتأمُّلِ وتطبيقِ معنـى «لا إلٰـه إلَّا الله»؛ فهـي كلمة الإسـلام، ومفتاح دار السَّـلام، ومن

أَجْلِها أُرسلت الرُّسل إلى العباد ليعلِّمُوهم العملَ بـ «لا إلٰه إلَّا الله»، وهي الكلمة التي ورَّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة، وهي الكلمة الَّتي قامت بها الأرض والسَّموات، وفطر اللهُ عليها جميعَ المخلوقات، وعليها أُسِّست الملَّة، ونُصبت القبلة، وجُرِّدت سيوفُ الجهاد، وهي محضُ حقِّ الله على العباد، وهي الكلمة العاصمة للدَّم والمال والذّريةِ في هذه الدَّار، والمُنْجيةُ من عذابِ القبر وعذابِ النَّار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحدٌ الجنَّةَ إلَّا به، والحبلُ الذي لا يصل إلى الله إلَّا من تعلَّق بسببه، وبها ٱنقسمَ النَّاس إلى شقيٍّ وسعيد، ومقبولٍ وطريد، وبها ٱنفصلت دارُ الكفر عن دار الإسلام، وتميَّزت دارُ النَّعيم من دار الشَّقاء والهوان، وهي العمودُ الحاملُ للفرض والسُّنَّة، و«**من كان آخرُ كلامه: لا إلٰه إلَّا الله؛ دخل الجنَّة**».

عباد الله:

إنَّ روح هذه الكلمةِ وسرَّها: إفرادُ الرَّبِّ جلَّ ثناؤه بالمحبَّة والتَّعظيم، والخوفِ والرَّجا، وتوابعِ ذلك من التَّوكُّل والإنابة، والرَّغبةِ والرَّهبة، فلا يُحبُّ سواه المحبَّةَ المقتضيةَ للذُّلِّ والخضوع؛ بل كل ما كان يُحبُّ فإنَّما هو تبع لمحبَّته ووسيلةٌ إلى محبَّته، ولا يُخاف سواه، ولا يُتوكَّل إلَّا عليه، ولا يُرغَب إلَّا إليه، ولا يُرهبُ إلَّا منه، ولا يُحلَف إلَّا باسمه، ولا يُنذَر إلَّا له، ولا يُتابُ إلَّا إليه، ولا يُطاع إلَّا أَمرُه، ولا يُحتسبُ إلَّا به، ولا يُستعان في الشَّدائد إلَّا به، ولا يُلتجأ إلَّا إليه، ولا يُركعُ إلَّا له، ولا يُنحنى إلَّا له، ولا يُذبح إلَّا له وباسمه، ويجتمع ذلك في عبارة واحدة وهي: «أَلَّا يُعبدَ بجميع أنواع العبادة إلَّا هو سبحانه».

وٱعلموا ـ عباد الله ـ أنَّ «لا إلٰه إلا الله» لا تنفع قائلَها إلا بعد معرفةِ

معناها، والعملِ بمقتضاها، والسَّـلامةِ مما يناقضها ـ لا بدَّ في شهادة «لا إلٰه إلَّا الله» مـن ٱعتقـادٍ بالجنان، ونطقٍ باللِّسـان، وعمـلٍ بالأركان، فـإنِ ٱختلَّ واحد من هـذه الثَّلاثـة؛ لم يكـن الرَّجل مسـلماً، فـإذا كان مسـلماً وعاملاً بالأركان ثمَّ حدث منـه قول أو فعل أو ٱعتقاد يناقض ذلـك؛ لم ينفعْه قول: «لا إلٰـه إلَّا الله» ـ، فمن صـرف لغير الله شـيئاً من العبادات ـ بأن أشـرك به أحداً من المخلوقات ـ؛ فهو كافر ولو نطق ألف مرَّة بـ «لا إلٰه إلَّا الله».

قيل للحسـن البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أناسـاً يقولون: من قال «لا إلٰه إلَّا الله» دخل الجنَّة، فقال: من قالها وأدَّى حقَّها وفَرْضَها دخل الجنَّة»، وقال وهبُ بنُ منبِّهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لمـن قال له: أليـس مفتاحُ الجنَّـة لا إلٰه إلَّا الله؟! قـال: «بلى؛ ولكنْ ما من مفتاح إلَّا وله أسنان، فَإِنْ جئت بمفتاح له أسنانٌ فَتَح لك، وإلَّا لم يُفتحْ لك».

فالإسلام له نواقضُ عدَّها العلماء عشرة؛ فالشِّرك من نواقض الإسلام، فمن جعل بينه وبين الله وسائطَ يدعوهم ويسـألُهم الشَّفاعةَ ويتوكَّلُ عليهم؛ فقد نَقَضَ الإسلام.

ومن لَّم يكفِّر المشـركين، أو شـكَّ في كفرهم، أو صحَّح مذهبَهم؛ كَفَرَ بالإجماع.

والإعراضُ عن دين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به؛ كُفْرٌ بالإجماع.

ومَـنِ ٱعتقد أنَّ غيرَ هـدي النَّبيِّ ﷺ أكمـلُ من هديـه، أو أنَّ حكم غيرِه أحسنُ من حكمه؛ فهو كافر.

ومَنِ ٱستهزأ بشيءٍ من دين الله أو ثوابه أو عقابه؛ كَفَرَ وٱنتقض إسلامُه.

وكلُّها من أعظمِ ما يكون خطراً وأكثرِ ما يكون وقوعاً؛ فينبغي للمسـلم

أن يحذرَها ويخافَ منها على نفسه ـ نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه ـ.

عباد الله:

ويُخاف على المسلم أن يأتيَ بسيِّئةٍ راجحة، فيضعفَ إيمانُه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السَّيِّئات، ويُخشى عليه من الشِّرك الأكبر والأصغر، فَإِنْ سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيِّئاتٍ فتُضمُّ إلى هذا الشِّرك، فيرجُحُ جانبُ السَّيِّئات؛ فإنَّ السَّيِّئاتِ تُضعِف الإيمانَ واليقين، فيَضعُفُ قولُ «لا إلٰه إلَّا الله»، فيصير المتكلِّم بها كالهاذي أو النَّائم، أو من يُحسِّن صوته بآية من القرآن من غير ذَوقِ طعمٍ وحلاوة، فإذا كثُرت الذُّنوب ثقُل على اللِّسان قولُها، وكَرِه العملَ الصَّالح، وثقل عليه سماع القرآن، وٱستبشر بذكر غيره، وٱطمأنَّ إلى الباطل، وٱسْتَحْلَى الرَّفث ومخالطةَ أهلِ الباطل، وكره مخالطةَ أهلِ الحق. فمثل هذا إذا قالها، قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدِّقه عمله، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمان بالتَّحلِّي ولا بالتَّمنِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلب وصدَّقته الأعمال، فمن قال خيراً قُبِل منه، ومن قال خيراً وعمل شرّاً لم يُقْبل منه».

فالَّذي يَدْخل النَّار ممَّن يقولها: إمَّا أنَّهم لم يقولوها بالصِّدق واليقين التَّام المنافِيَيْنِ للسَّيِّئات، أو لرجحان السَّيِّئات، أو قالوها وٱكتسبوا بعد ذلك سيِّئةً أو سيِّئاتٍ رجحت على حسناتهم.

فقد تواترت الأحاديث: بأنَّه يَخرج من النَّار من قال: «لا إلٰه إلَّا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرَّة. وتواترات: بأنَّ كثيراً ممَّن يقول: «لا إلٰه إلَّا الله» يدخل النَّار ثمَّ يخرج

منهـا. وتواترت: بأنَّ الله حرَّم على النَّار أن تأكل أثرَ السُّجود من ابن آدم؛ فهـؤلاء كانوا يُصَلُّون ويسـجدون لله. وتواتـرت: بأنَّه يَحْرمُ علـى النَّار من قـال: «لا إلٰه إلَّا الله»، وشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسـول الله، لكن جاءت مقيَّدة بالقيود الثِّقال: بالصِّدق واليقين والإخلاص وعدم الشَّـكِّ.

فاحـرص ـ أيُّها المسـلم ـ أن تكون ممَّـن يشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله حقيقةَ الشَّهادة، بحيث لا يبقى في قلبك شيء لغير الله، ولا إرادةَ لما حرَّم الله، ولا كراهة لمـا أمر الله، فإنَّ من مات علـى هذه الحالةِ؛ فهو مـن أهل الجنَّة ولا يدخل النَّـار، قال الله تعالـى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

لكن من النَّاس من تكون شهادته ميِّتة، ومنهم من تكون نائمةً إذا نُبِّهت انتبهـت، ومنهم من تكـون مضطجعة، ومنهم مـن تكون إلى القيـام أقرب. وهي فـي القلب بمنزلة الـرُّوح في البـدن، فـروحٌ ميِّـتة، وروحٌ مريضةٌ إلى المـوت أقـرب، وروح إلى الحيـاة أقـرب، وروح صحيحة قائمـة بمصالح البدن، وفي الحديث الصَّحيح: «**إنِّي لأعلم كلمةً لا يقولها عبدٌ عند الموت، إلَّا وَجدتْ روحُه لها رَوْحاً** ـ يعني: راحة ـ» يعني: «لا إلٰه إلَّا الله».

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه...

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ٱتَّقوا الله تعالى، وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضها السَّمواتُ والأرض، أُعدَّت للمتَّقين، الَّذين قاموا بواجب «لا إلٰه إلَّا الله»، فمن نفى ما نفته، وأثبت ما أثبتته، ووالى عليها وعادى؛ رفعته إلى أعلا علِّيِّين ـ منازلِ أَهلِ «لا إلٰه إلَّا الله» ـ.

أخرج البخاري في صحيحه: عن قتادة قال: حدَّثنا أنس بن مالك أنَّ النَّبيَّ ﷺ ـ ومعاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه رديفَه على الرَّحْل ـ قال: «**يا معاذ!** قال: لبَّيك يا رسول الله وسعديك ـ قالها ثلاثاً ـ قال: **ما من أحد يشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً من قلبه، إلَّا حرم الله تعالى عليه النَّار**، قال: يا رسول الله! أفلا أُخبر النَّاس فيستبشروا؟ قال: **إذاً يتَّكلوا**».

اللَّهمَّ ٱجعلنا ممَّن يقوم بأركان الإسلام، ولا تجعلنا ممَّن يكتفي في الإسلام بالأنساب، ونعوذ بك اللَّهمَّ من الشِّرك ومن الإلحاد، ونسألك الاستقامةَ على التَّوحيد والطَّاعةَ والسَّداد(١).

إنَّ أحسن الحديث...

(١) المرجع: (الجواب الكافي) ص ١٧٤، ومن خُطَبِ أئمَّةِ الدَّعوة.

الصَّلاةُ وحِكَمُها وأسرارُها وحِكَمُ الطَّهارةِ لها

الحمـد لله الَّـذي أنعـم علـى عبـاده ـ بأعظـم النِّعـم وأجلِّهـا وأفضلِها وأعلاهـا ـ ببعثِهِ الرُّسـلَ وإنزالِـه الكتـبَ بأزكى الشَّـرائعِ وأسـناها، أحمده سبحانه ـ وحمدي له من نعمه ـ، وأسأله المزيد من عطائه وكرمه.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، أوامره سبحانه رحمةٌ وإحسانٌ وشـفاء، وحياةٌ للقلوب وغذاء، وحاجتهم إليها أعظمُ من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّـراب والكسـاء، فلولا رحمته بالعلـم والإيمان، وبيان الحـرام والحلال، لـكان النَّـاس بمنزلـة البهائـم يتهارجـون فـي الطُّرقـات، ويتسـافدون تسـافد الحيوانات، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى صواب.

وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبـده ورسـوله، أنـزل عليـه شـريعةً مكمِّلـةً للفطر والعقول، مرشـدةً إلـى ما يحبُّـه الله ويرضـاه، ناهيـةً عمَّا يبغضه ويسـخطه ويأباه، مسـتعمِلةً لكلِّ قوَّة وعضو وحركة في كماله الَّذي لا كمال له سواه، آمرةً بمـكارم الأخلاق ومعاليها، ناهيـةً عن دنيئها وسفسـافها، دالَّةً على أنَّ الَّذي جاء بها رسول صادق، وأنَّ الَّذي شرعها أحكم الحاكمين.

اللَّهـمَّ صـلِّ وسـلِّم على عبـدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وجميع أصحابه والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

الشَّرائع ضروريَّة في مصالح الخلق، وضرورتُهم إليها فوق كلِّ ضرورة تُقدَّر، فهي أسباب موصلة إلى سعادة الدَّارين، ورأسُ الأسباب الموصلةِ إلى صحَّة البدن وقوَّته وٱستفراغ أخلاطه، ومن لَّم يتصور الشَّريعة على هذه الصُّورة؛ فهو من أبعد النَّاس عنها. ٱنظروا إلى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النُّبوَّة كيف حال أهلها، وما دخل عليهم من الجهل والظُّلم، والكفرِ بالخالق، والإشراكِ بالمخلوق، وٱستحسانِ القبائح، وفسادِ العقائد والأعمال.

عباد الله:

قد جعل الحكيمُ العليمُ لكلِّ قوَّة من القوى، ولكلِّ حاسَّة من الحواسِّ، ولكلِّ عضو من الأعضاء، كمالاً حسِّياً وكمالاً معنويّاً؛ فأعطاه كماله الحسِّي خَلْقاً وقَدَراً، وأعطاه كمالَه المعنويَّ شرعاً وأمراً، فبلغ بذلك غايةَ السَّعادةِ والانتفاعِ بنفسه.

ويكفي العاقِلَ البصيرَ الحيَّ القلبِ فِكْرُهُ في فرع واحد من فروع الأمر والنَّهي وهو «**الصَّلاة**» وما ٱشتملت عليه من الحِكَمِ الباهرة، والمصالحِ الباطنة والظَّاهرة، والمنافعِ المتَّصلةِ بالقلب والرُّوح والبدن والقوى، الَّتي لو ٱجتمع حكماء العالم وٱستفرغوا قواهم وأذهانَهم لَمَا أحاطوا بتفاصيل حِكَمها وأسرارها وغاياتها المحمودة، وما في مقدِّماتها وشروطها من الحِكَم العجيبة ـ من تطهيرِ الأعضاء والثِّياب والمكان، وأخذِ الزِّينة، وٱستقبالِ بيته الَّذي جعله إماماً للنَّاس، وتفريغِ القلب لله، وإخلاصِ النِّيَّة، وٱفتتاحِها بكلمة «الله أكبر» الجامعةِ لمعاني العبوديَّة الدَّالةِ على أصول الثَّناء وفروعه، المخرجةِ من القلب الالتفاتَ إلى ما سواه، فيقوم بقلبه

الوقـوفُ بين يدي عظيم جليلٍ أكبرَ من كلِّ شـيء وأعظمَ من كلِّ شـيء في كبريائه ـ السَّـمواتِ وما أظلَّت، والأرضِ وما أقلَّـت، والعوالمِ كلِّها ـ عَنَتْ له الوجوه، وخَضَعَتْ لـه الرِّقاب، وذلَّت له الجبابرة، قاهرٌ فوق عباده، ناظرٌ إليهم، عالـمٌ بما تُكِنُّ صدورهم، يسـمع كلامَهم، ويـرى مكانَهم، لا يخفى عليه خافيةٌ من أمرهم(١).

ثمَّ أخذ في تسبيحه وحمده وذكره ـ تبارك ٱسمه، وتعالى جَدُّه ـ وتفرُّده بالإلٰهيَّة(٢).

ثمَّ أخذ في الثَّناء عليه بأفضلَ ما يُثنى عليه به ـ من حمده، وذِكْر ربوبيَّته للعالم، وإحسـانه إليهم، ورحمته بهم، وتمجيده بالمُلْك الأعظم، في اليوم الذي لا يكـون فيه مَلِكٌ سـواه حيـن يجمع الأوَّليـن والآخريـن في صعيد واحد ويَدِينُهم بأعمالهم ـ.

ثـمَّ أفرده بنوعـي التَّوحيد ـ توحيـدِ ربوبيَّته ٱسـتعانةً به، وتوحيـدِ إلٰهيَّته عبوديةً له ـ.

ثمَّ سـؤالُه أفضلَ مسـؤولٍ وأجـلَّ مطلوبٍ علـى الإطلاق؛ وهـو هداية الصِّراط المسـتقيم الـذي نصبه لأنبيائـه ورسـلِه وأتباعِهم، وجعلـه صراطاً موصلاً لمن سـلكه إليه وإلـى جنَّته، وأنـه صـراطُ مَنِ ٱختصَّهـم بنعمته بأن عرَّفهـم الحقَّ وجعلهـم متَّبعين لـه، دون صراطِ أُمَّـةِ الغضـب الَّذين عرفوا الحَقَّ ولم يتَّبعوه، وأهلِ الضَّلال الذين ضلُّوا عن معرفته وٱتِّباعه(٣).

---

(١) هذا من كلمة «الله أكبر».

(٢) هذا في الاستفتاح.

(٣) هـذا فـي سـورة الفاتحة كما هو واضح لأكثر المصلِّين، فتضمنت الفاتحـة: تعريف الرَّبِّ، والطريـقَ الموصل إليه، والغايةَ بعد الوصول، وتضمَّنت: الثَّناء، والدُّعاء، وأشـرفَ الغايات ـ وهي العبوديَّة ـ، وأقربَ الوسـائلِ إليها ـ وهي الاسـتعانة ـ. =

ثمَّ يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب، وشفاءِ الصُّدور، ونورِ البصائر، وحياةِ الأرواح، وهو كلام ربِّ العالمين، فَيَحُلُّ به فيما شاء من روضاتٍ مونِقات، وحدائقَ معجبَات، زاهيةٍ أزهارُها، مونقةٍ ثمارُها، قد ذُلِّلت قطوفها تذليلاً، وسُهِّلت لمتناولها تسهيلاً، فهو يجتني من تلك الثِّمار خيراً يؤمرُ به، وشرّاً ينهى عنه، وحكمةً وموعظةً وتبصرة، وتذكرة وعِبْرةً، وتقريراً لحقٍّ، ودحضاً لباطل، وإزالةً لشبهة، وجواباً عن مسألة، وإيضاحاً لمشكل، وترغيباً في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيراً من أسباب خسران وشقاوة، ودعوةً إلى هدى، وردَّاً عن ردى، فتنزِلُ على القلوب نزولَ الغيث على الأرض الَّتي لا حياة لها بدونه، ويحُلُّ منها مَحَلَّ الأرواحِ لأبدانها.

فأيُّ نعيمٍ وقرَّةِ عين ولذَّةِ قلب وٱبتهاجٍ وسرورٍ لا يحصل له في هذه المناجاة؟! والرَّبُّ تعالى يسمع لكلامه جارياً على لسان عبده، ويقول: حَمِدَني عبدي، أَثْنَى عليَّ عبدي، مَجَّدَنِي عبدي.

ثمَّ يعود إلى تكبير ربِّه عَزَّ وَجَلَّ فيجدِّد به عهدَ التَّذكرةِ كونَهُ أكبرَ من كلِّ شيء بحقِّ عبوديَّته وما ينبغي أن يعامل به.

ثمَّ يركع حانياً له ظهرَه خضوعاً لعظمته، وتذلُّلاً لعزَّته، وٱستكانةً لجبروته، مسبِّحاً له بذكر ٱسمه العظيم، فنزَّه عظمتَه عن حال العبد وذلِّه وخضوعه، وقابل تلك العظمةَ بهذا الذُّلِّ والانحناء والخضوع، قد تطامن وطَأْطَأَ رأسَه وبسط ظهرَه، وربُّه فوقَه يرى خضوعه وذُلَّه ويسمع كلامه، فهو ركنُ تعظيمٍ وإجلال، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَمَّا الرُّكوعُ: فعظِّموا فيه الرَّبّ**».

ثمَّ عاد إلى حاله من القيام حامداً لربِّه، مُثْنِياً عليه بأكملِ محامده

= فكم في هذه السُّورة من أنواع المعارفِ والعلومِ والتَّوحيدِ وحقائقِ الإيمان؟!.

وأجمعِهـا وأعمِّها، مُثْنِيـاً عليـه بأنَّه أهـلُ الثَّناء والمجـد، معترفـاً بعبوديَّته، شـاهداً بتوحيده، وأنَّـه لا مانع لما أعطـى ولا معطي لما منـع، وأنه لا ينفع أصحابَ الجُدودِ والأموالِ والحظوظِ جدودُهم عنده ولو عظمت.

ثمَّ يعـود إلى تكبيره ويخرُّ له سـاجداً على أشـرف ما فيـه وهو الوجه، فيعفِّره فـي التُّـراب ذلّاً بين يديه ومسـكنةً وانكسـاراً، وقد أخـذ كلُّ عضو من البدن حظَّـه من هذا الخضوع حتى أطرافُ الأنامـل ورؤوسُ الأصابع. ونُدب له أن يسـجدَ معه ثيابُه وشـعرُه فلا يكفَّه، وألَّا يكونَ بعضُه محمولاً على بعض، وأن يباشـرَ التُّرابَ بجبهته، ويكونَ رأسُه أسفلَ ما فيه؛ تكميلاً للخضوع والتَّذلُّل لمـن له العِزُّ كلُّه والعظمة كلُّها. وهذا أيسـر اليسـير من حقِّه على عبده، فلو دام كذلـك من حين خُلق إلى أن يموت، لَمَا أدَّى حقَّ ربِّه عليه.

ثمَّ أُمر أن يُسـبِّح ربَّه الأعلى فيذكرَ علوَّه سـبحانه في حال سـفوله هو، وينزهَـه عن مثـل هذه الحـال، وأنَّ مَـنْ هو فوقَ كلِّ شـيء وعـالٍ على كلِّ شـيء، يُنزَّه عن السُّـفول بكلِّ معنى؛ بل هـو الأعلى بكلِّ معنـىً من معاني العلـو. ولمَّـا كان هذا غايـة ذلِّ العبـد وخضوعِـه وانكسـارِه: كان أقربَ ما يكون الرَّبُّ منه في هذه الحال؛ فأُمِرَ أن يجتهد في الدُّعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلَق: ١٩]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**وأمَّا السُّجود: فأكثروا فيه من الدُّعاء؛ فَقَمِنٌ أن يُستجابَ لكم**».

ولمَّا كان أشـرفُ أذكار الصَّلاة القرآن: شُرع في أشرف أحوال الإنسان وهي هيئـة القيـام، ولمَّـا كان أفضـلُ أركانِهـا الفعليَّةِ السُّـجود: شُـرع فيها بوصف التَّكرار.

وشـرع له بين هذين الخضوعين، أن يجلس جِلْسَـةَ العبيد، ويسـألَ ربَّه

أن يغفرَ له ويرحمَه ويرزقَه ويهديَه ويعافيَه، وهذه الدَّعوات تجمع له خيرَ دنياه وآخرتِه.

ثمَّ شُرع له تكرارُ هذه الرَّكعةِ مرَّةً بعد مرَّة، كما شُرع تكرارُ الأذكارِ والدَّعواتِ مرَّةً بعد مرَّة؛ ليستعدَّ بالأول لتكميلِ ما بعده، ويَجْبُرَ بما بعده ما قبله؛ وليَشْبَعَ القلبُ من هذا الغذاء، وليأخذَ زادَه ونصيبَه من هذا الدَّواء، ليقاومَ ما يَعرِضُ له من الأدواء.

ثمَّ لمَّا أكمل صلاته: شُرع له أن يقعد قِعْدةَ العبدِ الذَّليلِ المسكينِ لسيِّده، ويُثنيَ عليه بأفضلِ التَّحيَّات، ويُسلِّمَ على من جاء بهذا الحظِّ الجزيل ومَنْ نالته الأمة على يديه، ثمَّ يُسلِّمَ على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبوديَّة، ثمَّ يتشهّدَ شهادةَ الحقِّ، ثمَّ يعودَ فيُصلِّيَ على من علَّم الأمَّةَ هذا الخيرَ ودلَّهم عليه، ثمَّ شُرع له أن يسأل حوائجَه ويدعوَ بما أحبَّ ما دام بين يدي ربِّه مقبلاً عليه. فإذا قضى ذلك أُذِن له في الخروج منها بالتَّسليم على المشاركين له في الصَّلاة.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وتفهَّموا دائماً المقصودَ من الصَّلاة، وما شُرع فيها من إحضار القلوب واستحضارِ معاني ومقاصدِ القراءةِ والأذكارِ والحركاتِ فيها.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

الخطبة الثانية

الحمد لله الحكيم العليم.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، إلٰهُ الأوَّلين والآخرين.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، إمامُ الغُرِّ المحجَّلين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

وتأمَّلوا كم في الطَّهارة مِنْ حِكْمَةٍ ومنفعةٍ للقلب والبدن، وتفريحٍ للقلب، وتنشيطٍ للجوارح، وتخفيفٍ لما ألقاه عزُّ النَّفس من دَرَنِ المخالفات؛ فهي منظِّفة للقلب والرُّوح والبدن.

وفي غسل الجنابة من زيادة النُّعومة والإخلاف على البدن نظيرُ ما تحلل منه بالجنابة ما هو من أنفع الأمور.

وتأمَّلوا كونَ الوضوء في الأطراف الَّتي هي مَحَلُّ الكسب والعمل، فجُعل في الوجه الذي فيه السَّمعُ والبصرُ والكلامُ والشَّمُّ والذَّوق، وهذه الأربعة هي أبواب المعاصي والذُّنوبِ كلِّها، فمنها يدخل إليها، ثم جُعل في اليدين ـ وهما طرفاه وجناحاه اللَّذان بهما يبطش ويأخذ

ويعطي ـ، ثمَّ في الرِّجلين اللَّتين بهما يمشي ويسعى، ولمَّا كان غَسْل الرَّأس ممَّا فيه أعظمَ حرجٍ ومشقَّةٍ: جَعل مكانَه المسح، وجَعل ذلك مُخرِجاً للخطايا من هذه المواضع، حتى يخرج مع قطر الماء من شَعْره وبَشَره، وفي صحيح مسلم: عن عثمانَ بنِ عفَّان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ توضَّأ فَأَحْسَنَ الوُضوء؛ خرجت خطاياه حتَّى تخرجَ من تحت أظفاره**» فهذا من أجلِّ حِكَمِ الوضوء وفوائده، وهو سِيما هذه الأمَّةِ وعلامتُهم في وجوهِهم وأطرافِهم يومَ القيامة بين الأمم.

ولمَّا كانت الشَّهوة تجري في جميع البدن ـ حتَّى إنّ تحت كلِّ شعرة شهوة ـ: سرى غُسْل الجنابة إلى حيث سَرَتْ الشَّهوة، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ تحت كلِّ شعرة جنابة**»؛ فأُمِرَ أن يُوصَل الماء إلى أصل كلّ شعرة، فيُبرِّدَ حرارةَ الشَّهوة، فتسكنَ النَّفس، وتطمئنَّ إلى ذكر الله وتلاوة كلامه والوقوف بين يديه. ولو لم يكن فيه من المصلحة والحكمة، إلَّا أنَّ المتوضِّأَ يُطَهِّر يديه بالماء وقلبَه بالتَّوبة؛ ليستعد للدُّخول على ربِّه ومناجاتِه والوقوفِ بين يديه طاهرَ البدنِ والثَّوبِ والقلب.

ثمَّ لمَّا كان العبدُ خارجَ الصَّلاة مهمِلاً جوارحَه قد أسأمها في مراتع الشَّهوات والحظوظ ـ لمَّا كان هذا طبعه وذاتُه ـ: أُمِرَ أن يجدِّد هذا الرُّكوع إليه والإقبالَ عليه وقتاً بعد وقت؛ لئلَّا يطولَ عليه الأمد فينسى ربَّه، وينقطعَ عنه بالكلِّيَّة، وكانت الصَّلاة من أعظمِ نعم الله عليه، وأفضلِ هداياه التي ساقها إليه؛ فاحمدوه تعالى على ذلك ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: ٥٦][(١)].

إنَّ أحسن الحديث كتاب الله...

(١) شفاء العليل ص ٢٢٦.

الصِّراطُ المستقيم
والحاجة الماسَّة إلى سؤاله

الحمد لله المحمودِ على ما قدَّره وقضاه، وأستعينه ٱستعانةَ من يعلم أنَّه لا ربَّ له غيرُه ولا إلٰه له سواه، وأستهديه سبيل الَّذين أنعم عليهم ممَّنِ ٱختاره لقبول الحقِّ وٱرتضاه، وٱستغفره من الذُّنوب الَّتي تحول بين القلب وَهُداه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةً أشهدُ بها مع الشَّاهدين، وأتحمَّلها عن الجاحدين، وأدَّخرها عند الله عُدَّةً ليوم الدِّين.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه المصطفى، ونبيُّه المرتضى، ورسولُه الصَّادق الَّذي لا ينطق عن الهوى، القائلُ: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنَّصارى ضالُّون**» صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد:

فسنتناول في هذه الخطبة تفسيرَ ثلاثِ آيات، هي قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفَاتِحَة: ٦ ـ ٧].

عباد الله:

لمَّا كانت الهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُها أشرفَ المواهب، وحاجةُ العباد إليها أعظمَ من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّرابِ والهواء، والكساءِ والدَّواء: أمرنا الله؛ بل فرض علينا أن نسأله إيَّاها في أفضل أحوالنا ـ وهي «الصَّلاة» ـ مرَّاتٍ متعدِّدةٍ في اليوم واللَّيلة، قائلين: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: هو الطَّريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. والهداية إليه: هي البيان والدِّلالة، ثمَّ التَّوفيقُ والإلهام.

وبعبارة أبسط: هي تعريف ما لم نعلمْه من الحقِّ تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامُنا له، وجَعْلُنا مريدين لاتِّباعه ظاهراً وباطناً، ثم خَلْقُ القدرةِ لنا على القيام بموجب الهدى ـ بالقولِ والعملِ والعزم ـ، ثمَّ إدامةُ ذلك لنا وتثبيتُنا عليه إلى الوفاة؛ فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلوم. وما لا نريد فعلَه تهاوناً وكسلاً، مثلُ ما نريده أو أكثرُ منه أو دونَه. وما لا نقدر عليه ممَّا نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمرٌ يفوت الحصرَ، ونحن محتاجون إلى الهداية التَّامَّة. فمن كَمَلت له هذه الأمور، كان سؤالُ الهداية له سؤالَ التَّثبيت والدَّوام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ نبَّه سبحانه على الرَّفيق في هذا الطَّريق، أنَّهم الَّذين أنعم عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين؛ ليزول عن الطَّالب للهداية وسلوكِ الطَّريق وحشةُ تفرُّده عن أهل زمانه وبني جنسه، فلا يكترثُ بمخالفة النَّاكبين عنه، فإنَّهم الأقلُّون قَدْراً، وإن كانوا الأكثرَ عدداً.

وتخصيصه لأهل الصِّراط المستقيمِ بالنِّعمة، يدلُّ على أنَّ النِّعمةَ التَّامَّةَ

المطلقـةَ هي الموجِبـةُ للفلاح الدَّائم ـ وهي نعمة الإسـلام والسُّـنَّة ـ وهي لأهل الإيمان.

وأمَّـا مطلـق النِّعمـة؛ فيكـون للمؤمـن والكافـر ـ كنعمـة الصِّحَّـة، والغنى، وبسـطِ الجاه، وكثرةِ المـال والولد، والزَّوجةِ الحسـنة، وأمثالِ ذلك ـ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهذه النِّعمة لمَّا كانتِ اسـتدراجاً للكافر، ومآلها إلى العذاب والشَّقاء، فكأنها لم تكن نعمةً، وإنَّما كانت بليَّة، كما سمَّاها الله في كتابه كذلك، فقال جلَّ وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

فالمُنعَمُ عليهم: هم من عرف الحقَّ واتَّبعه.

و﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هـم من عرفـه واتَّبع هواه. قـال الله تعالى في حقِّ اليهود: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البَقَـرَة: ٩٠] أي: بغضـب بعد غضب، بسـبب تكـرر كفرِهم وإفسـادِهم وقتلِهـم الأنبيـاء، وكفرِهم بالمسـيح وبمحمَّدٍ ﷺ، ومعاداتِهم لرسـل الله، إلى غير ذلك من الأعمال الَّتـي كلُّ عمـلٍ منها يقتضـي غضباً علـى حـدة، فتعطيلُهم مـا عطَّلوه من شـرائعِ التَّوراة وتحريفُهـم وتبديلُهم يسـتدعي غضباً، وتكذيبُهـم الأنبياءَ يسـتدعي غضبـاً آخـر، وقتلُهـم إيَّاهـم يسـتدعي غضبـاً آخـر، وتكذيبُهم المسـيحَ وطلبُهـم قتلَـه ورميُهـم أُمَّـه بالبهتـان العظيـم يسـتدعي غضباً، وتكذيبهـم النَّبـيَّ ﷺ يسـتدعي غضبـاً، ومحاربتُهم لـه ولأَتْباعـه يقتضي غضبـاً، وصدُّهم من أراد الدُّخـول في دينه عنه يقتضي غضبـاً؛ فهم الأمَّة الغضبيَّة ـ أعاذنا الله من غضبه ـ.

فهي الأمَّة الَّتي باءت بالغضب المتضاعِف المتكرِّر، وكانوا أحقَّ بهذا الوصف من النَّصارى.

وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المَائدة: ٦٠] فهذا غضبٌ مشفوع باللَّعنة والمسخ، وهو أشدُّ ما يكون من الغضب.

و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: هم النَّصارى، وقد وُصفوا بالضَّلال المتنوِّع في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: ٧٧] فوصفهم بثلاث صفاتٍ، أحدِها: أنَّهم قد ضَلُّوا من قَبْلِهم. والثَّاني: أنَّهم أَضَلُّوا أَتْباعَهم. والثَّالث: أنَّهم ضلُّوا عن سواء السَّبيل.

فأسلاف النَّصارى الَّذين نُهي هؤلاء عن اتِّباعهم، اجتمعت لهم الأنواع الثَّلاثة:

ضلَّوْا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه، وزعموا أنَّ إلٰهَهُم بشرٌ يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قُتل وصُلب وصُفِع؛ فهذا ضلالٌ في نفس المقصود، حيث لم يظفروا به،

وضلُّوا عن السَّبيل الموصلة إليه؛ فلا اهتدَوْا إلى المطلوب، ولا إلى الطَّريق الموصلة إليه.

ودَعَوْا أَتْباعَهم إلى ذلك؛ فضلُّوا عن الحقِّ، وعن طريقه، وأضلُّوا كثيراً، فكانوا أَدْخَلَ في الضَّلال من اليهود؛ فوُصِفوا بأخصِّ الوصفين.

فالشَّقاء والكفر: ينشأ من عدم معرفة الحقِّ تارة، ومن عدم إرادته والعمل به أخرى، فكفر اليهود: نشأ من عدم إرادة الحقِّ والعملِ به وإيثارِه

غيرَه بعد معرفته؛ فلم يكن ضلالاً محضاً. وكُفْرُ النَّصارى: نشأ من جهلهم بالحقِّ وضلالهم فيه، فإذا بُيِّن لهم وآثروا الباطل عليه؛ أشبهوا الأمَّة الغضبيَّة، وبقوا مغضوباً عليهم ضالِّين(١).

عباد الله:

أمَّا الَّذين أثنى الله عليهم في القرآن: فهم الذين كانوا متمسِّكين بالتَّوراة والإنجيل قبل النَّسخ والتَّبديل، هم المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الآيات الثلاث [آل عِمرَان: ١١٣ ـ ١١٥].

وليس المرادُ بهم المتمسِّكَ باليهوديَّة والنَّصرانيَّة بعد بعث النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ هؤلاء قد شَهِد لهم بالكفر وأوجَبَ لهم النَّار، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٧٠]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٥]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ

---

(١) وكان بعض السَّلف يقولون: «من فسد من علمائنا؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا؛ ففيه شَبَهٌ من النَّصارى».
وهذا كما قالوا: «فإن من من فسد من العلماء؛ فاستعمل أخلاق اليهود من تحريفِ الكَلِم عن مواضعه، وكتمانِ ما أنزل الله ـ إذا فيه فواتُ غرضه ـ، وحَسَدِ مَنْ آتاه الله من فضله، وطلبِ قتلِه وقتلِ الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنّة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود ـ من الكبر، واللي، والكتمان، والتحيل على محارم الله، وتلبيس الحق بالباطل ـ؛ فهذا شبهه باليهود ظاهر.
وأما من فسد من العبَّاد؛ فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسولهُ ﷺ، وغلا في الشُّيوخ فأنزلهم منزلة الرُّبوبيَّة، وجاوز ذلك إلى نوعٍ من الحلول والاتحاد؛ فَشَبَهُه بالنَّصارى ظاهر».
(بدائع جـ ٢/ ٣٠).

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمران: ٦٤]؛ فهؤلاء من المغضوب عليهم والضَّالِّين.

فتفهَّموا ـ عباد الله ـ معنى الصِّراطِ المستقيم: أنَّه الدِّين القويم، واسألوه في كلِّ وقتٍ الهدايةَ إليه؛ فإنَّ العبد محتاج إلى معرفة الحقِّ الذي يُرضي اللهَ في كلِّ حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى مَنْ يُلهِمُه قَصْدَ الحقِّ فيجعلُ إرادتَه في قلبه، ثمَّ إلى من يُقدِّرُه على فعله، وأن يصرفَ عنه موانعَ الهداية؛ فيخرجَ عن طريق المغضوب عليهم الَّذين عدلوا عنه على عَمْدٍ وعلم، والضَّالِّين الَّذين عدلوا عنه عن جهلٍ وضلال.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: ٦٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي بعث محمَّداً ﷺ بالدِّين القويم، وأمرنا أن نسأله كلَّ يوم في صلاتنا أن يهديَنا الصِّراط المستقيم.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، والله ذو الفضل العظيم، ويُضِلُّ من يشاء بعد أن هداهم هدايةَ البيان فلم يهتدوا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التّوبَة: ١١٥].

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، إمامُ المنعَم عليهم، والقائلُ: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنَّصارى ضالُّون**»، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والَّذين ٱتَّبعوهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: عباد الله:

ٱشتملت فاتحةُ الكتاب التي فُرض علينا أن نقرأها في صلاتنا: على حمدِ الله وتمجيدِه، والثَّناءِ عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمةِ لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد ـ وهو يومُ الدِّين ـ، وعلى إرشاد العباد إلى سؤال ربِّهم والتَّضرُّعِ إليه والتَّبرِّي من حولِهم وقوَّتِهم، وإلى إخلاصِ العبادةِ له وحده، وتنزيهِه عن أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم

إيَّـاه الهدايةَ إلـى الصِّراط المسـتقيم ـ وهو الدِّيـن القويـم ـ، وتثبيتِهم عليه حتى يفضيَ بهم ذلك إلى جَواز الصِّراط الحسـيَّة يومَ القيامة، المفضي بهم إلى جنَّـات النَّعيم ـ في جوار النَّبيِّـن والصِّدِّيقين والشُّـهداء والصَّالحين ـ. واْشـتملت علـى التَّرغيـب في الأعمـال الصَّالحـة؛ ليكونـوا مع أهلهـا يومَ القيامة، والتَّحذيرِ من مسـالك الباطل؛ لئلَّا يُحشروا مع سالكيها يوم القيامة ـ وهم المغضوب عليهم والضَّالُّون ـ.

روى البخـاريُّ ومسـلمٌ والنّسـائيُّ: عن أبي سـعيد الخـدريِّ ﵁ قال: «قلنا: يا رسـول الله! هل نـرى ربَّنا يـوم القيامة؟ قال رسـول الله ﷺ: **نعم، فهل تضارُّون في رؤية الشَّـمس بالظَّهيرة صَحْواً ليس معها سـحاب؟! وهل تضـارُّون في رؤيـة القمر ليلـة البدر صحواً ليـس فيها سـحاب؟!** قالوا: لا، يا رسـول الله! قـال: **فما تضـارُّون في رؤيـة الله تعالى يـومَ القيامـة؛ إلَّا كما تضارُّون في رؤية أحدهما.**

إذا كان يـوم القيامة أذَّن مؤذِّن تَتْبعُ كلُّ أمَّة مـا كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غيرَ الله ـ من الأصنام والأنصاب ـ إلَّا يتسـاقطون في النَّار، حتَّى إذا لم يبق إلَّا مـن كان يعبد الله ـ من بَـرٍّ وفاجر وغُبَّرِ أهل الكتـاب[١] ـ، فيُدعى اليهود فيُقال لهـم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد عزيـراً ـ اْبنَ الله ـ فيُقال: كذبتم، ما اْتَّخذ الله من صاحبـةٍ ولا ولد، فماذا تَبْغُون؟ قالوا: عَطِشْـنا يا ربَّنا فاسـقنا، فيُشـار إليهم أَلَا تَرِدُون، فيحشـرون إلى جهنَّم كأنَّها سـرابٌ يَحْطِمُ بعضُها بعضاً، فيتساقطونَ في النَّار.

ثمَّ يُدعى النَّصارى فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد المسيحَ ـ اْبـنَ الله ـ فيُقـال لهـم: كذبتـم، مـا اْتَّخذ الله مـن صاحبـةٍ ولا ولـد، فماذا

---

(١) أي: بقايا أهل الكتاب.

تَبْغُون؟ فيقولون: عَطِشنا يا ربَّنا فاسقنا، فيُشار إليهم أَلَا تَرِدُون، فيُحشرون إلى جهنَّم كأنَّها سرابٌ يَحْطِم بعضُها بعضاً، فيتساقطون في النَّار...» وذكر الحديث(١).

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٣]

إنَّ أحسن...

---

(١) مفتاح دار السَّعادة جـ ٢/ ٢١. البدائع جـ ٢/ ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤. اجتماع الجيوش ص ٧٧. وتفسير الفاتحة لابن كثير.

الـدُّعاء
وأسبابُ إجابته، أو ردِّه

الحمد لله الذي شـرع الدُّعاء ووعد بالإجابة، العالمِ بكلِّ شيء، الرَّحيمِ بذاتـه ـ فـلا يحتـاجُ إلـى وسـائطَ يُعرِّفونـه بأحـوال خلقـه، أو يسـتعطفونه بالشَّفاعة ـ، القادرِ على كلِّ شيء، الغنيِّ عن كلِّ شيء؛ فالخضوعُ لغيره من أقبحِ الجهل وأسفهِ السَّفاهة.

وأشـهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شـريك له، مَنْ دعا غيـره؛ فقد ظنَّ بربِّه ظنَّ السَّوْء في ربوبيَّته وأسمائه وصفاته.

وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبده ورسـوله، كان إذا حَزَبَـهُ أَمْرٌ فَـزِع إلى الصَّلاة وأَكْثَرَ مـن دعائه وتضرّعاتـه؛ فحضي بالنَّصـر هو وأصحابُـه، وهكذا كانت طريقةُ عبادِ الله وأنبيائِه.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد:

فقـد قـال الله تبـارك وتعالـى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

عباد الله:

من فضل الله وكرمه: أنَّه نـدب عباده إلى دعائه، وتكفَّـل لهم بالإجابة؛ روى أبو يعلى: عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ قال: «**أربـعُ خصالٍ، واحـدةٌ منهنَّ لي، وواحـدةٌ لك، وواحـدةٌ بيني وبينك، وواحدةٌ فيما بينك وبين عبادي، فأمَّا الَّتي لي: لا تشـركْ بي شـيئاً، وأمَّا الَّتي لـك عليَّ: فمـا عملت من خيـر جزيتك بـه. وأمَّا الَّتـي بيني وبينـك: فمنك الدُّعاء وعليَّ الإجابـة. وأمَّا الَّتي بينـك وبين عبادي: فـارضَ لهم ما ترضى لنفسك**».

وعلاوةً على ذلك أنه يغضب إذا لم يُسـأل، أخرجَ الإمامُ أحمدُ بسنده: عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**من لَّـم يسـألِ الله؛ يغضبْ عليه**».

ولأهميَّة الدُّعاء حصـر النَّبيُّ ﷺ العبادة في الدُّعـاء، روى الإمام أحمد بسـنده: عن النُّعمانِ بنِ بشـيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ الدُّعاء هو العبـادة**، وقـرأ هـذه الآيـةَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]»، وفـي الحديث الآخر: «**الدعاء: مخُّ العبادة**» يعني: خالصَ العبادةِ ولُبَّها.

وكلُّ ما فيـه ثناءٌ على الرَّبِّ وتنزيـهٌ له، أو طلبُ حوائـجِ الدُّنيا والآخرةِ منه تعالى؛ فهو دعاء(١).

والإلحاح فـي الدُّعاء ممَّـا يحبُّه الله، ذكـر الأوزاعي عـن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ الملحِّين في الدُّعاء**».

---

(١) الأول: يسمَّى دعاءُ عبادة. والثَّاني: يسمَّى دعاءُ مسألة. والأول: أفضل النَّوعين.

وإذا دعـا العبـد فلا يسـتعجلْ ولا يسـتبطئ الإجابـة ـ لا يتعبْ ويسـأمْ ويَدَع الدُّعاء ـ، فيكـونُ بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرسـاً فجعل يتعاهدُه ويسقيه، فلمَّا ٱستبطـأ كمالَه وإدراكَه تركه وأهمله. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثمٍ، أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجل**، قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: **يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أَرَ يُستجابُ لي؛ فيتحسَّر عند ذلك ويَدَعُ الدُّعاء**».

وإذا ٱجتمع مـع الدُّعاء حضـورُ القلـب، وحَضْرُ همِّه علـى المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة السِّـتَّة ـ وهـي: الثُّلث الأخير من اللَّيل، أو عند الأذان، أو بين الأذان والإقامة، أو أدبـارُ الصَّلوات المكتوبات، أو عند صعـود الإمام يومَ الجمعـة على المنبر حتـى تُقضى الصَّلاة، أو آخرُ سـاعة بعـد العصر من ذلك اليـوم ـ، وصادف خشـوعاً في القلب، وٱنكسـاراً بين يدي الرَّبِّ وذلّاً وتضرُّعاً ورِقَّة، وٱسـتقبل الدَّاعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبـدأ بحمد الله والثَّناء عليه، ثم ثنَّى بالصَّلاة على النَّبيِّ، ثـمَّ قدَّم بين يـدي حاجته التَّوبةَ والاسـتغفار، ثـم دخل علـى الله وألَحَّ عليه في الدُّعاء، وتوسَّـل إليه بأسـمائه وصفاتـه وتوحيده، وقدَّم بيـن يدي دعائه صدقة؛ فإنَّ هـذا الدُّعاء لا يكاد يُرَدُّ أبداً، لا سـيَّما إذا صـادف الأدعية التي أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّها مَظِنَّةُ الإجابة، أو أنَّها متضمِّنةٌ للاسم الأعظم.

ومنها: ما في السُّـنن وصحيـح أبي حاتم: عن أنـس رَضِيَ الله عَنْهُ: **أنَّه كان مع** رسـول الله ﷺ جالسـاً ورجل يُصلِّي، ثمَّ عاد فقال: اللَّهمَّ إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمـد لا إلٰـه إلَّا أنت، أنـت المنَّـان، بديـعُ السَّـموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لقد دعا اللهَ باسـمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»، وفي الصَّحيحين: من حديـث ٱبـن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أنَّ رسـول الله ﷺ كـان يقول عند الكـرب:

«لا إلٰـه إلَّا اللهُ العظيـمُ الحليم، لا إلٰـه إلَّا الله ربُّ العـرشِ العظيـم، لا إلٰه إلَّا الله ربُّ السَّـمواتِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريم».

وذكـر ٱبن أبـي الدُّنيا في كتـاب «المجابين فـي الدُّعاء»: عن الحسـن البصـري قـال: «كان رجـلٌ مـن أصحـاب النَّبـيِّ ﷺ مـن الأنصـار يُدعى أبا مَعْقِـل، وكان تاجراً يتَّجر بمـالٍ له ولغيره يَضْرِبُ بـه في الآفاق ـ وكان ناسـكاً ورعاً ـ فخـرج مرَّة فلقيـه لِصٌّ مقنَّـع في السِّـلاح، فقال لـه: ضَعْ ما معـك فإنِّي قاتلك، قـال: فما تريد إلَّا دمي؟ فشـأنك والمـال، قال: أمَّا المال فلي، ولسـت أريـد إلا دمَك، قـال: أمَّا إذا أبيت فذرنـي أصلي أربع ركعـات، قال: صلِّ ما بـدا لك، فتوضَّأ ثـم صلَّى أربع ركعـات، فكان من دعائه في آخر سـجدة أن قال: يا ودود! يا ذا العـرشِ المجيد! يا فعالاً لما تريد! أسـألك بعزِّك الذي لا يُرام، وبملكك الذي لا يُضام، وبنورك الَّذي ملأ أركانَ عرشِـك أن تكفيَني شـرَّ هذا اللِّـصِّ، يا مغيث أغثنـي! يا مغيث أغثني! فإذا هو بفـارسٍ أقبل بيده حربـةٌ قد وضعها بين أذني فرسـه، فلما بصر به اللِّـصُّ أقبل نحوه فطعنه فقتلـه، ثم أقبل إليه فقـال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمِّي، فقـد أغاثني الله بك اليوم؟! فقـال: أنا مَلَكٌ من أهل السَّماء الرَّابعة، دعوتَ بدعائك فسمِعْتُ لأبواب السَّماء قَعْقَعةً، ثمَّ دعوتَ بدعائك الثَّاني فسـمِعتُ لأهل السَّـماء ضجَّة، ثمَّ دعوتَ بدعائك الثَّالث، فقيل لي: دعوةُ مكروب، فسـألتُ اللهَ أن يولِّيَني قتله» قال الحسـن: «فمن توضَّأ وصلَّى أربعَ ركعات، ودعا بهذا الدّعاء؛ ٱستجيب له، مكروباً كان أو غيرَ مكروب».

وروى محمَّدُ بنُ إسحاقَ: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمَّـا أراد الله حبس يونـسَ فـي بطن الحـوت، أوحـى الله إلـى الحوت أن خُذْه، ولا تخـدِشْ له لحماً، ولا تكسـرْ له عظمـاً، فلمَّا انتهى به إلى أسـفل**

البحر، سمع يونُس حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟! فأوحى الله إليه ـ وهو في بطن الحوت ـ: أنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحر، قال: وسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكةُ تسبيحَه، فقالوا: يا ربَّنا! إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة، قال: ذلك عبدي يونُسُ عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحرٍ، قالوا: العبدُ الصَّالحُ الَّذي كان يصعد إليك منه في كلِّ يوم وليلة عملٌ صالح؟! قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك؛ فأمر الحوتَ فقذفه في السَّاحل وهو سقيم».

وروى البيهقيُّ في «الشُّعَب»: «أنَّ دانيال عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلقي في جُبٍّ[1]، وأُلقِيت عليه السِّباع، فجعلت السِّباع تلحسُه وتُبَصْبِصُ إليه، فأتاه مَلَكٌ فقال: يا دانيال! فقال: من أنت؟ قال: أنا رسولُ ربِّك أرسلني إليك بطعام، فقال دانيال: الحمد لله الذي لا يَنسى مَنْ ذَكَره».

وقِصْةُ حُمُرِ الوحش المشهورة ـ الَّتي ذكرها غيرُ واحد ـ أنَّها انتهت إلى الماء لتَرِدَه، فوجدت النَّاسَ حولَه فتأخَّرت عنه، فلمَّا جَهَدها العطش، رفعت رأسَها إلى السَّماء وجأرت إلى الله سبحانه بصوت واحد، فأرسل الله سبحانه عليها السَّماءَ بالمطر، حتَّى شربت وانصرفت.

والدُّعاء عدوُّ البلاء، يدافعُه ويعالجُه ويمنعُ نزولَه، ويرفعُه أو يخفِّفُه إذا نزل. وهو سلاح المؤمن، روى الحاكم في مستدركه: من حديث عليِّ بنِ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعاء سلاح المؤمن، وعماد الدِّين، ونور السَّموات والأرض**»، ورُوي من حديث عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر، والدُّعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، وإنَّ البلاء ليَنْزِل فيلقاه الدُّعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة**»، وعن

(١) ألقاه بُخْتَنصَّرُ على أَسَدَين ضرَّاهما ـ أي: أغراهما ـ. فيما رواه ابنُ أبي الدُّنيا.

ثوبانَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قـال: «**لا يَرُدُّ القدَرَ إلا الدُّعـاء، ولا يزيد في العمر إلَّا البرّ، وإن الرَّجل ليُحْرمُ الرِّزقَ بالذَّنب يصيبُه**».

ومـن أُلْهِمَ الدُّعـاء؛ فقد أُريـد به الاسـتجابة، كان عمر رضي الله عنه يقـول: «إنِّي لا أحمل همَّ الإجابـة، ولكن أحمل همَّ الدُّعـاء، فإذا أُلهِمْتُ الدُّعـاء؛ فإنَّ الإجابة معه»[(١)].

فالدُّعـاء من أقـوى الأسـباب في دفـع المكـروه وحصـول المحبوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إمَّا لضعفه في نفسـه بأن يكون دعاءً لا يحبُّه الله لِمَا فيه من العدوان، وإمَّا لضعف القلب وعدمِ إقباله على الله وقتَ الدُّعاء، وإمَّـا لحصـول المانع من الإجابـة ـ من أكلِ الحـرام، ورَيْـنِ الذُّنوب على القلوب، واْستيلاءِ الغفلة واللَّهو وغلبتِها عليها ـ، كما في مستدرك الحاكم: مـن حديث أبـي هريـرة رضي الله عنه عن النَّبـيِّ ﷺ قـال: «**ادعـو الله وأنتـم موقنون بالإجابة، واْعلموا أنَّ اللهَ لا يقبل الدُّعاء مـن قلب غافلٍ لاهٍ**»، وفي الحديث الآخـر: «**يمـدُّ يديه إلى السَّـماء، يـا ربِّ! يـا ربِّ! ومطعمه حرام، ومشـربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأَنَّى يُستجاب لذلك؟!**».

أمَّـا الَّذين يدعـون الله ويدعـون معـه غيـرَه، أو يذبحون لله ولغيـره، أو ينـذرون لله ولغيـره، أو يرجـون أو يخافـون معه غيـره؛ فقد جـاؤوا بأعظمِ أسبابِ منعِ إجابةِ الدُّعاءِ، وهو الشِّركُ الأكبر، والذَّنبُ الذي لا يُغْفر.

وأمَّا الَّذين منعهم الاستكبار عن عبادة الله ودعائِه وطاعتِه؛ فسيجازَوْنَ بالجزاء الفظيـع، وهو دخولُ جهنَّـمَ صاغرين ذليلين حقيريـن، روى الإمام أحمـد بسـنده: عـن النَّبيِّ ﷺ قـال: «**يُحشـر المتكبِّـرون يـوم القيامـة أمثالَ الـذَّرِّ في صور النَّاس، يعلوهم كلُّ شـيء مـن الصَّغار، حتى يدخلوا سـجناً**

(١) واْنظر: «كتاب العظمة» لأبي الشَّيخ.

في جهنَّم ـ يقال له: بُولس ـ تعلوهم نارُ الأنيار، يُسْقَوْن من طينة الخبال ـ عصارةِ أهل النَّار ـ» أعاذنا الله وإيَّاكم منها بمنِّهِ وكرمه.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وعليكم بالتَّقرُّبِ إلى ربِّ العالمين وطلبِ مرضاته، بعبادته ودعائِه والبعدِ عن الإشراك به.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله مجيبِ دعوةِ المضطرِّ إذا دعاه، جابرِ المنكسر إذا لاذ بحماه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، أَعْبُدُه ولا أَعْبُدُ معه سواه.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، بصَّر الخلقَ بأسباب السَّعادة والنَّجاة، وحذَّرهم من كلِّ ما يُسخط الرَّبَّ ويأباه.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه الَّذين صدَّقوا الله في القول والعمل، فكم منهم من دعا فاستجاب الله دعاه؟!، وما ٱدَّخر لهم في الآخرةِ من النَّعيم لا يعلمُ عددَه وقدرَه إلَّا الله.

أمَّا بعد:

فيا ـ عباد الله ـ أُوصيكم وإيَّايَ بتقوى الله، والأخذِ بأسبابِ إجابةِ الدُّعاء، والحذرِ من موجبات ردِّه، قرأ بعض الصَّحابة سورةَ الفاتحة على لديغٍ فشُفي في الحال، وما ذاك إلَّا لاكتمال أسباب إجابةِ الدُّعاء.

مرَّ إبراهيمُ بنُ أدهمَ ـ الزَّاهدُ المعروف ـ بسوق البصرة فاجتمع عليه النَّاس، فقالوا له: «يا أبا إسحاق! ما لنا ندعو فلا يُستجابُ لنا؟! قال: لأن قلوبَكم ماتت بعشرة أشياء: عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقَّه، وٱدَّعيتم أنَّكم تحبُّون رسول الله وتركتم سنَّته، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به، وأكلتم نعمة الله ولم

تؤدُّوا شكرها، وقلتم: إنَّ الشَّـيطان عدوُّكم ووافقتموه، وقلتم: إنَّ النَّار حقٌّ ولم تهرُبـوا منها، وقلتم: إنَّ الجنَّـة حقٌّ ولم تعملوا لهـا، وقلتم: إنَّ الموت حقٌّ ولم تسـتعِدُّوا له، وإذا انتبهتم من النُّوم اشـتغلتم بعيوب النَّاس ونسيتم عيوبكم، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم». ا هـ[١].

اللَّهمَّ اجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، أولئك الَّذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب.

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) من (الجواب الكافي).

التَّفكُّر في القرآن وثمارُه

الحمد لله الذي أنزل الكتابَ المبين؛ لنقرأه تدبُّراً، ونتأمَّلَه تبصُّراً، ونسعدَ به تذكُّراً، ونحمِلَه على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ به ونجتهدَ على إقامة أوامره ونواهيه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له إلٰهُ المرسلين، وقيُّومُ السَّموات والأرضين.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، المبعوثُ رحمةً للعالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

التَّفكُّر والتَّدبُّر هو المبدأُ والمفتاحُ للخيرات كلِّها، وهو من أفضلِ أعمال القلب وأنفعِها له، وهو يدعو إلى العمل، حتى قيل: «تفكُّرُ ساعةٍ؛ خيرٌ من عبادة سَنَة»، وقال عمر بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّفكُّر في نعم الله من أفضل العبادة»، وقال عبد الله بنُ المباركِ لبعض أصحابه ـ وقد رآه متفكِّراً ـ: «أين بلغت؟ قال: الصِّراط». وقال بِشْرٌ: «لو فكَّر النَّاس في عظمة الله ما عَصَوْه»، وقال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفكُّر في الخير يدعو إلى العمل به».

فالفِكْرُ هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليَقَظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرَّغبة والحرص إلى الزُّهد والقناعة، ومن سجن الدُّنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحَبِه، ومن مرض الشَّهوة والإخلاد إلى هذه الدَّار، إلى شفاء الإنابة إلى الله والتَّجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصَّمم والبُكْم، إلى نعمة البصر والسَّمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشُّبهات إلى برد اليقين وثلج الصُّدور. فأصل كلِّ طاعة إنَّما هو الفكر والتَّدبُّر.

والتَّدبُّر هو النَّظر في إدبار الأمور وعواقبها، والفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمرَ منهما معرفةً ثالثة، مثال ذلك: إذا أحضر قلبُه العاجلةَ وعيشَها ونعيمَها، وما يقترنُ به من الآفات وانقطاعِه وزوالِه، ثمَّ أحضر في قلبه الآخرةَ ونعيمَها ولذَّتَه ودوامَه وفَضْلَهُ على نعيم الدُّنيا، وجزم بهذين العِلْمين أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أنَّ الآخرةَ ونعيمَها الفاضلَ الدَّائم، أولى عند كلِّ عاقل بإيثاره من العاجلةِ المنقطعةِ المنغِّصَة.

وكذلك إذا فكَّر في عواقب الأمور وتجاوَزَ فكرُه مبادئَها؛ وضَعَها مواضعَها وعَلِم مراتبَها، فإذا ورد عليه واردُ الذَّنب والشَّهوة، فتجاوز فكرُه لذَّته وفَرَحَ النَّفسِ به، إلى سوءِ عاقبتِه وما يترتَّب عليه من الألم والحزن الَّذي لا يقاوِمُ تلك اللَّذةَ والفرحة، من فكَّر في ذلك فلا يكاد يُقدِم عليه.

وكذلك إذا ورد على قلبه واردُ الرَّاحةِ والدَّعةِ والكسلِ والتَّقاعد عن مشَقة الطَّاعات وتعبِها، حتى عَبَرَ بفكره إلى ما يترتب عليها من اللَّذَّات والخيرات والأفراح التي تَغْمُر تلك الآلام، استقبلها بنشاط وقوة وعزيمة.

وكذلك إذا فكَّر في منتهى ما يستعبده من الجاه والمال والصُّور، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره، استحيا من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك.

وكذلك إذا فكَّر في آخر الأطعمة المفتَخَرَة الَّتي تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام، وما يصير إليه أمرها عند خروجها، ٱرتفعت همَّته عن الاعتناء بها، وجَعْلِها معبودَ قلبِه الذي إليه يتوجَّه وله يرضى، ويغضب ويسعى، ويكدح ويوالي ويعادي، كما جاء في المسند: عن الضَّحَّاك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «**يا ضحَّاكُ! ما طعامك؟** قال: يا رسول الله! اللَّحم واللَّبن، قال: **ثمَّ يصير إلى ماذا؟** قال: إلى ما قد علمت، قال: **فإنَّ الله تبارك وتعالى ضرب ما يخرج من ٱبن آدم مثلاً للدُّنيا**»، وفي المسند أيضاً: عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مطعمَ ٱبنِ آدم جُعِل مثلاً للدُّنيا ـ وإنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ ـ فانظروا إلى ما يصير**»، «وإنْ قَزَّحَهُ» أي: وضع فيه الأبازير.

وأَنفعُ التَّفكُّرِ ـ يا عباد الله ـ: التَّفكُّر في القرآن، فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءةِ القرآن بالتَّفكُّرِ والتَّدبُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرين، وأحوالِ العاملين، ومقاماتِ العارفين، وهو الَّذي يُورثُ المحبَّة والشَّوق، والخوفَ والرَّجا، والإنابةَ والتَّوكُّلَ والرِّضا والتَّفويض، والشُّكرَ والصَّبر، وسائرَ الأحوالِ الَّتي بها حياةُ القلب وكمالُه.

وكذلك يزجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة الَّتي بها فسادُ القلبِ وهلاكُه، فلو علم النَّاسِ ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ـ ولو مئة مرَّة، ولو ليلة ـ؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم؛ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذَوْقِ حلاوةِ القرآن، وهذه كانت عادة السَّلف، وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّه قام بآيةٍ يردِّدها حتَّى الصَّباح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المَائدة: ١١٨]».

وقال ابـن مسـعود رضي الله عنه: «لا تَهُـذُّوا القـرآن هذَّ الشِّـعْر، ولا تنثـروه نثر الدَّقَل، وقِفُـوا عند عجائبـه، وحرّكوا به القلـوب، لا يَكُن هَـمُّ أحدكم آخرَ السّـورة»، وقـال الحسـن رحمه الله: «أُنـزِل القـرآنُ لِيُعمل بـه؛ فاتَّخـذوا تلاوتَه عمـلاً». فالقرآن يدعـو إلى أن يتفكَّرَ الإنسـانُ فـي صفات نفسـه؛ ليتميَّزَ له المحبوب لربِّه منها مـن المكروه له، ويدعو إلى التَّفكُّـر في صفاتِ معبودِه وأفعالِه وأحكامِه.

عباد الله:

كمـا أنَّ الفكـر هـو أصـلُ كلِّ طاعـة، فكذلـك هـو أصـلُ كلِّ معصية، فالمعصيـة إنَّمـا تحدث مـن جانـب الفِكْرة، فـإنَّ الشَّـيطان يصـادف أرضَ القلـب خاليةً فارغة، فيبـذُرُ فيها حبَّ الأفـكارِ الرَّديّة، فيتولَّـدُ منه الإراداتُ والعزوم، فيتولَّدُ منها العمل. فإذا صادف أرضَ القلبِ مشغولةً ببَذر الأفكار النَّافعة فيما خُلق لـه، وفيما أُمر به، وفيما هُيِّئ له، وأُعِدَّ له من النَّعيم المقيم أو العذاب الأليم، لم يجد لبذره موضعاً.

والكِبْر ـ يا عباد الله ـ من أسـباب منع التَّفكُّر، قال الحسن رحمه الله في قول الله عز وجل: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعـراف: ١٤٦] قال: «أمنعهم التَّفكُّر فيها».

فاتَّقوا الله ـ عبـاد الله ـ وعليكـم بالتَّدبُّر لكتـاب الله والعملِ بـه؛ لتنالوا محبَّةَ اللهِ والقربَ منه والفوزَ برضاه يوم لقاه.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيِّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشرَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، كلمةً قامت بها السَّموات، وفطر اللهُ عليها جميعَ المخلوقات.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وخيرتُه من خلقه، أنزل عليه كتابَه المبين، الفارقَ بين الهدى والضَّلالِ والشَّكِّ واليقين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ليس شيء أنفعَ للقلب في معاشه ومعاده، وأقرَبَ إلى نجاته، مِنْ تدبُّرِ القرآنِ وإطالةِ التَّأمُّلِ وجمعِ الفكر فيه على معاني آياته، فإنَّها تُطْلعُ العبدَ على معالمِ الخير والشَّرِّ بحذافيرهما، وعلى طرقِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثمراتِهما، ومآلِ أهلهما، وتُتِلُّ في يده مفاتيحَ كنوزِ السَّعادة والعلومِ النَّافعة، وتُثبِّت قواعدَ الإيمانِ في قلبه، وتُشَيِّدُ بنيانَه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُريه صورةَ الدُّنيا والآخرةِ والجنَّةِ والنَّارِ في قلبه، وتُحضِرُه بين الأمم، وتُريه أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبصِّرُه مواقعَ العبر، وتُشهدُه عدلَ الله وفضلَه، وتُعرِّفه ذاتَ ربِّه

تعالى وأسـماءَه وصفاتِه، وما يحبُّه وما يبغضه، وصراطَه الموصلَ إليه، وما لسالكه بعد الوصولِ والقدومِ عليه، وقواطعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعرِّفه النَّفسَ وصفاتِها، ومفسداتِ الأعمالِ ومصحّحاتِها، وتُعرِّفه طريقَ أهلِ الجنَّة وأهلِ النَّار، وأعمالَهم وأحوالَهم وسيماهم، ومراتبَ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوة، وأقسامَ الخلق واجتماعَهم فيما يجتمعون فيه، وتفرُّقَهم فيما يتفرَّقون فيه(١).

فعليكم ـ عبـاد الله ـ بتدبُّـر كتابه، فإنَّه أحسـن الحديث، وعليكم بسُـنَّة نبيِّكم وهديه، فإنَّ خير الهدي...

(١) مفتاح دار السَّعادة ص١٨٧، ١٩٧، ١٩٣، ١٨٤. مدارج ١/ ٤٥١.

وساوس الشَّيطان، وشروره
وما يُعتَصم به منها

الحمد لله القائلِ في كتابه المبين: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أحمده سبحانه مَنْ أقبل عليه تلقَّاه، ومَنْ أعرض عنه لم يَكِلْه إلى عدوِّه إذا تاب ممَّا أتاه، ومن أصرَّ على العصيان وصالح عدوَّه وقاطع سيِّده ولَّاه ما تولَّاه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، جلَّ عن الأشباه والأمثال، وتقدَّس عن الأضدادِ والأندادِ والشُّركاءِ والأشكال.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، القائلُ: «**ما منكم من أحدٍ، إلَّا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنّ**، قالوا: وأنت يا رسول الله؟! قال: **وأنا إلَّا أنَّ الله أعانني عليه فأسْلَمَ**»(١).

صلَّى الله عليه وعلى آله وجميعِ أصحابه، العارفين بمكائدِ أعدائهم، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ

(١) المسند ١/ ٥٦١؛ «أَسْلَمَ»: استسلم؛ فصار لا يأمره بشر.

لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

عباد الله:

قد جعل الله لكلِّ إنسان عدوّاً لَدُوداً، له دخول ونفوذ إلى قلب ٱبن آدم وصدرِه، ذلك هو «الشَّيطان» ـ أعاذنا الله منه ـ يجري من ٱبن آدم مجرى الدَّم، قد وُكِّل بالعبد من حينِ ولادته لا يفارقه إلى الممات، يوسوس إليه، ويخطُر الذَّنب بباله، فيصوِّره له ويمنِّيه ويُشهِّيه؛ فيصير «**شهوة**».

ويزيّنها له ويحسّنها ويخيّلها له في خيال تميل نفسه إليه؛ فيصير «**إرادة**». ثـمَّ لا يزال يُمثِّل ويُخيِّل ويُمنّي ويُشهِّي، ويُنسيه علمُه بضررها، ويطوي عنه سوءَ عاقبتِها، فلا يرى إلَّا صورةَ المعصيةِ والْتِذاذَه بها؛ فتصير الإرادة «**عزيمة**».

فيشتدّ الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنودَ في الطَّلب، فيبعث الشَّيطانُ معهم مداداً لهم وعوناً، فإن فَتَرُوا حرَّكهم، وإن وَنَوْا أزعجهم، فلا تزال الشَّياطين بالعبد تقوده إلى الذَّنب، وتنظِّمُ شملَ الاجتماع عليه بألطفِ حيلة، وأتمِّ مكيدة، قال عروة بن رويم: «إنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربَّه أن يريَه موضعَ الشَّيطانِ من ٱبن آدم، فَجُلِّي له، فإذا رأسُه رأسُ الحيَّة، واضعٌ رأسَه على ثمرة القلب، فإذا ذكر العبدُ ربَّه خنس، وإذا لم يذكره وضع رأسَه على ثمرة قلبه، فمنَّاه وحدَّثه»، وفي الصَّحيحين من حديث الزُّهري: عن صفيَّةَ بنتِ حيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدَّثتُه، ثمَّ قمتُ فانقلبتُ فقام معي ليقلِبَني ـ وكان مسكنها في دار أسامةَ بنِ زيد ـ، فمرّ رجلان من الأنصار، فلمَّا رأيا النَّبيَّ ﷺ أسرعا، فقال النَّبيُّ ﷺ: **على رِسْلِكُما، إنَّها صفيَّةُ بنتُ حيي**، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال:

إنَّ الشَّـيطان يجري من الإنسـان مجـرى الدَّم، وإنِّـي خشـيت أن يقذفَ في قلوبكما سـوءاً ـ أو قال: **شـرَّاً** ـ »، وفي الصَّحيح أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا نُودي بالصَّلاة، أدبر الشَّيطان وله ضُراط، فإذا قضى أقبل، فـإذا ثُوِّب بها أدبـر، فإذا قضى أقبـل، حتَّى يخطُرَ بين الإنسـان وقلبِه، فيقول: اُذْكُرْ كذا، اُذْكُرْ كذا، حتى لا يدريَ أثلاثاً صلَّى أم أربعاً؟ فإذا لم يَدْرِ أثلاثاً صلَّى أم أربعاً؟ سجد سجدتي السَّهو**».

ولذلك أمرنا الله بالاستعاذة من شرِّه ـ والوسوسةُ أعظم شرِّه ـ.

ومن شرِّه: أنَّه لِصٌّ سـارقٌ لأموال النَّاس، فكلُّ طعامٍ أو شرابٍ لم يُذكرِ اسـمُ الله عليه؛ فله فيه حظٌّ بالسَّرقة والخطف. وكذلك يبيت في البيت الذي لم يذكر فيه اسـمُ الله؛ فيأكلُ طعامَ الإنسِ بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير إذنهم، ذكر ابن أبي الدُّنيا عن بعض السـلف: «أنَّ شـيطاناً لقي شيطاناً فقال: ما لي أراك نحيـلاً؟ فقال: إنِّي مع رجـل إنْ أكل ذكر اسـم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسـم الله فلا أشـرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدَّار، فقال الآخـر: لكنِّي مع رجل إن أكل لم يسـم الله فآكلُ أنا وهو جميعـاً، وإن شـرب لم يسـمِّ الله فأشـربُ معه، وإن دخـل دارَه لم يسـمِّ الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسمِّ الله فأجامعها».

ومن شـرِّه: أنَّه يـدلّ على عـورات النَّـاس؛ فيأمـر العبد بالمعصيـة، ثمَّ يوسوس إلى النَّاس بما فعل، فيصبح النَّاسُ يتحدَّثون به.

ومن شـرِّه: أنَّه إذا نـام العبد عقد على رأسـه عُقـداً تمنعه مـن اليقظة، كما في صحيح البخاري: عن سعيد بن المسـيَّب، عن أبي هريـرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يعقد الشَّيطان على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عقد، يضرب علـى كلِّ عقدة مكانها، عليك ليلٌ طويلٌ فارقُد، فَإِنِ اسـتيقظ**

فذكر الله ٱنْحَلَّتْ عقدة، فإن توضَّأ ٱنْحَلَّتْ عقدة، فإن صلَّى ٱنْحَلَّتْ عقدُه كلُّها، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس، وإلَّا أصبح خبيثَ النَّفس كسلان».

ومن شرِّه: أنَّه يبول في أُذُنِ العبد حتَّى ينام إلى الصَّباح، كما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه ذُكِرَ عنده رجل نام ليلةً حتَّى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشَّيطان في أُذنيه** ـ أو قال: **في أذنه** ـ» رواه البخاري.

ومن شرِّه: أنَّه قعد لابن آدم بطرق الخير كلِّها، فما مِنْ طريقٍ مِنْ طرق الخير إلَّا والشَّيطانُ مرصَدٌ عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه؛ ثبَّطه فيه وعوّقه، وشوّش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه؛ قيَّض له ما يُبْطل أثرَه ويردُّه على حافرته.

ويكفي من شرِّه: أنَّه أقسم بالله ليقعدنَّ لبني آدم صراطَه المستقيم، وليآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شرُّه: أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدمَ من الجنَّة، ثمَّ لم يكفه ذلك حتى ٱستقطع من أولاده شرطَه إلى النَّار ـ من كلِّ ألفٍ تسع مئة وتسعة وتسعين ـ، ثمَّ لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدَّعوةُ له وأن يُعبد من دون الله، فهو ساعٍ بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطالِ دعوته، وإقامة دعوة الشِّرك، ومحوِ التَّوحيد وأعلامِه من الأرض.

ويكفي من شرِّه: أنَّه تصدَّى لإبراهيمَ ـ خليلِ الرّحمٰن ـ حتى رماه قومُه بالمنجنيق في النَّار؛ فردَّ الله كيده عليه، وجعل النَّار على خليله برداً وسلاماً. وتصدَّى للمسيح عليه السلام حتى أراد اليهودُ قتلَه وصلبه؛ فردَّ اللهُ كيدَه، وصان المسيحَ ورفعه إليه. وتصدَّى لزكريّا ويحيى حتى قُتلا. وٱستثار

فرعونَ حتى زيَّن له الفسـادَ العظيمَ في الأرض، ودعـوى أنَّه ربُّهم الأعلى. وتصدَّى للنَّبيِّ ﷺ وظاهَرَ الكفَّار على قتله بجهـده، والله تعالى يكبته ويردّه خاسئاً. وتفلَّت على النَّبيِّ ﷺ بشـهابٍ من نارٍ يريد أن يرميَه به في الصَّلاة؛ فجعـل النَّبـيُّ ﷺ يقول: «**ألعنُـك بلعنـةِ الله**»، وأعـان اليهودَ على سـحرهم للنَّبيِّ ﷺ.

ولا يمكن حصرُ أجناس شـرِّه فضلاً عن آحادها، إذ كلُّ شـرٍّ في العالم فهو السَّـبب فيه، ولكن ينحصر شره في سـتَّة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال واحداً منها أو أكثر:

الشَّر الأوَّل: شرّ «الكفرِ والشِّرك»، ومعاداةِ اللهِ ورسولِه، فإذا ظفر بذلك من ٱبـن آدم: بَرَدَ أنينُه وٱسـتراح من تعبـه معه، وصيَّره من جنده وعسكرِه، وٱستنابه على أمثاله وأشكاله؛ فصار من دعاةِ إبليسَ ونوَّابِه.

فإن يئس منه من ذلك ـ وكان ممَّن سـبق له الإسـلام في بطن أمِّه ـ: نقله إلى المرتبـة الثَّانيـة من الشَّـرِّ، وهـي: «البدعة» وهي أحـبّ إليه من الفسـوق والمعاصي؛ لأنَّ ضررها في نفس الدِّين، وهو ضرر متعدٍّ، وهي ذنب لا يُتاب منه، وهي باب الكفر والشِّـرك، فإذا نال منه البدعةَ وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعاته.

فإذا أعجـزه من هذه المرتبة ـ وكان العبدُ ممَّن سـبقت له من الله موهبةُ السُّـنَّة، ومعاداةُ أهلِ البـدع والضَّلال ـ: نقله إلـى المرتبة الثَّالثة من الشَّـرِّ، وهي: «الكبائر» على ٱختلاف أنواعها، فهو أشدّ حرصاً على أن يوقعَه فيها، لا سـيَّما إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه، ثمّ يُشيع من ذنوبه ومعاصيه في النَّاس، ويسـتنيب منهم من يشـيعها ويذيعها تديناً وتقرّبـاً بزعمه إلى الله تعالـى، وهـو نائـبُ إبليـسَ ولا يشـعر، فــ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النُّور: ١٩]، **فكيف إذا تولوا هم إشاعتَها وإذاعتَها؟!**

فـإن عجز الشَّـيطان عن هذه المرتبـة: نقله إلـى المرتبـة الرَّابعة، وهي: «الصَّغائـر» الَّتـي إذا اْجتمعت فربَّما أهلكـت صاحبَها، كما قـال النَّبيُّ ﷺ: **«إيَّاكم ومُحَقَّراتِ الذُّنوب، فـإن مَثَلَ ذلك، مِثْلُ قومٍ نزلوا بفلاةٍ من الأرض، فجـاء كلٌّ واحـدٍ منهـم بعـودِ حطـب، حتَّـى أوقـدُوا نـاراً عظيمـة فطبخوا واْشـتووا»** ـ أو كمـا قـال ﷺ ـ، ولا يـزال يُسـهِّل عليـه أمـر الصَّغائر حتى يستهينَ بها، فيكونَ صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحْسَنَ حالاً منه.

فإن أعجـزه العبد عن هـذه المرتبة: نقله إلـى المرتبة الخامسـة، وهي: «إشغاله بالمباحات» الَّتي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فَوْتُ الثَّواب الذي ضاع باشتغاله بها.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ـ وكان حافظاً لوقته شـحيحاً به، يعلم مقدارَ أنفاسِه واْنقطاعَها، وما يقابلها من النَّعيم والعذاب ـ: نقله إلى المرتبة السَّادسة، وهو: «أن يشغلَه بالعمل المفضول عمَّا هو أفضلُ منه»؛ ليزيحَ عنه الفضيلة، ويُفوِّتَه ثوابَ العملِ الفاضل.

فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب السِّتِّ وأُعين عليه: سَلَّط عليه حزبه من الإنس والجنِّ بأنواع الأذى والتَّكفير، والتَّضليلِ والتَّبديع، والتَّحذيرِ منه وقصدِ إخمالـه وإطفائه، ليشـوِّش عليه قلبَه، ويُشْـغَلَ بحربه فكـرَه، وليمنع النَّاسَ من الانتفـاع به، فحينئذٍ يلبـس المؤمنُ لَأْمَةَ الحـربِ ولا يضعُها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِرَ أو أُصيب.

عباد الله:

هذه إحـدى صفـات الشَّـيطان الثَّـلاث: «الوسـواس»، وقـد وصفه الله

بالخنَّاس الَّـذي إذا ذكر العبـدُ اللهَ انْخَنَس وتجمَّع وانقبـض، وإذا غفل عن ذكر الله الْتَقَمَ القلبَ وألقى إليه الوساوسَ التي هي مبادئُ الشَّرِّ كلِّه.

والذي يُوسـوس نوعـان: إنس، وجـن، فالجني: يُوسـوس فـي صدور الإنس، والإنسـي أيضاً: يُوسـوس إلى الإنس؛ فلذلك أَمرنا الله بالاسـتعاذة من شرِّ نوعي شياطين الإنس والجنّ.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، واحذروا من عدوِّ الله وعدوِّكم.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ـ٦].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله أمر بشكره وذكره، أحمده سبحانه لا أُحصي ثناءً عليه؛ بل هو تعالى كما أثنى على نفسه.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، مَـنْ توكَّل عليه واْسـتعاذ به كان في حفظه وحرزه.

وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبـده ورسـوله، أعانه علـى قرينه حتى استسـلم له وذلك معجزةٌ وعبرة.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه وحزبه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

اْتَّقوا الله تعالى، فتقواه هـي وصيَّته للأوَّلين والآخرين، واْعرفوا عدوَّكم مـن صديقكم فـي هـذه الـدَّار، واْعلمـوا أنَّ الله تبـارك وتعالى الَّـذي اْبتلى الإنسانَ بهذا العدو الَّذي لا يُفارقه طرفةَ عين، ولا يدع أمراً يكيده به ويَقْدِر على إيصاله إليه إلَّا أوصله إليه، ويقول لأعوانـه من الجنِّ والإنس: دونَكم عدوَّكم وعدوَّ أبيكم لا يفوتُكم، لا يكونُ حظُّه الجنَّـةَ وحظُّكم النَّار.

إن الله قـد أيَّد عبـدَه المؤمـنَ بجندٍ مـن الملائكـة لا يفارقونـه، يثبتونه

ويأمرونه بالخير ويحضونـه عليه، ويَعِدُونَـه بكرامة الله، ويقولـون: إنَّما هو صبرُ ساعةٍ وقد ٱسترحت راحـةَ الأبد. وأمـده مع ذلـك بالعقل وزيـراً له ومدبِّـراً، وبالمعرفة مشـيرةً عليـه وناصحةً لـه، وبالإيمـان مثبِّتاً لـه وناصراً ومؤيِّـداً، وباليقين كاشـفاً له عـن حقيقة الأمر حتَّـى كأنَّه يُعاين مـا وعد الله تعالـى أوليـاءَه وحزبَـه على جهـاد أعدائـه، وأقـام ملائكتَـه وحملةَ عرشِـه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيَه اللهُ السَّيِّئاتِ ويدخلَه الجنَّات، وهو تعالى ناصـرٌ حزبَه وجنـدَه، وليس هذا التَّسـليطُ من بغـض الرَّبِّ لعبـده المؤمن، وإنَّما هو لرفع درجاته، وٱمتحانِ صدقه في إيمانه ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمَّد: ٣١].

عباد الله:

وقد جعل الله بفضله ومنِّه للعبد ما يعتصم به من الشَّـيطان، ويستدفع به منه، وذلك عشرة أسباب:

(١) الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم.

(٢) قراءة سورتي الفلق والنَّاس.

(٣) قراءة آيةِ الكرسي.

(٤) قراءة سورةِ البقرة.

(٥) قراءة خاتمةِ سورةِ البقرة.

(٦) قـراءة أوَّلِ سـورة ﴿حمٓ﴾ الـمؤمـن ـ إلـى قولـه ـ: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ـ٣].

(٧) قول: «لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو

على كلِّ شيء قدير» مئة مرة.

(٨) كثرة ذكرِ الله، فذكر الله يَقْمَعُه ويؤلمُه ويؤذيه.

(٩) الوضوء والصَّلاة.

(١٠) إمساك فضولِ النَّظر، وفضولِ الكلام، وفضولِ الطَّعام، وفضولِ مخالطةِ النَّاس[(١)(٢)].

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) وانظر مضارَّ هذه الفضولِ في بدائع الفوائد جـ ٢/ ٢٦٧.
(٢) الإغاثة والمدارج.

غـضُّ الـبـصــر

فوائده، ومضارُّ إطلاقه

الحمـد لله الذي جعل القلوب أوعيـة، فخيرُها أوعاها للخير والرَّشـاد، وشـرُّها أوعاها للشَّـرِّ والفسـاد، وسـلَّط عليها الهوى وامتحنهـا بمخالفته؛ لتنال بمخالفته جنَّةَ المأوى، وحرَّم عليها أشياء لكن عوَّضها خيراً ممَّا حرَّم عليها.

وأشـهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شـريك لـه، القائلُ في كتابـه الكريم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠].

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، القائلُ: «**غضُّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**».

صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

جعل الله سـبحانه العينَ مرآةَ القلب، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غضَّ القلبُ شـهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصرَه أطلـق القلبُ شـهوته، روى البخاري في صحيحـه: «أنَّ النَّبـيَّ ﷺ أردف الفضـلَ بـنَ العبَّاسِ رضي الله عنهما يـومَ النَّحـر خلفَه ـ وكان الفَضْـلُ قد ناهـز البلوغ ـ فَطفِـق الفَضْلُ ينظر إلى امـرأةٍ وضيئةٍ من

خَثْعَـم كانت تسـأل النَّبيَّ ﷺ عن أمور دينهـا، فأخذ النَّبـيُّ ﷺ بذقن الفضْلِ فحوَّل وجهه عن النَّظر إليها».

وفي روايـة للتِّرمذي: أنَّ العبَّـاس قال للرَّسـولِ ﷺ: لَوَيْـتَ عنقَ ٱبنِ عمِّك، قال عليه الصَّلاة والسَّـلام: «**رأيت شـابّاً وشـابّة، فلـم آمن عليهما الفتنـة**»، وهـذا مَنْـعٌ وإنـكار بالفعل، وتعليـل لهذا الإنـكار بخـوف الفتنة عليهما لو أقرَّهما عليه.

وفي الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قـال: «**إنَّ الله ﷻ كتب على ٱبن آدم حظَّه من الزِّنا، أدرك ذلك لا محالـة؛ فالعين تزني وزناها النَّظر، واللِّسـان يزني وزناه النُّطـق، والرِّجل تزنـي وزناها الخُطى، واليـد تزني وزناهـا البطش، والقلب يَهوَى ويتمنَّى، والفَرْج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه**».

فبدأ بزنا العين؛ لأنه أصل زنا اليـدِ والرِّجلِ والقلبِ والفرج، ونبَّه على زنا اللِّسـان بالكلام على زنـا الفم بالقُبَـل، وجعل الفرج مصدِّقـاً لذلك إن حقَّـق الفعـل، أو مكذِّباً لـه إن لَّم يحقِّقْه. وهـذا الحديث من أبين الأشـياء علـى أنَّ العين تعصي بالنَّظر، وأنَّ ذلك زناها؛ ففيـه ردٌّ على من أباح النَّظر مطلقاً.

وثبت عنه ﷺ أنَّه قـال: «**يا علي! لا تُتْبعِ النَّظرةَ النَّظـرة؛ فإنَّ لك الأولى وليسـت لك الثَّانية**»، فالنَّظر يؤثِّر فـي القلب، فأمره بمداواتـه بصرف النَّظر لا بتكراره، وقـال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «سـألت رسـول الله ﷺ عن نظرة الفُجأة، فأمرني أن أصرف بصري» رواه مسـلم وأبو داود والتِّرمذي. ونظرة الفُجَـأة: هي النَّظرة الأولـى التي تقع بغير قصـد من النَّاظر، فما لـم يتعمَّدْه القلب لا يُعاقبُ عليه، فـإذا نظر الثَّانية تعمُّداً أَثِمَ، فأمره عند نظرة الفُجَأة أن يصرفَ بصرَه ولا يستديمَ النَّظر.

ففتنة النَّظر أصلُ كلِّ فتنة، كما ثبت في الصَّحيحين: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال، من النِّساء**»، وفي صحيح مسلم: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء**»، وفي مسندِ محمَّدِ بنِ إسحاقَ: عن عليٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمَّتي: النِّساءُ والخمر**»(١).

وفي المسند عنه ﷺ أنَّه قال: «**النَّظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس**»(٢)، فمن غضَّ بصرَه عن محاسنِ امرأةٍ أو أمردَ لله؛ أورث اللهُ قلبَه حلاوةَ العبادةِ إلى يوم القيامة، هذا معنى الحديث، وقال: «**إيَّاكم والجلوسَ على الطُّرقات**، قالوا: يا رسول الله! مجالسنا ما لنا بدٌّ منها، قال: **فإن كنتم لا بدَّ فاعلين؛ فأعطوا الطَّريق حقَّه**، قالوا: وما حقُّه؟ قال: **غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السَّلام**» فإنَّ النَّظرة تولد الخطرة، ثمَّ تولد الخطرةُ فكرة، ثمَّ تولد الفكرةُ شهوة، ثمَّ تولد الشَّهوةُ إرادة، ثمَّ تَقْوَى فتصيرُ عزيمةً جازمة، فيقع الفعلُ ولا بدَّ ما لم يمنع منه مانع.

ومن آفاته: أنَّه يورث الحسراتِ والزَّفراتِ والحَرَقات، فيرى الإنسانُ ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه.

وفي غضِّ البصر عدَّة فوائد، أحدُها: تخليصُ القلبِ من ألم الحسرة؛ فإنَّ من أطلق نَظَرَه دامت حسرته.

---

(١) ومن أراد بسط ما يتعلق بفتنة النِّساء التي خافها ﷺ على أمَّته في هذه الأحاديث، فليراجع جـ ١٠/١٨ـ٤٥، ٢٢٤ـ٢٦١ من فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وذكر فيه ما يتعلق بالسُّفور والاختلاط، وآلات اللَّهو، إلخ...

(٢) فإن السَّهم شأنُه أن يسري في القلب، فيعملَ فيه عملَ السُّم الذي يُسقاه المسموم، فإنْ بادر واستفرغه، وإلا قتله ولا بُدّ.

ومن فوائد غضِّ البصر: أنَّه يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر على عينيه ووجهه وجوارحه.

ومنها: أنَّه يورث قوةَ القلبِ وشجاعتَه وثباتَه، وفي الأثر: «**الذي يخالف هواه، يَفْرَقُ الشَّيطانُ من ظلِّه**».

ومنها: أنَّه يورث القلب سروراً وفرحةً وانشراحاً أعظمَ من اللَّذَّة والسُّرور الحاصل بالنَّظر، وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته ومخالفةِ نفسِه هواه.

ومنها: أنَّ غضَّ البصر يسدُّ عنه باباً من أبواب جهنَّم؛ فإنَّ النَّظرَ بابُ الشَّهوةِ الحاملةِ على مواقعة الفعل، وتحريمُ الرَّبِّ تعالى وشرعُه حجابٌ مانعٌ من الوصول، فمن هتك الحجاب ضَرِيَ على المحظور ولم تقف نفسه عند غاية؛ لأن لذَّتها في الشَّيء الجديد.

ومنها: أنَّه يُقَوِّي عقلَه ويزيدُه ويثبتُه، فإنَّ إطلاقَ البصر وإرسالَه لا يحصل إلَّا مِنْ خِفَّة العقل وطَيْشِه وعدمِ ملاحظته للعواقب.

ومنها: أنَّه يُخَلِّص القلبَ من سُكْرِ الشَّهوة ورقدةِ الغفلة، فإنَّ إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلةِ عن الله والدَّارِ الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وسَكْرانُ العشق قلَّما يفيق إلَّا وهو في عسكر الأموات، ولا سيَّما النَّظر إلى «المُرْدَان الحِسَان» فإنَّ إطلاق النَّظر إليهم هو السُّمُّ النَّاقع والدَّاءُ العضال، رُوي عن الشَّعبي مرسلاً قال: «قدم وفد عبد القيس على النَّبيِّ ﷺ وفيهم غلامٌ ظاهرُ الوَضَاءة، فأجلسه النَّبيُّ ﷺ وراء ظهره، وقال: كانت خطيئةُ مَنْ مضى من النَّظر»، وقال سعيد بن المسيَّب: إذا رأيتم الرَّجل يُحِدُّ النَّظر إلى الغلام الأمرد؛ فاتَّهموه».

والله سبحانه إنَّما حكى هذا المرضَ ـ مرضَ العشق ـ عن طائفتين من النَّاس، وهم «قوم النِّساء»، و«قوم لوط»، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسفَ وما رَاوَدَتْه وكادته به، وأخبر عن الحال الَّتي صار إليها يوسف بصبره وعفَّته وتقواه(١).

والطَّائفة الثَّانية الذين حكى الله عنهم العشق هم اللُّوطيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٧ ـ ٦٩].

فكلٌّ من الطَّائفتين عَشِقَ ما حُرِّم عليه من الصُّور، ولم يُبَالِ بما في عشقه من الضَّرر.

ودواء هذا الدَّاءِ العُضال ـ العشقِ المحرَّم ـ: أن يأتي من العبادات الظَّاهرةِ والباطنةِ بما يُشْغِل قلبَه عن دوام الفكر فيه، ويُكثرُ التَّضرُّعَ واللُّجوءَ إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، قال الله تعالى في قصة عشقها: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤] فصرف عنه السُّوءَ من العشق والفحشاءَ من الفعل بإخلاصه؛ فإنَّ القلب إذا أخلص عمله لله لم يتمكَّن منه عشقُ الصُّور، فعشقُ الصُّور إنَّما يتمكَّن من القلب الفارغ.

(١) قلت: وكثيرٌ من القرَّاء ـ فيما يُسْمَع ـ يكرِّرون قراءة قصَّة هذا العشق من ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٢٣] أكثر ممَّا يقرؤون أيَّ سورة أو آياتٍ أخرى. وقد قال بعض السلف: «ما حصلناه في سورة يوسف، أنفقناه في سورة النُّور».
كما أن بعضاً يركِّز على آيات الرَّجاء دون آيات الخوف.
وبعضٌ يركِّز على آيات في الثَّناء على بلد أو قوم، ويترك خلاف ذلك؛ إلى آخر ما يختارونه.
ولما قالوا للنَّبيِّ ﷺ: شِبْتَ، قال: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشَّمس كورت»، وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يقرأ آخرَ سورةِ هودٍ وهذه السُّور.

وفـي الصَّحيح: مـن حديث جابر رضي الله عنه: «أنَّـه ﷺ رأى ٱمـرأة فأتى زينبَ فقضى حاجتـه منها، وقـال: «**إنّ المـرأة تُقبل في صورة شـيطان، فـإذا رأى أحدكـم ٱمرأة فأعجبته؛ فليأت أهلَه، فإنَّ ذلك يَرُدّ ما في نفسـه**»، وفي سـنن ٱبن ماجه مرفوعاً: «**لم يُر للمتحابِّين مثلُ النِّكاح**».

فأوصيكم وإيَّاي ـ عباد الله ـ بمداومة الإعراض عمَّا لا يحلُّ من النَّظر، فقد علمتم ما في ذلك من الضَّرر، كما عرفتم ما في غضِّ البصر من الفوائد دنيا وأخرى، وٱسألوا مقلِّبَ القلوبِ والأبصارِ الثَّباتَ على الدِّين، وتصريفَ القلوبِ إلى طاعة ربِّ العالمين.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي جعل المحبَّة إلى الظَّفر سبيلاً، وصرَّف عليها القلوبَ كما يشاء وصرَّفها أنواعاً وأقساماً بين بريَّته وَفضَّلها تفصيلاً، قسَّمها بين مُحبِّ الرَّحمن ومُحبِّ الأوثان، ومُحبِّ النِّيران ومُحبِّ الصُّلبان، ومُحبِّ الأوطان ومُحبِّ الإخوان، ومُحبِّ النِّسوان ومحبِّ الصِّبيان، ومُحبِّ الأثمان ومُحبِّ الإيمان، ومُحبِّ الألحانِ ومُحبِّ القرآن، وفضَّل أهلَ محبَّتـهِ ومحبَّـةِ كتابه على سائر المحبِّين تفضيلاً، وهو الحكيم صاحبُ الفضل ـ على من شاء ـ والامتنان.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، يخلق ما يشاء ويختار.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أرسله للإيمان منادياً، وإلى الجنَّة داعياً، وبكلِّ معروفٍ آمراً، وعن كلِّ منكرٍ ناهياً.

صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه وكلِّ مَنِ ٱتَّبعه داعياً، وفي مرضاة ربِّه ومحابِّه ساعياً.

عباد الله:

وجاء في تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، قوله ﷺ: «**أكثر ما يُدْخِل النَّاسَ النَّارَ: الفمُ والفرج**» أخرجه التِّرمذي عن أبي هريرة، وفي الصَّحيحين عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دم ٱمرئ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبِ**

الزَّاني، والنَّفسِ بالنَّفس، والتَّاركِ لدينه المفـارِقِ للجماعة» فبدأ ﷺ بالأكثر وقوعاً، ثـمَّ بالَّذي يليه. فالزِّنا أكثر وقوعاً من قتـل النَّفس، وقتلُ النَّفس أكثر وقوعاً من الرِّدَّة ـ نعوذ بالله منها ـ.

ومفسـدة الزِّنا مناقضة لصلاح العالَم، فإنَّ المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكَّست رؤوسَهم بين النَّاس. وإن حملت من الزِّنا فإنْ قَتَلت ولدَها جمعت بين الزِّنا وقتـلِ النَّفس، وإنْ أَبْقتْهُ حملته على الـزَّوج، فأدخلت على أهلها وأهلِه أجنبيّاً ليس منهـم، فورِثَهم وليس منهم، وخلا بهم وٱنتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها.

وأمَّـا زنا الرجـلِ فإنَّه يوجـب ٱختلاطَ الأنسـاب أيضـاً، وإفسـادَ المرأةِ المصونةِ، وتعريضَها للتَّلف والفساد؛ ففي هذه الكبيرةِ خرابُ الدُّنيا والدِّين.

ومن خاصِّيَّتـه: أنه يُوجِب الفقر، ويُقصِّر العمر، ويكسـو صاحبه سـوادَ الوجه، وثوبَ المَقْتِ بين النَّاس.

ومـن خاصِّيَّته أيضـاً: أنَّه يشـتِّت القلب ويمرضـه إن لَّم يُمِتْـه، ويجلب الهـمَّ والحزن والخـوف، ويُباعـد صاحبه من المَلَـكِ ويُقرِّبه من الشَّـيطان؛ ولهذا شُرِع فيه القتلُ على أبشع الوجوه وأفحشِها وأصعبِها.

ولو بَلَـغ الرَّجـلَ أنَّ ٱمرأتَـه أو حُرْمتَه قُتلـت، كان أسـهلَ عليه ما أن يبلغَه أنَّهـا زنت، قال سـعد بن عبـادة رضي الله عنه: لو رأيـتُ رجلاً مـع ٱمرأتي لضربته بالسَّـيف غيرَ مُصْفِح، فبلغ ذلك رسـولَ الله ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سـعد؟! واللهِ لأنا أغيرُ منه، واللهُ أغيرُ منِّي، ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**».

وظهور الزِّنا مـن أمارات خراب العالَم، وهو من أشـراط السَّـاعة، كما

في الصَّحيحين: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: لَأُحدِّثنَّكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النَّبيِّ ﷺ يقول: «**من أشراط السَّاعة: أن يُرفعَ العلم، ويظهرَ الجهل، ويُشربَ الخمر، ويظهرَ الزِّنا، ويقلَّ الرِّجال، وتكثرَ النِّساء، حتَّى يكونَ لخمسين امرأةٍ القيِّمُ الواحد**».

وقد جرت سنَّةُ الله سبحانه في خلقه، أنَّه عند ظهور الزِّنا يغضب الله سبحانه، فلا بدَّ أن يؤثِّر غضبُه في الأرض عقوبة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما ظهر الرِّبا والزِّنا في قرية، إلَّا أَذِن الله بإهلاكها».

وخصَّ سبحانه الزِّنا من بين سائر الحدود بثلاثِ خصائص:

أحدها: القتل فيه بأبشعِ القِتْلات، وحيث خفَّفه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجَلْد، وعلى القَلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثَّاني: أنَّه نهى عباده أن تأخذهم بالزُّناة رأفةٌ في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدِّ عليهم.

الثَّالث: أنَّه سبحانه أمر أن يكون حدُّهما بمَشْهَدٍ من المؤمنين.

وحدُّ الزَّاني المُحْصنِ مشتقٌّ من عقوبة الله لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزِّنا واللِّواط في الفُحش، وفي كلٍّ منهما فساد يناقض حِكمةَ الله في خلقه وأمره؛ فإنَّ في «اللِّواط» من المفاسد ما يَفُوت الحصر والتَّعداد، ولأن يُقتلَ المفعولُ به خيرٌ من أن يُؤتَى، فإنَّه يُفسد فساداً لا يُرجى له معه صلاح أبداً، يذهب خيرُه كلُّه، وتمتصُّ الأرضُ الحياءَ من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك لا من الله ولا من الناس، وتعمل في قلبه وروحه نطفةُ الفاعل ما يعمل السُّمُّ في البدن.

وعقوبته أغلظ من عقوبة الزَّاني؛ لإجماع الصَّحابة على ذلك، ولغلظ

حُرمته وٱنتشـار فسـاده؛ ولأنَّ الله سـبحانه لـم يعاقب أُمَّة ما عاقب اللُّوطيَّة، جمع الله عليهم من أنـواع العقوبات ما لـم يجمعه علـى أمَّة من الأمم ـ من عمى الأبصار، وخسفِ الدِّيار، والقذفِ بالأحجار، ودخولِ النَّار ـ، وجعل ديارَهم وآثارَهم عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للمتَّقين.

وروى التِّرمـذي والحاكم وٱبنُ ماجه: عن جابر بـن عبد الله رضي الله عنهما قال: قـال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخـاف علـى أمَّتي من بعـدي: عملُ قـوم لوطٍ**»، وفي المسـند والسُّـنن: عـن ٱبن عبَّـاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ: «**مـن وجدتُّموه يعمل عملَ قـومِ لوطٍ؛ فاقتلـوا الفاعلَ والمفعولَ به**» وإسناده على شرط البخاري، وحرَّق اللُّوطيَّةَ بالنَّار أربعةٌ من الخلفاء: أبو بكـر الصِّدِّيق، وعليّ بنُ أبـي طالب، وعبـدُ الله بنُ الزُّبير، وهشـام بنُ عبدِ الملك.

كتب خالد بـن الوليـد إلى أبي بكـر الصِّدِّيـق رضي الله عنهما: أنه وجـد في بعض ضواحـي العرب رجـلاً يُنكَح كمـا تُنكَح المـرأة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه ناسـاً من أصحاب رسول الله ﷺ ـ وفيهم عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه ـ فاستشارهم، فقال علي رضي الله عنه: «إنَّ هذا لـم يعمل به أمَّةٌ من الأمم إلَّا أمَّةٌ واحدة، فصنع الله بهم ما علمتم، أرى أن تُحرِقُوه بالنَّار؛ فأحرقوه بالنَّار».

وقـال جماعة مـن الصَّحابة والتَّابعيـن: «يُرجم بالحجـارة حتَّى يموت، أُحْصِن أو لم يُحْصَن».

وقـال بعض العلمـاء: «إذا عـلا الذَّكَـرُ الذَّكَـرَ هربت الملائكـة، وعجَّت الأرض إلى ربِّها، ونزل سـخط الجبَّار جل جلاله عليهم، وغشـيتهم اللَّعنة، وحفَّت بهم الشَّـياطين، وٱسـتأذنت الأرضُ ربَّها أن تخسـف بهم، وثقل العرش على حملته، وكبَّرت الملائكـة، وٱسْـتَعَرَت جهنَّم، فإذا قُبضـت روحُه جُعلت مع

أرواح الزُّنـاة فـي تَنُّورٍ من النَّـار» ـ نعود بالله مـن النَّار، ومن أسـباب الخزي والعار ـ[1].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) روضـة المحبيـن ١٤٣، ١٤٤، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٣، ١٨٥، ٢٢٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٠٦، ١٠٥، ١٠١. الجواب الكافي ص ١٣٣ـ١٣٥.

زهرة الدُّنيا
وانقسام النَّاس بالنِّسبة إليها

الحمد لله الَّذي كتب الآثار والأعمال، وقسَّم المعايش والأموال، خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسـن عملاً، وهو على كلِّ شيء قدير ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التّغابُن: ٢].

وأشـهد ألَّا إلـه إلَّا الله وحده لا شـريك لـه، جلَّ عـن الشَّـبيه والنَّظير، وتعالى عن الشَّريك والظَّهير.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، أعرفُ الخلق بربـه، وأقومُهم بأمره، وأنصحُهـم لخلقه، لم يتركهم حتى أوقفهم على الجـادَّة البيضاء، وحذَّرهم مـن المتاهة في البيـداء، وضـرب لهم الأمثـال، وقسَّـم النَّاس بالنِّسـبة إلى الأموال، وكان مع الفقر أصبرَ الفقراء، ومع الغنى أشكرَ الأغنياء.

صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابِه، أعلمِ النَّاس بسُنَّة نبيِّهم وأتبعِهم لها، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد:

فقـد روى البخاري ومسـلم: عن أبـي سـعيد الخدريِّ رضي الله عنه قـال: «قام رسـول الله ﷺ فخطب النَّاس، فقال: **إنَّ أخوفَ ما أخـاف عليكم: ما يُخْرِج**

الله لكم من بـركات الأرض، قيـل: ما بـركات الأرض؟ قال: **زهـرةُ الدُّنيا**، فقال له رجل: هل يأتي الخيرُ بالشَّرِّ؟ فصمتَ رسولُ الله ﷺ حتى ظننت أنه سينزل عليه، ثمَّ جعل يمسح عن جبينه، قال: **أين السَّائل**؟ قال: أنا، ثمَّ قال: **كيف قلت**؟ قال: يا رسـول الله! أو يأتي الخيرُ بالشَّرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: **إنَّ الخيرَ لا يأتـي إلَّا بالخير، وإنَّ ممَّا يُنْبِتُ الرَّبيعُ مـا يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ**(١)، **أكلت حتى إذا امتلأت خَاصِرتَاهَا، استقبلت عين الشَّمس، فاجْتَرَّتْ وثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثمَّ عادت فأكلت، وإنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَة**(٢)، **من أخذه بحقِّـه ووضعه في حقِّه؛ فنعـم المعونةُ هو، ومَنْ أخـذه بغير حقِّه؛ كان كالَّذي يأكل ولا يشبع**».

عباد الله:

هذا الحديثُ هو الحَكَمُ فيما يختلف فيـه النَّاس من أمر المال، فالنّاس منهم من يمدح المالَ والثَّراءَ ويتمنَّاه، ويسـعى إليه جهـدَه بالطُّرق الحلال. ومنهـم من يتجـاوز ذلك ويطلبـه حتَّـى بالطُّرق الحـرام، ويسـتوعب عمرَه ووقتَه، ويصدُّه عن طاعة مولاه والسَّـعي لرضاه. ومن النَّـاس من يذمُّ الثَّراءَ ولا يهتمُّ بـه ويُزَهِّد فيه. ومن النَّاس من رضي بما قسـم الله لـه ـ من فقرٍ أو غنى ـ وتخوَّف من زهرة الدُّنيا.

فهذا الحديث الشَّـريف، فيه تخـوُّفُ النَّبيِّ ﷺ على أمَّته مـن فتح الدُّنيا عليهم ـ خاف عليهم الافتتان بها ـ وفَسَّـر «بـركاتِ الأرض»: بزهرة الدُّنيا، ومراده: مـا يُفتح على أمَّته منها من مُلْك فارس والـرُّوم وغيرهِم من الكفَّار الذين ورثـت هذه الأمَّةُ ديارَهم وأموالَهـم، وأراضيَهم وزروعَهم وثمارَهم،

---

(١) الخَضِرُ: نوعٌ من البقول ليس من أحرارها وجَيِّدها.

(٢) تأخذ العيون بخضرتها، والقلوب بحلاوتها.

وأنهارَهـم ومعادنَهـم، وغيـرِ ذلك ممَّـا خرج ويخـرج من بـركاتِ الأرض وكنوزِها، وهذا من أعظم معجزات نبيِّنا ﷺ الدَّالةِ على أنَّه رسـول الله حقّاً، فقد وقع مـا أخبر به عليه الصَّلاة والسَّـلام مـن فتح زهرة الدُّنيـا على أمَّته، وشبَّهها بالزَّهرِ في طيب رائحته، وحسنِ منظره، وقلَّةِ بقائه، وأن وراءه ثمراً خيراً منه وأبقى منه.

وقوله: «**إنَّ ممَّـا يُنبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُـلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ**» من أحسـن التَّمثيل المتضمِّن للتَّحذير من الدُّنيا والانهماكِ عليها والمسرَّةِ فيها، وذلك أنَّ الدَّابة يروقها نَبْتُ الرَّبيع فتأكلُه بأعينها، فربَّما هلكت حَبَطاً ـ والحَبَطُ: ٱنتفاخ بطن الدَّابة من الامتلاء ـ. وقوله: «**أو يُلِمُّ**» أي: يقارب القتل، وهو المرض.

وقوله: «**إلَّا آكِلَـةَ الخَضِرِ**» تمثيلٌ بالإبل والبقر الآكلةِ من العشـب بقدر حاجتها، فهي لمَّا أخذت حاجتها من المرعى تركته، وأعرضت عمَّا يضرها من الشَّـرَه من المرعى، وأقبلـت على ما ينفعها من ٱسـتقبال الشَّـمس الَّتي يحصـل لها بحرارتها ٱنضـاجُ ما أكلتـه وإخراجُه. ثمَّ إنَّها ٱسـتفرغت بالبول والثَّلَطِ[(١)] مـا جمعته من المرعى فـي بطنها، فاسـتراحت بإخراجه ولو بقي فيها لقتلها.

وفي رواية لمسـلم فقال: «أخيرٌ هـو؟» وفيها دليل علـى أنَّ المال ليس بخيـرٍ على الإطـلاق؛ بل منه خيـرٌ، ومنه شـرٌّ، فالمال في حـقِّ الأول خير، وفي حقِّ الثاني شرٌّ.

فـأوَّلُ الحديث مَثَلٌ للشَّـرِهِ في جمـع الدُّنيا، الحريصِ علـى تحصيلها، يجمع الدُّنيا من غير حلِّها، ويحبسـها أو يصرفها في غير حقِّها، إمَّا أن يقتلَه ذلك فيموتَ به قلبُه ودينُه ـ إذا مات من غير توبةٍ منه وإصلاحِ حال ـ، وإمَّا

(١) الثَّلَط: أكثر ما يقال: للإبل والبقر. (النهاية).

أن يُقاربَ موتَه ثمَّ يعافى ـ وهو مَنْ أفاق من هذه السَّكرة وتاب قبل موته ـ.

فالمُقْتَصِد من الدُّنيا يأخذ من حلالها ـ وهو قليل بالنِّسبة إلى حرامها ـ قَدْرَ بُلْغَتِه وحاجتِه، ويجتزي من متاعها بأدْوَنِه وأخشنِه، ثمَّ لا يعود إلى الأخذ منها إلَّا إذا نفد ما عنده وخرجت فضلاته، فلا يوجب له هذا الأخذُ ضرراً ولا مرضاً ولا هلاكاً؛ بل يكون ذلك بلاغاً له مدَّة حياته، ويعينه على التَّزوُّد لآخرته، وهذا إشارةٌ إلى مدح من أخذ من حلال الدُّنيا بقدر بُلْغَته وقَنِعَ بذلك، كما قال ﷺ: «**قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام، وكان عيشه كَفَافاً، وقَنِع بذلك**»، وقال ﷺ: «**من كانت الآخرةُ همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شملَه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة، ومن كانت الدُّنيا همَّه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شملَه، ولم يأته من الدُّنيا إلا ما قدِّر له**» رواه التِّرمذي.

ورُوي أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: ابنَ آدم! تفرَّغْ لعبادتي؛ أَمْلأْ صدرَك غنى، وأسدَّ فقرك، وإلَّا تفعل؛ مَلأتُ يدك شغلاً ولم أسدَّ فقرك**»، وقال الحسن رحمه الله: «إنَّ قوماً أكرموا الدُّنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأَهنأُ ما تكون إذا أهنتموها»، وقال المسيح عليه السلام: «لا تتَّخذوا الدُّنيا رَبّاً، فتتَّخذْكم عبيداً، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أنَّ أصل كلِّ خطيئةٍ حبُّ الدُّنيا، ورُبَّ شهوةٍ أورثت أهلَها حُزناً طويلاً، ما سكنت قلبَ عبدٍ في الدُّنيا إلا التَاطَ قلبُه منها بثلاثة: شغلٍ لا ينفكُّ عَنَاؤُه، وفقرٍ لا يُدْرَكُ غناؤه، وأَمَلٌ لا يُدْرَكُ منتهاه. الدُّنيا طالبةٌ مطلوبة؛ فطالب الآخرةِ تطلبه الدُّنيا حتى يستكملَ فيها رزقَه، وطالب الدُّنيا تطلبه الآخرة، حتى يجيءَ الموتُ فيأخذَ بعنقه، يا معشر الحواريِّين! ارضوا بدنيء الدُّنيا مع سلامة الدِّين، كما رضي أهل الدُّنيا بدنيء الدِّين مع سلامة الدُّنيا».

فأوصيكم وإيَّايَ بتقوى الله تعالى ـ والتَّقوى: اَمتثالُ أوامرِ الله واَجتنابُ نواهيه ـ والاعتبارِ بما ضرب الرَّسول من الأمثال لزهرة الحياة الدُّنيا، واَصحبوا الغنى بالشُّكر ـ والشُّكر: هو الاعتراف بالنِّعم باطناً، والتُّحدُّث بها ظاهراً، وصَرْفُها في طاعة مسديها ـ، وأعظمُ الشُّكر: أداء فرائض الإسلام، وبعد ذلك نوافل الإسلام لمن قدر عليها أو بعضِها.

واَعلموا أنَّ الثَّروة أخطرُ من الفقر؛ ولذلك خافها النَّبيُّ ﷺ على أمَّته ولم يخف عليهم من الفقر، واَستعاذ من فتنتهما جميعاً، وقال بعض السلف: «اَبتلينا بالضَّرَّاء فصبرنا، واَبتلينا بالسَّرَّاء فلم نصبر».

واَعتبروا بالبهيمة الَّتي ضربها الرَّسول ﷺ مثلاً في حُسْن تصرُّفها في معيشتها، ونَفْعِها لنفسها، ودَفْعِها الضَّررَ عنها، هذا وهي ممَّن يُسَبِّحُ الله ويحمدُه ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

اللَّهُمَّ اجعلنا جميعاً ممَّن يستمع القول فيتَّبع أحسنَه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمران: ١٤].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله يزيد الشَّـاكرين، ويثيب الصَّابرين، أحمده سبحانه ـ وحمدي له من نعمه ـ، وأسأله المزيد من فضله وكرمه.

وأشـهد أَلَّا إلٰـه إلَّا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أنَّ محمَّـداً عبده ورسوله، أشرف الخلق أجمعين.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

مِنَ السَّـلف الصَّالح مَنِ ٱختار المال للجهاد به وصرفِـه في وجوه البِرِّ؛ كعبدِ الرَّحمن بـنِ عوفٍ وغيرِه من مياسـير الصَّحابة، وكان قيسُ بنُ سـعيد يقول: «اللَّهمَّ إنِّي من عبـادك الَّذين لا يصلحهم إلَّا الغنى».

ومنهـم مَنِ ٱختار الفقـرَ والتَّقلُّل؛ كأبـي ذرٍّ وجماعةٍ مـن الصَّحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدُّنيا وخَشوا الفتنة بها.

والفِرْقةُ الثَّالثة لم تختر شـيئاً؛ بل كان ٱختيارها ما ٱختـاره الله لها، ولمَّا خُيِّر نبيُّنا ﷺ بين أن يكون مَلِكاً نبيّاً، وبين أن يكون عبداً رسـولاً ـ وعلم أنَّ ربَّـه يختارُ له أن يكون عبداً رسـولاً ـ ٱختار ما ٱختاره الله لـه؛ فكان ٱختياره

في جميع أموره تابعاً لاختيار الله له. وكان ﷺ يأخذ الشَّهر والشَّهرين لا يُوقَد في بيته نار، وإنَّما طعامهم الأسودان ـ التَّمرُ والماء ـ، وكان صابراً، ولم يضع لبنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قصبةٍ حتى فارق الدُّنيا، ثمَّ لمَّا فتح الله عليه الفتوح كان يُمسك له ولأهله قوتَ سنةٍ واحدة، ويُنفق ما عدا ذلك في سبيل الله، وكان يعطي عطاءَ من لَّا يخشى الفقر. وكلُّ خصلةٍ من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخصَّه بِذِرْوةِ سنامها، وليس الفقراء الصَّابرون بأحقَّ به ﷺ من الأغنياء الشَّاكرين؛ بل أحقُّ النَّاس به منهم: أعلمهم بسُنَّته وأتبعهم لها.

فارضوا ـ عباد الله ـ بما قسم الله لكم، وأشكروا نعمة الله عليكم، ومَن ٱبتُلي بفقرٍ فعليه أن يصبر، قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشِنا بالصَّبر»، وروى الأعمش: عن خيثمة، عن عبد الله: «إنَّ العبد ليَهُمُّ بالأمر من التِّجارة، حتى إذا ٱستيسرت له نظر الله إليه من فوق سبع سموات فيقول للمَلَك: ٱصرفه عنه فيصرفه عنه»، فطريق الفقر والتَّقلُّل طريقُ سلامةٍ مع الصَّبر، وطريق الغنى والسَّعة طريقُ عطبٍ في الغالب.

إنَّ أحسن الحديث...

الــذُّنـــوب

عقوباتها، وكيف الخلاص منها

الحمد للهِ غافرِ الذَّنب وقابلِ التَّوب، شـديدِ العقاب، ذي الطَّوْل، لا إلٰه إلَّا هو إليه المصير.

وأشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله وحـده لا شـريك لـه، شـهادةَ معتـرفٍ بالذَّنـب والتَّقصير، سائلٍ العفوَ والزُّلفى وحسنَ المآبِ يومَ المصير.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسـولُه، وأمينُه على وحيه، خيرُ بشيرٍ، وأشفقُ نذيرٍ.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّدٍ، وعلى آلـه وأصحابه، نِعْم الصَّحبُ له، ونِعْم القدوةُ لمن طلب الفوز والنَّجاة في يومٍ عسير.

أمَّا بعد:

فقـد روى الإمـام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسـنده: من حديث ٱبن مسـعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «**إيَّاكم ومُحقَّـراتِ الذُّنـوب، فإنَّهُـنَّ يجتمعن على الرَّجل حتـى يُهْلكْنَه** ـ وضرب لهنَّ رسـول الله ﷺ مثـلاً ـ؛ **كمثل قوم نزلوا أرضَ فـلاة، فحضر صنيعُ القوم** ـ يعنـي: إعـدادَ طعامِهم ـ **فجعـل الرَّجل**

ينطلـق فيجيء بالعود، والرَّجل يجـيء بالبَعْرة، حتَّى جمعوا سـواداً ـ يعني: الحطب ـ **وأجَّجُوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها**».

عباد الله:

هـذا نبيُّـنا ﷺ ـ الصَّـادق المصدوقُ الحريصُ علـى هداية أمَّتـه ونجاتهم ـ يحـذِّر الصَّحابـةَ ـ الَّذيـن هـم خيـار أمَّتـه ـ صغائـرَ الذُّنـوب، ويبيِّـن لهم عواقبهـا الوخيمة؛ بل ويحـذِّر جميعَ الأمَّة على ألسـن الصَّحابة المأمورين بالتَّبليغ عنه ﷺ ؛ كما في هذا الحديث الجليل.

وفي أحاديثَ أُخَرَ بيَّـن عقوباتِ ذنوبٍ بعينها، وذكر مـا أطلعه الله عليه من عذاب أصحابها في قبورهم، أو ما يحصل لهم يوم بعثهم ونشورهم، أو بعد أن يستقرَّ بهم القرار.

فمن ذلـك: الأخذ مـن بيت المـال بغير حـقٍّ، ذكـر الإمـام أحمد: من حديث أبي رافع رضي الله عنه قال: «مرَّ رسـول الله ﷺ بالبقيـع ـ مقابرَ في المدينة ـ فقال: **أفٍّ لـك، أفٍّ لك**، فظننت أنَّـه يريدني، قال: **لا، ولكن هـذا قبر فلانٍ بعثته ساعياً إلى آلِ فلان، فَغَلَّ نَمِرة، فدُرِّع الآن مثلَها من نار**».

وروى الإمـام أحمدُ أيضاً: عن أبي رافع قال: قال رسـول الله ﷺ : «**لمَّا عُرج بي مـررت على قـومٍ لهم أظفـارٌ من نحاسٍ يخمشـون بهـا وجوهَهم وصدورَهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريـل؟ فقال: هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس ويقعون في أعراضهم**» يعني: بالغيبة والبُهت.

ومـن ذلـك: شـربُ المُسْكِرَات، ففـي صحيح مسـلم: مـن حـديث جابـر رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ : «**كُـلُّ ما أسـكر حـرام، وإنَّ علـى الله عز وجل عهـداً لمن شـرب المُسْكِر أن يسقيَه من طينـة الخبـال**، قيل: وما

طينـةُ الخبـال؟ قال: **عصـارة أهـل النَّار**» والمسـكر: هـو الخمـر الكبرى، وبابـه الخمـر الصُّغـرى، وهـو التِّنبـاك(١).

ومن ذلك: تصوير ذوات الأرواح بالرَّسـم أو بالنَّحت أو بالفتغراف(٢)، في الصَّحيحين: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ المصوِّرين يعذَّبون يـوم القيامة، ويُقـال لهم: أحيـوا ما خلقتـم**»، والرَّاضـي بالتَّصوير، وناصبُ الصُّور في المجالس ونحوِها؛ كالفاعل في أصل الثَّواب والعقاب، ويسـتثنى مـن التَّصويـر الفتغرافـي: ما يُلـزم به الإنسـان من حفيظـة نفوس ونحوها مع كراهته للتَّصوير.

ومن ذلـك: «المظالم» في المـال والعرض، وهي ظلمـاتٌ يوم القيامة، وسـببٌ لنقصانِ الحسـنات، وتحمُّـلِ السَّـيِّئات، وسـخطِ ربّ البريَّات، في صحيح البخاري: من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من كانت له عند أخيـه مظلمةٌ في مـال أو عرض، فليأتـه فليتحلَّلْها منه قبـل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم، فإنْ كانت له حسناتٌ أُخذ من حسناته فأعطيها هـذا، وإلَّا أُخذ من سـيِّئاتِ هـذا فطُرحـت عليه، ثمَّ طُـرح في النَّـار**»، وفي الصَّحيح: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من أخذ شـبراً من الأرض بغير حقِّه؛ خُسف به يومَ القيامة إلى سبعِ أرضين**».

وفي المسـند: عـن معـاذ رضي الله عنه قـال: «أوصاني رسـولُ الله ﷺ فقـال: **لا تشركْ بالله شـيئاً ـ وإن قُتِلْتَ أو حُرِّقْتَ ـ، ولا تعقَّنَّ والديك ـ وإن أمراك أن تَخْرُجَ مـن مالك وأهلك ـ، ولا تتركـنَّ صلاةً مكتوبةً متعمِّـداً، فإنَّ من ترك**

(١) انظر أحكام شربه، وشربِ الخمر، والكلونيا المسكرة، والشِّيشةِ، وأكلِ الحشيش، والأفيون، والقات، وشمِّ النَّشـمه. (ج ١٢/ ٦٨ – ١٠٧ من فتاوى سـماحة شـيخنا الشَّـيخ محمَّد بن إبراهيم رحمه الله).

(٢) كما حَّقق ذلك العلماء الثِّقات.

صلاة مكتوبة متعمِّداً؛ فقد برئت منه ذمَّةُ الله، ولا تشربنَّ خمراً، فإنَّه رأس كلِّ فاحشة، وإيَّاك والمعصيةَ؛ فإنَّ المعصيةَ تُحِلُّ سخط الله».

وذكر النَّبيُّ ﷺ عقوباتٍ عاجلةً لذنوبٍ معينة ـ نسأل الله السَّلامة منها ومن كلِّ ما يُغضبُ الله ـ، روى ٱبن أبي الدُّنيا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرَّجل: يا أمَّ المؤمنين! حدّثينا عن الزّلزلة، فقالت: «إذا ٱستباحوا الزِّنا، وشربوا الخمور، وضربوا بالمعازف، غار الله عز وجل في سمائه فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا أهدمها عليهم»، وروى ٱبن ماجه: من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كنت عاشِرَ عَشَرةٍ من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: **يا معشر المهاجرين! خمسُ خصال ـ أعوذ بالله أن تُدركوهنَّ ـ: ما ظهرت الفاحشة في قومٍ حتَّى أعلنوا بها، إلَّا ٱبتلوا بالطَّواعين والأوجاع الَّتي لم تكن في أسلافهم الَّذين مَضوا** ـ والفاحشة: الزِّنا واللِّواط ـ، **ولا نَقَص قومٌ المكيال إلَّا ٱبتلوا بالسِّنينَ وشدَّةِ المؤنة وجَوْرِ السُّلطان، وما منع قوم زكاةَ أموالهم إلَّا مُنعوا القَطْرَ من السَّماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قومٌ العهدَ إلَّا سلَّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمَّتُهم بما أنزل الله في كتابه إلَّا جعل الله بَأْسَهُم بينهم»**.

وفي معجم الطَّبراني: عن ٱبن عبَّاسٍ: «**ولا ظهر في قوم القتلُ** ـ يقتل بعضهم بعضاً ـ **إلَّا سلَّط الله عليهم عدوّهم، وما ترك قومٌ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر، إلَّا لم ترفع أعمالُهم ولم يُسْمَع دعاؤهم...**» الحديث.

وللمعاصي من الآثار القبيحةِ المذمومةِ المُضرَّةِ بالقلب والبدن في

الدُّنيا والآخرة ما لا يعلمه إلَّا الله، وقد ذكر بعض العلماء[١] من عقوباتها ستّاً وأربعين عقوبة، منها: أنَّها تُضعف في القلب تعظيمَ الرَّبِّ ﷻ، وتُخرج العبد من دائرة الإيمان إلى دائرة الإسلام، وتُسبِّب الرُّعب والخوف في قلب العاصي، وتُؤثِّر نقصانَ العقلِ وفسادَه، وتمحق بركة العمر، وبركةَ الرِّزق، وبركةَ العلم، وبركةَ العمل، وبركةَ الطَّاعة، وهي سببٌ لهوان العبد على الله وسقوطِه من عينه، وتُطفئ نار الغيرة والحياء، وتُسلِّط الأعداء، قال بُخْتَنَصَّر لدانيال: «ما الذي سلطني على قومِك؟ قال: عِظَم خطيئتِك، وظلمُ قومي أنفسَهم».

ومنها: أنَّ العبد لا يزال يرتكب الذُّنوب حتى تهون عليه وتصغرَ في قلبه، قال بعض السَّلف: «المعاصي بريدُ الكفر، كما أنَّ القُبْلَة بريدُ الجماع، والغناءَ بريد الزِّنا، والنَّظرَ بريد العشق، والمرضَ بريدُ الموت».

ومن عقوباتها: أنها تجرِّئُ على العبد أهلَه وخدمَه وجيرانَه حتَّى الحيوانَ البهيم، قال بعض السَّلف: «إنِّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق امرأتي ودابَّتي». وتجرِّئُ عليه أولياءَ الأمور بالعقوبة الَّتي إنْ عَدَلوا فيها أقاموا عليه الحدود.

وتجرِّئُ عليه نفسَه فتستأْسِد عليه وتَصْعُب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعْه ولم تنقدْ له؛ بل تسوقه إلى ما فيه هلاكه شاء أم أبى، وتُباعدُ عنه المَلَكَ المُوكَّلَ به الَّذي هو وليُّه وأنصحُ الخلق له، وتُدني منه عدوَّه وأغشَّ الخلق وأعظمَهم ضرراً له ـ وهو الشَّيطان ـ؛ فإنَّ العبد إذا عصى الله تباعد عنه المَلَكُ بقدر تلك المعصية، حتَّى إنَّه يتباعد بالكَذْبةِ الواحدةِ مسافةَ ميل من نَتَن ريحه، كما جاء ذلك في بعض الآثار، فكيف بما هو أكبر من ذلك

---

(١) وهو ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في (الجواب الكافي).

وأفحش؟!، وقال بعض السَّلف: «إذا ركب الذَّكَرُ الذَّكَرَ عَجَّتِ الأرض إلى الله، وهربـت الملائكـة إلى ربِّها وشَـكَت إليـه عظمَ مـا رأت»، وقال بعض السَّـلف: «إذا أصبح ٱبن آدم ٱبتـدره المَلَك والشَّـيطان، فإنْ ذَكَـرَ الله وكبَّره وحَمِده وهلَّله؛ طـرد الملَكُ الشَّـيطانَ وتولَّاه، وإنْ ٱفتتـح بغير ذلك؛ ذهب المَلَكُ عنه وتولَّاه الشَّيطان».

ومنهـا: أنَّ العبـد إذا وقع فـي شـدَّة أو كُربة أو بليَّـة، خانه قلبه ولسـانه وجوارحه، فلا ينجذبُ قلبـه للتَّوكُّل على الله تعالى والإنابـةِ إليه، والتَّضرُّعِ والانكسـارِ بين يديه، ولا يطاوعه لسـانه لذكره، وإنْ ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسـانه، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه، لم تنقد له ولم تطاوعْه، وقد يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربَّما تعذَّر عليه النُّطق بالشَّـهادة كما شـاهد النَّاسُ كثيراً مـن المحتضرين. قيل لأحدهم: قل: «لا إلٰـه إلا الله» فجعل يهذي بالغنـاء والعَزْف، ثم قضى ولـم يَقُلْها، وقيل لبعض لاعبي القمار والعشَّاقِ ـ العشقِ المحرم ـ؛ فأجابوا بالجواب السَّـيِّئ الذي ٱستولى على مشـاعرهم ولم يقولوا: «لا إلٰه إلا الله» عنـد آخر نَفَـس، فكيف يوفَّـق لحسـن الخاتمة مـن أُغفِل قلبُه عـن ذكر الله وٱتَّبع هواه وكان أمره فرطاً؟!

وقد يتأخَّر تأثيرُ الذَّنب فيُنسـى، ثم يَنْقَضُّ ـ ولو بعـد حين ـ كما ينقضُّ السَّـهم، وكما يَنْقضُّ الجُرحُ المندمل على الغِـش والدَّغل، أو يكون ضرره في الدِّيـن. وإن أُخِّر لـه في الآخرة فعـذاب الآخرة أشـدّ وأبقـى، ذَكَر عبدُ الله بـنُ أحمدَ: عن ٱبن سـيرين أنَّه لما ركبـه الدَّين ٱغتمَّ لذلـك، فقال: «إنِّي لأعرف هـذا الغَمَّ بذنـب أصبْتُه منـذ أربعين سـنة». ونظر بعـض العُبَّاد إلى صبي، فتأمَّلَ محاسـنَه، فأُتي في منامه، وقيل له: «لتجـدنَّ غِبَّها بعد أربعين سنة».

والمؤمـن مَـن لَّا يسـتصغرُ الذَّنـب، قـال بعـض السَّـلف ـ ويـروى مرفوعـاً ـ: «لا تنظروا في صغر الذُّنوب، ولكن ٱنظـروا على من ٱجترأتم»، وقـال الفضيل بن عيـاض: «بقـدر ما يصغـر الذَّنب عنـدك يعظـم عند الله، وبقدر ما يعظـم عندك يصغـر عند الله»، وذكـر البخاري فـي صحيحه: عن ٱبن مسـعود رضي الله عنه قال: «إنَّ المؤمن يرى ذنوبَه كأنَّها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبَه كذُبابٍ وقع على أنفه فقال به هكذا فطار».

عباد الله:

قـد يُلِمُّ المسـلمُ ببعضِ الذُّنـوب الصَّغائـرِ أو الكبائر، ثمَّ يمـنُّ الله عليه بالتوبـة، فيُقْلِعُ عـن الذَّنب، وينـدم على فعلـه، ويَعْـزِمُ على ألَّا يعـود إليه، فينمحـي عنه أثرُ الذَّنب حتَّى كأنَّه لم يذنب، وقد يكـون بعد التَّوبة خيراً منه قبل الخطيئة؛ كما حصل لآدمَ عليه السلام، وذلك بحسب قوَّة التَّوبة وكمالها.

فاتَّقـوا الله ـ عبـاد الله ـ، وٱحرصـوا على سـلامة أنفسـكم مـن صغائر الذُّنوب وكبائرها، ومَنْ أذنب فليعجِّل التَّوبةَ ليعيش سـعيداً في هذه الحياة، ويفوزَ بالسَّـلامة والحسنى بعد الممات، وتلك أحسـنُ الغايات والأُمنياتُ، روى الإمام أحمد والتِّرمذيُّ: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمـن إذا أذنـب ذنبـاً نُكـت فـي قلبـه نكتةٌ سـوداء، فـإنْ تـاب ونزع وٱستغفر؛ صُقِل قلبه**».

أعوذ بالله من الشّيطان الرَّجيم

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَنْ يعص الله ورسوله فقد غوى، ومن غوى فلن يضرَّ إلا نفسه، ولن يضرَّ الله شيئاً.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

سأل رجلٌ الحسنَ البصريَّ فقال: «يا أبا سعيد! كيف نصنع بمجالسة قوم يخوفونا حتى تكادَ قلوبنا تنقطع؟ فقال: والله لأن تصحبَ أقواماً يخوفونك حتَّى تدرك أَمْناً، خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف».

وقد وصف الله أهلَ السَّعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياءَ بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمَّل أحوالَ الصَّحابة رضي الله عنهم وَجَدَهم في غاية الجدِّ في العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التَّقصير؛ بل التَّفريط والأمن، ذكر الإمام

أحمد: أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كان يمسك بلسانه، ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»، وأُتي بطائر فأخذ يقلّبه، ثم قال: «ما صِيدَ من صيدٍ، ولا قُطِعتْ من شجرة، إلَّا بما ضَيَّعتْ من التَّسبيح»، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة الطُّور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطُّور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه في سياق الموت: «ويحك! ضع خدِّي على الأرض عساه أن يرحمني، ثمَّ قال: ويل أمي إن لَّم يغفر اللَّه لي ـ ثلاثاً ـ، ثمَّ قضى». وقال له ابن عبَّاس: مُصِّر بك الأمصار، وفُتح بك الفتوح، وفعل، وفعل، فقال: «وددتُّ أنِّي أنجو، لا أجر ولا وزر».

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وسيروا إلى الله بين الخوف والرَّجاء ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسرَاء: ٥٧][١].

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) من (الجواب الكافي).

أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه (١)

أفضليَّته، وأحقيّته بالخلافة الأولى

الحمد لله الواحدِ القهَّار، يخلق ما يشاء ويختار، اختار محمَّداً واختار له أصحاباً هم المهاجرون والأنصار.

وأشهد ألَّا إلٰه إلا الله وحده لا شريك لهُ، القائلُ في كتابه الكريم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التّوبة: ١٠٠].

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، القائلُ: «**أصحابي كالنُّجوم**»، و«**لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نَصيفه**»، «**عليكم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي**»، «**اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي: أبي بكرٍ وعمر**».

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه الَّذين آمنوا به ووقَّروه، ونصروه واتَّبعوا النُّور الذي أُنزل معه، أولئك هم المفلحون.

---

(١) قلت: وقد جمعت في فضائله وأحَقِّيَّته بالخلافة من «منهاج السُّنَّة» كتاباً طُبع بهذا العنوان: (أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أفضل الصَّحابة، وأحقُّهم بالخلافة).
وكتاباً آخر منه بعنوان: (آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولياؤه) ط ١٤١٢هـ، ذكرت فيه عقائدهم وفضائلهم، وفقههم، وفقهاءهم، ومن خالفهم.

أمَّا بعد:

فإنَّ خيرَ الخلق محمَّدٌ ﷺ، وخيرَ أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ أصحابُه، وخيرَ أصحابه: أبو بكر، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين. هذا ترتيبهم في الفضل، ودرجتُهم في الخلافة.

وبيان فضائل كلِّ الصَّحابة ـ يا عباد الله ـ، وما كانوا عليه من المحبَّة والتَّعاون على الحقِّ، ودفع الطَّعن عنهم؛ من الدِّين، خصوصاً إذا فشا الطَّعن فيهم من المبتدعين أو عبَّادِ القبور أو الملحدين؛ لأنَّ الصَّحابة هم حملة رسالة الإسلام إلى الأمَّة، فالطَّعن فيهم طعنٌ في الرَّسول، وسوءُ ظنٍّ بالمرسِل ـ تعالى وتقدَّس ـ، قال الإمام مالكٍ رحمه الله وغيرُه من أهل العلم: «هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ، إنّما طعنوا في أصحابه ليقول القائل: رجلُ سُوء كان له أصحابُ سوء، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين» ا. هـ.

وقد قال الله تعالى في الثَّناء عليهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التّوبة:١٠٠] قال الشَّعبيُّ: «﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾: من أدرك بيعة الرِّضوان عام الحديبية»، وقال محمَّد بن كعب القُرَظي: «مرَّ عمر بن الخطَّاب برجل يقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فأخذ بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أُبيُّ بن كعب، فقال: لا تفارقْني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: لقد كنتُ أُرى أنَّا رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أُبيّ: تصديق هذه الآية في أوَّل سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجُمُعَة:٣]، وفي سورة الحشر ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ

بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٥]». فقد أخبر الله العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين ٱتبَّعوهم بإحسان، وهو تبارك وتعالى لا يرضى إلَّا عمَّن علم أنه يموت على الإسلام والإحسان.

فيا ويل من سبَّهم، أو أبغضهم، أو أبغض أو سبَّ بعضَهم، ولا سيَّما سيِّدُ الصَّحابة بعد الرَّسول وخيرُهم وأفضلُهم ـ أعني: الصِّدِّيقَ الأكبر، والخليفةَ الأعظم: أبا بكرٍ رضي الله عنه ـ؛ فقد نطقت بفضله الآيات والأخبار، وٱجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]. دُعِيَ إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجَّة فما زلَّ ولا كبا، وصبر من مدى العِدى على وقع الشَّبا، وأكثر في الإنفاق حتى تخلَّل بالعِبا، تالله لقد زاد على السَّبك في كلِّ دينار دينار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

مَنْ كان قرينُ النَّبيِّ في شبابه؟! مَنِ الذي سبق إلى الإيمان مِنْ أصحابه؟! مَنِ الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه؟! مَنْ أوَّلُ من صلَّى معه؟! مَنْ آخِرُ مَنْ صلَّى معه؟! مَنِ الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟! فاعرفوا حقَّ الجار.

نهض يومَ الرِّدَّة بفهمٍ وٱستيقاظ، وأبان من الكتاب مَعنًى دَقَّ عن حديد الألحاظ، فالمحبُّ يفرح بفضائله، والمبغض يغتاظ ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهو ثاني ٱثنين في الإسلام، وفي النَّفْس، وفي الزُّهد، وفي الصُّحبة، وفي الخلافة، وفي العُمُر، وفي

سبب الموت؛ لأن الرَّسول ﷺ مات عن أثر السُّمِّ، وأبو بكر سُمَّ فمات. أسلم على يديه من العشرة: عثمان، وطلحة، والزُّبير، وعبد الرَّحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقها أحوجَ ما كان الإسلام إليها، قال النَّبيُّ ﷺ: «**ما نفعني مالٌ، ما نفعني مالُ أبي بكر**». كم وقى الرَّسول بالمال والنَّفس، وكان أخصَّ به في حياته، وهو ضجيعه في الرَّمْس، فضائله جليلة وهي خلية من اللَّبس.

يا عجباً من يغطِّي ضوء الشَّمس في نصف النَّهار!! لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصِّدِّيق من خوف الحوادث، فقال الرَّسول ﷺ: «**ما ظنُّك باثنين واللهُ الثَّالث**»؛ فنزلت السَّكينة وزال القلق وارتفع خوف الحادث، فقام مؤذِّن النَّصر ينادي على منابرِ الأمصار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

حُبُّهُ واللهِ رأس الحنيفيَّة، وبغضه يدلُّ على خبث الطَّويَّة؛ فهو خير الصَّحابة والقرابة، والحجَّة على ذلك قويَّة، قال ابن الحنفيَّةِ ـ مؤكِّداً صحَّة إمامتهِ ـ: «والله ما أحببناه لهوانا، ولكن أخذنا بقول عليٍّ وكفانا: رَضِيَك رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا؟!».

خلافته انعقدت باختيار الصَّحابة ومبايعتِهم له، والنَّبيُّ ﷺ أخبر بوقوعها على سبيلِ الحمدِ لها والرِّضا بها، وأمر بطاعته وتفويضِ الأمر له، ودلَّ الأمَّة وأرشدها إلى بيعته، قال ﷺ: «**رأيت كأنِّي على قليب أنزعُ منها، فأتى ابنُ أبي قحافة فنزع ذَنُوباً أو ذَنُوبين**»، وقال ﷺ: «**ادعي لي أباك حتى أكتبَ لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه النَّاسُ من بعدي، ثم قال: يأبى الله والمؤمنون إلَّا أبا بكر**»، وقال ﷺ: «**اقتدوا باللَّذيْن من بعدي:**

أبـي بكر وعمـر»، وتقديمـه فـي الصَّـلاة، وقولـه: «**سـدُّوا كلَّ خَوْخَةٍ في المسجد إلَّا خَوْخَةَ أبي بكر**»، وغيرُ ذلك من الأحاديث.

والقـرآن قـد دلَّ علـى الخبـر بوقوعهـا، قـال تعالـى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: ٥٥]، وأمـر بطاعتـه فـي قولـه: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتـح: ١٦]، وأرشـد الأمَّـة إلـى ذلـك فقـال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وٱنظروا إلى ٱستخلاف النَّبيِّ لأبي بكر في هذه الأحاديث وشـواهدِها من الآيات القرآنيَّة، ثمَّ وقـوعِ البيعة من المؤمنين له عـن طواعيـةٍ وٱختيار، لا عـن إكـراهٍ ولا بذلِ مـال، وظهـورِ مصداقِ قولِ رسـول الله ﷺ: «**يأبـى اللهُ والمؤمنـون إلَّا أبا بكر**»، ثـمَّ هو قد زهد فـي الخلافة، عرضها على عمرَ وأبـي عبيدة فأبيا، ثم مـا كان في خلافته من ثبات النَّـاس على الدِّيـن، وٱنتشـاره وقمـع المرتدِّين، ثمَّ إنَّـه ٱكتفى بدرهمين يتقاضاهما كلَّ يومٍ حين ٱشـتغل بالخلافة عن التَّكسُّـب لنفسه وعياله.

فهذا مسلك أهلِ السُّـنَّة والجماعة في فضله، وٱعتبارِه الخليفةَ الأوَّلَ بعد رسول الله ﷺ، وهو المسلك السَّـديد، والقولُ الرَّشيد، سأل هارونُ الرَّشيد مالكَ بنَ أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ؟ فقال: أفي شكٍّ أنت يا أمير المؤمنين؟ منزلتهما منه في حياته، كمنزلتهما منه بعد وفاته قُبِرَا معه، فقال: شفيتني يا مالك! شفيتني يا مالك!».

اللَّهمَّ ٱرض عن أبي بكرٍ، وعن سائر أصحاب نبيِّك أجمعين.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمـد لله معـزِّ مَـنْ أطاعـه واْتَّقـاه، ومذلِّ مَـنْ أضـاع أمـرَه وعصاه، والحمـد لله الذي أَيَّد الإسـلام بأبي بكرٍ في حيـاة رسـوله، وحَفِظَه به بعد وفاته، فرضي الله عنه وأرضاه.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له وفَّى بوعده؛ فاستخلف أبا بكرٍ فـي الأرض ومكَّن له دينـه ولصحبه، ودعـا رضي الله عنه الأعرابَ إلـى قتال فارسٍ والرُّومِ والمرتدِّين من بني حنيفة فاستجابوا لأمره، وهو الَّذي وصفه الله بأنَّه ﴿ٱلْأَتْقَى﴾؛ فهذا ترشيحٌ له من ربِّه للخلافة العظمى.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله اْصطفاه الله واْجتباه، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

لنسـتمع إلـى عمرَ بـنِ الخطَّـاب رضي الله عنه يصـف لنا ليلـةً ويومـاً مـن أيَّام أبي بكـرٍ ولياليـه، روى «الطَّلمنْكِـيُّ»: من حديـث ميمونِ بنِ مِهْـرانَ، قال: «كان أبو موسـى الأشـعري إذا خطب بالبصرة يومَ الجمعـة ـ وكان واليها ـ صلَّى علـى النَّبـيِّ ﷺ، ثمَّ ثنَّـى بعمرَ بـنِ الخطاب يدعـو له. فقـام ضبَّة بنُ مِحْصن العنزي، فقالَ: فأيـن أنتَ من ذِكْرِ صاحبه قبله، تُفضِّله عليه ـ يعني:

أبا بكـر رضي الله عنهما ؟! ـ ثمَّ قعد. فلمَّا فعل ذلك مراراً أمحكه[١] أبو موسـى، فكتب أبو موسـى إلـى عمر رضي الله عنه : إن ضبَّـة يطعن علينـا، ويفعل، فكتـب عمر إلى ضبَّة أنْ يخرجَ إليه، فبعث به أبو موسى.

فلمَّـا قدم ضبَّـةُ المدينـةَ على عمـر رضي الله عنه فقـال الحاجب: ضبَّـةُ العنزي بالباب، فأذن له، فلمَّا دخل عليه قال: لا مرحبـاً بضبَّة، ولا أهلاً. قال ضبَّة: أمَّـا المرحب فمن الله تعالـى، وأما الأهل فلا أهلَ ولا مال. فبم اُسـتحللت إشخاصي من مِصْرِي بلا ذنب أذنبت، ولا شيء أتيت؟ قال: ما الذي شجر بينك وبين عاملك؟

قلت: الآن أخبـرُك يا أمير المؤمنين! إنَّـه كان إذا خطب حمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثـمَّ ثنَّى يدعو لك، فغاضبني ذلك منه، وقلت: أين أنت من صاحبه تفضِّله عليه، فكتب إليك يشكوني.

قال: فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً، وهو يقول: أنت واللهِ أوفقُ منه وأرشدُ منه، فهل أنـت غافر لي ذنبي يغفر الله لك؟ قلت: غفـر الله لك يا أمير المؤمنين! ثـمَّ اُندفع باكياً يقول: والله لَلَيلةٌ من أبي بكر ويـومٌ، خيرٌ مِنْ عمرَ وآلِ عمر، فهل لك أن أُحدِّثك بيومه وليلته؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين! قال:

أمَّـا «ليلتُه»: فإنَّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا خرج من مكَّة هارباً من المشـركين خـرج ليـلاً فتبعه أبـو بكـر، فجعل يمشـي مـرَّةً أمامـه، ومـرَّةً خلفـه، ومرَّةً عن يمينـه، ومرَّةً عن يسـاره، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «**ما هذا يا أبـا بكر؟! ما أعرف هذا من فعلـك**»، فقال: يا رسـول الله! أَذكـرُ الرَّصدَ فأكـون أمامك، وأذكـر الطَّلب فأكـون خلفك، ومرَّة عـن يمينك، ومرَّة عن يسـارك، لا آمَنُ عليك، فمضى رسـول الله صلى الله عليه وسلم على أطراف أصابعه حتـى حَفِيَتْ، فلمَّا رأى

(١) المحك: هو اللِّجاج. (لسان العرب ١٠/٤٨٦).

أبو بكر ﵁ أنها حَفِيَتْ حمله على عاتقه حتى أتى به فم الغار[١] فأنزله، ثمَّ قال: والَّـذي بعثك بالحقِّ لا تَدخُلُـه حتى أدخلَه، فلمَّا دخـل وجد الصَّدِّيقُ أجحـارَ الأفاعـي، فلمَّـا رأى أبـو بكر ذلـك ألقمـه عقبـه، فجعلن يلسـعنه ويضربنه، وجعلت دموعه تتحادر على خده من ألم ما يجد، ورسول الله ﷺ يقـول: ﴿لَا تَحۡـزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فأنـزل الله سـكينته وطمأنينتـه علـى أبي بكر. فهذه ليلته.

وأمَّا «يومُه»: فلمَّا تُوفِّي رسـول الله ﷺ وٱرتدَّتِ العرب، فقال بعضهم: نصلِّـي ولا نزكِّـي، وقال بعضهـم: نزكِّي ولا نصلِّـي. فأتيته لا آلـوه نصحاً، فقلت: يا خليفة رسـول الله! تألَّفِ النَّـاس وٱرفقْ بهم، فقال لـي: أَجَبَّارٌ في الجاهليَّة، وخَوَّار في الإسـلام؟! قُبض رسـول الله ﷺ وٱرتفع الوحي، واللهِ لـو منعوني عِقـالاً كانـوا يؤدُّونه إلـى رسـول الله لقاتلتهم عليه، فـكان واللهِ رشيدَ الأمر. فهذا يومه.

ثمَّ كتب إلى أبي موسى يلومُه»[٢].

وعـن جابر ﵁ قـال: «قيـل لعائشـة ﵂: إنَّ ناسـاً يتناولـون أصحاب رسـول الله ﷺ حتَّى أبـا بكر وعمـر، فقالت: ومـا تعجبون من هـذا، ٱنقطع عنهم العمل، فَأَحبَّ الله ألَّا يَقْطعَ عنهم الأجر»[٣].

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) غار ثور.

(٢) وحديث ضبَّة هذا من أشهر الأحاديث. (منهاج جـ ٢ ص ١٨٥، ٢٨٦).

(٣) بدائع جـ ٤/ ٢١٧. البداية والنهاية جـ ٣/ ١٨٧.

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه

فضائله، وعِزُّ الإسلام به

الحمـد لله الملكِ الوهَّاب، هو أعلم حيث يجعل رسـالته، ويختار لكلِّ نبيٍّ حواريِّين وأصحاب.

وأشـهد ألَّا إلٰـه إلَّا الله وحـده لا شـريك لـه، أعـزَّ الإسـلام بعمرَ بـنِ الخطَّاب.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله أوصى بالتَّمسُّك بسـنَّته وسنَّةِ الخلفاء الرَّاشدين من بعده.

صلَّى الله وسـلَّم وبارك على عبده ورسـوله محمَّد، وعلـى آله وصحبه الَّذين رضـي الله عنهم ورضوا عنـه ـ ومنهم: أبو بكر وعمـر ـ، وكانا أولى الصَّحابـة بالخلافة بعـده، وحـازا قَصْبَ السَّـبق إلـى قمم الفضائـل، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر**».

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

أوصيكـم وإيَّـاي بتقـوى الله تعالـى وأداءِ حقّه، وامتثـالِ أمـر نبيِّه ﷺ، والتَّصديـقِ بأخباره، ومعرفـةِ فضائلِ أصحابـه، والاجتهادِ فـي الاقتداء بهم ومحبَّتِهم؛ فالمرء مع من أحبَّ ـ وإن لَّم يلحقْ به ـ.

وإنَّ أجَلَّ أصحابِ رسول الله ﷺ: هو أبو بكر، وبعد أبي بكر في الفضل والخلافة: عمر. ومعرفة فضائلهما من السُّنَّة؛ بل هي عند بعض العلماء من الواجب، وقال بعض العلماء: «إذا أردتُّم أن يطيب المجلس فأفيضوا في ذكر عمر».

عباد الله:

لقد دعا النَّبيُّ ﷺ ربَّه أن يهديَ عمرَ بنَ الخطَّابِ ويُعِزَّ الإسلامَ به؛ فأجاب اللهُ دعوته، ورأى الصَّحابةُ مصداقَ هذه الدَّعوةِ منذ أسلم عمرُ إلى أَنِ ٱستشهد رضي الله عنه، فعن نافعٍ عن ٱبن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**اللَّهمَّ أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرَّجلين إليك ـ بعمرَ بنِ الخطَّاب، أو بأبي جهل بن هشام ـ، وكان أحبَّهما إليه عمر**»، وعن صهيبِ بنِ سنان رضي الله عنه قال: «لمَّا أسلم عمر ـ رضوان الله عليه ـ ظهر الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلقاً، وطُفْنا بالبيت، وٱنتصفنا ممَّن غلظ علينا، ورددنا عليه بعضَ ما يأتي به»، وقال ٱبن مسعود رضي الله عنه: «ما زِلْنَا أعزَّةً منذ أسلم عمر».

وٱسمعوا ـ عباد الله ـ الثَّناءَ العَطِرَ من رسول الله ﷺ على صاحبَيْه أبي بكر وعمر، وتقديرَه التَّامَّ لهما، وأَمْرَه بالاقتداء بهما، والشَّهادةَ لهما أنَّهما من أهل الجنَّة؛ بل من سادات أهل الجنَّة ـ وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى ـ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ ـ وأنا معه في المسجد ليس معنا ثالث ـ إذ أقبل أبو بكر وعمر كلُّ واحدٍ منهما آخذ بيد صاحبه، فقال: **يا عليّ! هذان سيِّدا كهولِ أهلِ الجنَّة ممَّن مضى من الأوَّلين والآخرين ما خلا النَّبيِّين والمرسلين، يا عليّ! لا تخبرْهما بذلك**، فما أخبرتُ بهذا الحديث حتَّى ماتا»، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كنَّا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: **إنِّي لست أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذَيْن**

من بعدي: أبي بكـر وعمر، واْهتدوا بهـدي عمَّار، وما حدَّثكم اْبنُ مسـعود فصدِّقوه» أخرجه التِّرمذي.

والصَّحابـة والتَّابعـون يعرفـون تلـك المنزلـةَ الرَّفيعـةَ لهمـا رضي الله عنهما، عـن أبي حـازم، عن أبيـه قال: قيـل لعليِّ بـن الحسـين ـ رضـوان الله عليهمـا ـ: «كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسـول الله ﷺ؟ قال: كمنزلتهما اليوم وهما ضجيعاه».

وعـن العُـتَـكي قـال: قال هارونُ الرَّشـيدُ لمالـكٍ: «كيف كانـت منزلة أبي بكـر وعمر مـن رسـول الله ﷺ؟ قـال: كقـرب قبرهمـا من قبـره، قال: شفيتني يا مالك!».

وعن جعفر بـن محمد، عـن أبيه قـال: قال رجـل من قريـش لعليِّ بن أبي طالـب رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين! سـمعتك تقول في الخطبـة آنفاً: اللَّهمَّ أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين، فمن هم؟ فاغرورقت عينـاه، ثـمَّ أهملهما، ثـمَّ قال: همـا حبيبـاي وعمَّاك أبـو بكر وعمـر، إماما الهدى، وشيخا الإسلام، ورَجُلا قريش، والمقتدَى بهما بعد رسول الله ﷺ، مـن اْقتدى بهما عُصـم، ومن اْتَّبـع آثارهما هُـدي الصِّراط المسـتقيم، ومن تمسَّك بهما فهو من حزب الله، وحزب الله هم المفلحون».

وعن أبي سـعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ أهل الجنَّة ليرون أهل علِّيِّين، كما ترون الكوكبَ الـدُّريَّ فـي أُفُقِ السَّماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعِمَا**» قيل: يا أبا سعيد! وما أَنْعِمَا؟ قال: أهل ذلك هما».

وعن محمَّدِ بنِ المنكدر، قال: سـمعت جابر بن عبـد الله رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أُدْخِلْتُ الجنَّةَ فرأيت فيها داراً وقصراً، فسمعت فيه ضوضاءَ**

أو صوتاً، فقلت: لمن هـذا؟ فقيل: لعمر، فأردتُّ أن أدخلـه فذكرت غَيْرَتَك؛ فبكى عمر، وقال: يا رسـول الله! أوَ يُغـارُ عليك؟!»، وفي حديـث أبي أمامة قال: «**فمضيت فـإذا أكثر أهـل الجنَّة فقـراءُ المهاجرين وذراري المسـلمين، ولم أر فيها أحداً أقلَّ من الأغنياء والنِّسـاء، قيل: أمَّا الأغنياء هم ههنا بالباب يحاسَبون ويُمْحَصُون، وأمَّا النِّسـاء فألهاهـنَّ الأحمران ـ الذَّهـب والحرير ـ، ثمَّ خرجنا من أحـد أبواب الجنَّـة الثَّمانية، فلمَّا كنـتُ عند الباب أُتيـتُ بكِفَّةٍ فوُضِعْتُ فيها، ووُضِعَتْ أمَّتي في كِفَّة، فرجَحْتُ بها، ثمَّ أُتي بأبي بكر فوُضِعَ في كِفَّة، وجـيء بجميع أمّتي فوضعوا، فرجح أبو بكر، ثـمَّ أُتي بعمر فوُضِعَ في كِفَّة، وجيء بجميع أمَّتي فوضعوا، فرجح عمر**».

واْسمعوا ـ رحمكم الله ـ إلى قصَّة اْستخلاف أبي بكر وبيعتِه له، وهي تحكي النَّزاهة التَّامة مـن أبي بكرٍ ومن عمرَ ومـن الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين، نصحَهم لأنفسهم وللإسلام ولأمَّة الإسلام.

عن عاصم بن عدي قـال: «جمع أبو بكر النَّاسَ وهـو مريض، فأمر من يحمله إلى المنبر ـ فكانت آخرَ خطبةٍ خَطَبَ بها ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيُّها النَّـاس: اْحذروا الدُّنيا، ولا تثقـوا بها فإنَّها غـدَّارة، وآثِروا الآخرةَ على الدُّنيـا وأحِبُّوها، فبحـبِّ كلِّ واحدة منهمـا تُبغَضُ الأخـرى، وإنَّ هذا الأمـرَ الذي هو أمْلكُ بنا، لا يصلح آخرُه إلَّا بمـا صلح به أوَّلُه، ولا يحتمله إلَّا أفضلُكم مَقْدِرةً، وأملكُكم لنفسـه أَشَـدُّكم في حال الشِّدَّة وأسلسُكم في حال اللِّين، وأعلمكم برأي ذوي الرَّأي لا يتشـاغلُ بمـا لا يعنيه، ولا يحزنُ لما ينـزل به، ولا يسـتحيي من التَّعلـم، ولا يتحيَّـرُ عند البديهـة، قويٌّ على الأمور، لا يَجُوز لشـيءٍ منهـا حدَّه بعـدوان ولا تقصير، يرصـد لما هو آتٍ عباده من الحذر والطَّاعة، وهو عمر بن الخطاب، ثمَّ نزل».

وسمع بعضُ الصَّحابة خبرَ ٱستخلاف عمر؛ فدخلوا على أبي بكر، فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك عن ٱستخلافك عمرَ علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: «أَجْلِسُوني أبالله تخوِّفوني؟! خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللَّهمَّ ٱستخلفت عليهم خيرَ أهلك، أبلغ عنِّي ما قلتُ مَنْ وراءك، ثمَّ ٱضطجع ودعا عثمان بن عفَّان فقال:

ٱكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، هذا هو ما عهد أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ بنُ أبي قحافة في آخر عهده بالدُّنيا خارجاً منها، وعند أوَّل عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمنُ الكافر، ويوقنُ الفاجر، ويصدِّقُ الكاذب، إنِّي ٱستخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطَّاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنِّي لم آلُ اللهَ ورسولَه وديني ونفسي وإيَّاكم خيراً، فإن عدَلَ فذاك ظنِّي به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكلِّ ٱمرئ ما ٱكتسب، والخيرَ أردت، ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧] والسَّلام عليكم ورحمة الله.

ثمَّ أمر بالكتاب فختمه. ثمَّ دعا أبو بكر ورفع يديه وقال: اللَّهمَّ إنِّي لم أُرِدْ بذلك إلَّا صلاحَهم وخفتُ عليهم الفتنة، فاجتهدتُ لهم رأيي، فولَّيتُ عليهم خيرَهم، وأحرصَهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فأخلفني فيهم فهم عبادُك». وبعث إلى عمر فقال: لا حاجة لي فيها، قال: ولكن لها بك حاجة، وقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ وصَحِبْتُه، ورأيتُ أَثَرَتَه أنفسَنا على نفسه، حتَّى إنْ كنَّا لنُهْدي إلى أهله فضلَ ما يأتينا منه، ورأيتَني وصَحِبْتَني وإنَّما ٱتَّبعتُ أثر من كان قبلي».

هذه المبرِّرات العظيمة لاستخلافه لعمر رضي الله عنهما وأرضاهما.

فاللهَ اللهَ ـ عباد الله ـ: أوصيكم بحبِّ الصَّحابة عامَّة، وحبِّ صاحبيه خاصَّة، والإكثارِ من التَّرضِّي عنهما، ومعرفةِ فضائلهما، والاقتداءِ بهما

في فعل كلِّ واجب واجتناب كلِّ محرَّم، وما استطعتم من فعل مندوب وترك مكروه، فمن عرف سيرتهما رضي الله عنهما ؛ استقلَّ ما عمل من خيرات، ومن كان من الخطَّائين كان إلى التَّوبة والإنابة والاستغفار والرُّجوع إلى الله من المسارعين بتوفيق الله، واتَّقوا الله لعلَّكم تفلحون.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التّوبَة: ١٠٠].

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأبرأُ إليه ممَّن أشرك به وكفر.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، نُصِر بالرُّعب من مسيرة شهر، حتَّى إنه ليخافه مَلِكُ الرُّوم ـ بني الأصفر ـ .

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه السّادةِ الغُرر.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الخليفتين الرَّاشدين ـ رضي الله عنهما ورضي عن جميع الصَّحابة ـ مع تلك الفتوحات العظيمة والفضائل الكثيرة، كانا أزهدَ النَّاسِ في الدُّنيا، مُقتدِيَيْن بَمَثَلِهما الأعلى محمَّدٍ ﷺ، خائِفَيْن من ربِّهم، راجين أرفعَ ثوابٍ لديه بعد النَّبيِّين.

عن محمَّد بن قيس قال: «دخل ناس على حفصةَ بنتِ عمرَ رضي الله عنهما فقالوا: إنَّ أمير المؤمنين قد بدا علباءُ رقبته من الهُزال، فلو كلمتيه أن يأكل طعاماً هو ألين من طعامه، ويلبسَ ثياباً أليَنَ من ثيابه ـ فقد رأينا إزاره مرقَّعاً

بُرقـعِ غيرِ لونِ ثوبـه ـ، ويتَّخذَ فراشـاً ألينَ من فراشـه، فقد أوسـع الله على المسلمين، فيكون ذلك أقوى على أمرهم.

فبعثوا إليه حفصة، فذكرتْ ذلك له، فقال: أخبريني بألينَ فراشٍ فرشتيه لرسـول الله ﷺ قط؟ قالـت: عَبـاءة كنَّا نثنيهـا له باثنيـن، فلمَّـا غلظت عليه جعلتها بأربعة، قال: فأخبريني بأجودَ ثوبٍ لَبِسَـه؟ قالـت: نَمِرَةً صبغناها له، فرآها إنسان فقال: اكسنيها يا رسول الله! فأعطاه إيَّاه.

قال عمـر: ائتوني بمِقْناعٍ من تمـر(١)، فأمرهم فنزعوا نواه ثـمَّ أكله كلَّه، ثمَّ قال: تروني لا أشـتهي الطَّعام، إنِّي لآكل السَّـمن وعنـدي اللَّحم، وآكل الزَّيت وعندي السَّمن، وأكل الملح وعندي الزَّيت، وآكل البحت(٢) وعندي ملح، ولكن صاحبيَّ سلكا طريقاً فأخاف أن أخالفهما فيُخَالَفُ بي».

وعن إسـماعيلَ بنِ قيـس قـال: «لمَّا قدم عمـرُ الشَّـام: استقبله النَّاسُ وهو علـى بعيره، فقالوا: يـا أمير المؤمنين! لـو ركبت بِرذونـاً يلقاك عظماءُ النَّاس ووجوهُهم، فقال: لا أراكم ههنا، إنَّما الأمر من ههنا وأشـار بيده إلى السَّماء، خلوا جَمَلي».

وكان رضي الله عنه رُبَّما تُوقد له النَّار ثمَّ يُدْنِي يده منها، ثمَّ يقول: «ابنَ الخطَّاب! هل لك على هذا صبر؟!».

وقال رضي الله عنه: «ليتني كنت كبشَ أهلي سـمّنوني ما بدا لهم، حتَّى إذا كنت أسـمنَ ما أكـون زارهم بعـضُ من يحبُّـون، فجعلـوا بعضي شِـواءً وبعضي قديداً، ثمَّ أكلوني فأخرجوني عذرة ولم أكُ بشراً».

(١) المِقْنَاع: الطَّبَقُ من عُسُبِ النَّحل يوضع فيه الطَّعام. وقوله: «كُلَّه» يفيد أنَّه كبير، وأنَّ فيه تمراً كثيراً.

(٢) كل ما أكل وحده مما يؤدم فهو بحت.

وجيء بتاج كسرى إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: «إنَّ الذين أدوا هذا لأمناء، فقال له علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنَّ القوم رأوك عففت فعفوا، ولو رتَعْتَ لرتعوا».

وفضائله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثيرة، منها: تعبُّده وٱجتهاده، وبكاؤه، وحذره من الابتداع في الدِّين، وإشارته بجمع القرآن، وهيبته في القلوب، وزهده وتواضعه، ونزول القرآن بموافقته في مواضع، وفرارُ الشَّيطان منه[1]، وٱهتمامه برعيَّته وملاحظته لهم، وغزواته وفتوحاته، وحَجَّاته، وعدله في رعيَّته، وقوله وفعله في بيت المال، وحذره من المظالم، وغيرُ ذلك كثير.

عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رأيت عمرَ بنَ الخطَّابِ على قَتَبٍ يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين! أين تذهب؟ فقال: بعير ندَّ من إبلِ الصَّدقة أطلبه، فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك، فقال: يا أبا الحسن! لا تلمْني، فوالَّذي بعث محمَّداً بالنُّبوَّة لو أنَّ عَناقاً ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة».

فرضي الله عنه وأرضاه، ورزقنا حبَّه وحبَّ صاحبِه، وفي الحديث: «**المرء مع من أحبَّ**»[2].

---

(١) وكلامه في الزُّهد والرّقاق. ومع ذلك طلب الشَّهادة وقُتل شهيداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ملخصّةٌ من (مناقب عمر) لابن الجوزي.
قلت: ولمَّا ذُكر هنا ما يتعلق بفضائل أبي بكر وعمر وخلافتهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فيحسن أن أذكر طريقة أهل السُّنَّة والجماعة باختصار شديد.
قال ٱبن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ في «العقيدة الواسطيَّة» المعبّرةِ عمَّا أجمع عليه السَّلفُ الصّالح ـ أهلُ السُّنَّة والجماعة ـ حيالَ البدع التي حدثت بعد الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهم وسطٌ في باب صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أهل التَّعطيل الجهميَّة، وبين أهل التَّمثيل المشبِّهة.
وهم وسط في باب أفعال الله: بين القدريَّة والجبريَّة.
وفي باب وعيد الله: بين المرجئة، والوعيديَّة من القدريَّة وغيرهم.
وفي باب أسماء الإيمان والدِّين: بين الحَروريَّة والمعتزلة، وبين المرجئة والجهميّة. =

إنّ أحسن الحديث كتاب الله...

= وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ: بين الرَّافضة والخوارج».
ثمَّ شَرَحَ هذه الأبوابَ في تلك العقيدةِ المختصرةِ جدّاً وفي غيرها من مؤلفاته.
فذكر عن أهل السُّنَّة أنَّهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.
وذكر أنَّ من ينفي الأسماء والصِّفات، أو ينفي الصِّفاتِ فقط، أو يثبت السَّبع الصِّفات وينفي البقية ويحرف نصوصها بما يسمِّيه التأويل، وكذلك بقية الأبواب الخمسة من سلك مسلكهم فيها فهو منهم، ومن خالفهم في شيء منها لم يطلق عليه هذا الاسم ـ أهلُ السُّنَّة والجماعة ـ؛ لمَّا سئل النَّبيُّ ﷺ عن الفِرقةِ النَّاجية من الفِرَق الثَّلاث والسَّبعين قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».
وهذا الحديث في الافتراق بالبدع والأهواء في هذه الأبواب، لا في أصل الدِّين؛ لأنَّه قال: «أمَّتي» فأضافها إلى نفسه، لا أمَّة الدّعوة. أمَّة الدَّعوة: كلُّ النَّاس ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].
وإنَّما نبَّهت على هذا لكثرة من يغلط فيه، فلا يفرق بين الاختلاف في توحيد الألوهيَّة والاختلاف في فروع العقائد. (وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٣ ص ٨).

المبـادرة إلى التَّوبـة
وأقسام النَّاس فيها

الحمد لله يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السَّيِّئات، ويزيدُ نِعَم المحسنين من فضله ويرفعهم درجات.

وأشهد أَلَّا إلٰه إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، بيده خزائنُ الأرض والسَّموات.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، كان في آخر عمره لا يقوم ولا يقعد إلَّا ٱستغفر وتاب، وهو أقرب الخلق إلى الله منزلة ومآب.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه ومَنِ ٱهتدى بهديهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فقد خرَّج التِّرمذيُّ: عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما من أحد يموتُ إلَّا ندم**، قالوا: وما ندامته؟! قال: **إنْ كان محسناً ندم ألَّا يكون أزداد، وإنْ كان مسيئاً ندم ألَّا يكون ٱستعْتَب**»، وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس ساعةٌ من ساعات الدُّنيا إلَّا وهي معروضة على العبد يوم القيامة، يوماً فيوماً وساعةً فساعة، ولا تمرُّ ساعةٌ لم يذكر الله تعالى فيها إلا تقطَّعت نفسه

عليها حسـرات، فكيف إذا مرَّت به ساعةٌ مع سـاعة، ويومٌ مع يوم، وليلةٌ مع ليلة؟!».

عباد الله:

الإنسـان ما دام يُؤمِّل الحياة فإنَّه لا يقطع أمله من الدُّنيا، وقد لا تسـمح نفسـه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصي وغيرِها، ويُرجِّيه الشَّيطان بالتَّوبة فـي آخر عمره، فإذا تيقَّن الموتَ وأيس من الحياة، أفاق من سـكرته بشـهوات الدُّنيا، فنـدم حينئذٍ علـى تفريطه ندامةً يـكاد يقتل نفسـه، وطلب الرَّجعة إلى الدُّنيا ليتوب ويعمل عملاً صالحاً فلا يُجاب إلى ذلك، فتجتمعُ عليه سـكرة الموت مع حسـرة الفوت ـ هذا حـال الكثير مـن النَّاس ـ وقد حـذَّر الله عبـاده مـن ذلـك؛ ليسـتعدوا للموت قبـل نزولـه بالتَّوبـة والعمل الصَّالح، قـال الله تعالـى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٥٤] قـال ابـن المبارك: «احذر السَّـكرةَ والحسـرة، أن يفجأك المـوتُ وأنت على الغِرَّة، فلا يصف واصفٌ قَـدْر ما تلقى، ولا قَدْر ما تَرى».

عباد الله:

والنَّاس في التَّوبة والعمل الصَّالح على أقسام:

فمنهـم: من لا يُوفَّـق لتوبة نصوح؛ بل يُيَسَّـر له عملُ السَّـيِّئات من أوَّل عمره إلى آخره حتى يموت مصـرّاً عليها، وهذه حالة الأشـقياء ـ نعوذ بالله من حالهم ـ.

وأقبـح من ذلك: من يُسِّـر له في أوَّل عمـره عملُ الطَّاعات ثـمَّ خُتم له بعملٍ سـيئ حتَّى مات عليـه، ففي الحديـث الصَّحيـح: «**إنَّ أحدكم ليعمل**

عملَ أهـلِ الجنَّة حتَّى ما يكونُ بينـه وبينها إلَّا ذراع، ثمَّ يسـبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمـل أهل النَّار فيدخُلُهـا»، وفي بعض رواياته: «**فيمـا يبدو للنَّاس**» يعني: أنَّ نيَّته بخلاف ذلك.

وقِسـمٌ يُفنِي عمره فـي الغفلـة والبطالة ثـمَّ يُوفَّق لعمل صالـح فيموتُ عليه، وهذه حالة مـن «**يعمل بعمل أهل النّـار حتَّى ما يكونُ بينـه وبينها إلَّا ذراع، فيسـبقُ عليـه الكتـاب فيعمـلُ بعمل أهـل الجنَّـة فيدخُلُهـا**»، وأخرج البزَّار: عن عائشـة رضي الله عنها مرفوعـاً: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيراً بعث إليـه مَلَكاً من عامِهِ الذي يموت فيه فيُسـدِّدُه وييسِّـرُه، فإذا كان عند موته أتاه مَلَكُ الموت فقعد عند رأسـه فقـال: أيَّتها النَّفـس المطمئنَّـة، اُخرجي إلى مغفـرةٍ من الله ورضوان، فذلك حين يحـبُّ لقاء اللهِ ويحبُّ اللهُ لقاءه. وإذا أراد بعبده شـرّاً بعث إليه شـيطاناً من عامِهِ الذي يموت فيـه فأغواه، فإذا كان عنـد موته أتاه مَلَكُ الموت فقعد عند رأسـه فقال: أيَّتها النَّفس الخبيثة، اُخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب، فتتفرَّقُ في جسده، فذلك حين يُبغض لقاء الله ويُبغض الله لقاءه**».

وفي المسـند: عن عبد الله بنِ عمرو بنِ العـاص رضي الله عنهما قال: «**من تاب قبل موته عاماً تِيـب عليه، ومن تاب قبل موته شـهراً تِيب عليه، حتَّـى قال يوماً، حتـى قال سـاعة، حتى قـال فُواقـاً**، قـال له إنسـان: أرأيـتَ إنْ كان مشـركاً فأسلم؟ فقال: إني أحدِّثكم ما سمعت من رسـول الله صلى الله عليه وسلم».

وفـي المسـند: عن أبـي سـعيد الخـدريِّ رضي الله عنه عن النَّبـيِّ صلى الله عليه وسلم قـال: «**إنَّ الشَّـيطان قـال: وعزَّتِكَ يـا ربِّ! لا أبـرح أُغوي عبـادك ما دامـت أرواحهم فـي أجسـادهم، فقـال الـرَّبُّ عز وجل: وعزّتـي وجلالـي لا أزال أغفـر لهـم ما اُستغفروني**».

وفي الحديث الصَّحيح: «**إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»، وقد دلَّ القرآن على مثـل هذا، قال تعالـى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: ١٧]، وعمل السُّـوء إذا أُفـرد يدخل فيـه جميـعُ السَّـيِّئات ـ صغيرُهـا وكبيرُها ـ. والمراد بالجهالة: الإقدام على السُّوء ـ وإنْ علم صاحبُه أنه سوء ـ؛ فإنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهل، وكلَّ من أطاعه فهو عالم.

فمن كان عالمـاً بالله وعظمته وكبريائه وجلاله؛ فإنه يهابه ويخشـاه، فلا يقع منه مع اُسـتحضار ذلك عصيانُه، ومن آثر المعصيةَ علـى الطَّاعة؛ فإنَّما حملـه على ذلك جهلُـه وظنُّه أنَّها تنفعه عاجلاً باسـتعجال لذَّتهـا، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التَّخلُّص من سوء عاقبتها بالتَّوبة في آخر عمره، وهذا جهل محـض؛ فإنَّه تَعجَّـل الإثمَ والخـزي، ويفوته عزٌّ من التَّقـوى، وثوابُ الآخرة، وعلو درجاتها، ولـذَّةُ الطَّاعة؛ وقد يتمكَّن من التَّوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت، فهو كجائعٍ أكل طعاماً مسـموماً لدفع جوعه الحاضِرِ ورجا أن يتخلَّص من ضرره بشرب دواء.

وممَّـن أفنى عمـره في الغفلـة والبطالـة: مـا روى الواحدي فـي كتاب «قتلـى القـرآن»: «أنَّ رجلاً من أشـراف أهل البصـرة كان منحـدراً إليها في سـفينة، ومعه جارية له، فشـرب يومـاً وغنَّته جاريتـه بعُودٍ لهـا، وكان معهم في السَّـفينة فقير صالح، فقال له: يا فتى! تُحسِـن مثلَ هذا؟ قال: أُحسن ما هو أحسـنُ منه ـ وكان الفقيرُ حسـنَ الصَّوت ـ فاسـتفتح وقرأ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّساء: ٧٧، ٧٨] فرمى الرَّجل ما بيده من الشَّراب في الماء، فقال: أشهد أنَّ هذا أحسنُ ممَّا سمعت، فهل غيرُ هذا؟ قال: نعم، فتلى عليه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن

يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] فوقَعَتْ في قلبه، فرمى ببقيَّة الشَّراب في الماء وكَسَر العود. ثـمَّ قال: يا فتى! هل ههنا فَرَج؟ قال: نعم ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فصاح صيحة عظيمة، فنظروا إليه فإذا هو قد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ»، وخَرَّج أبو نعيم بسنده: عن سعيدٍ الجريري قال: «قلت للحسن: يا أبا سعيد! الرَّجل يُذنب ثمَّ يتوب، ثمَّ يُذنب ثمَّ يتوب، حتى متى؟ قال: ما أعلم هذا إلَّا أخلاق المؤمنين».

وبقي هنا قسمٌ آخر ـ وهو أشرف الأقسام وأرفعها ـ وهو: من يُفني عمره في الطَّاعة ثم يُنبَّه على قرب الأجل ليجدَّ في التَّزوُّد، ويتهيأَ للرَّحيل بعمل صالح للِّقاء، ويكون خاتمةً للعمل، قال ٱبن عبَّاس لمَّا نزلت على النَّبيِّ ﷺ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النّصر: ١ ـ ٣]: «نُعِيَتْ لرسول الله ﷺ نفسُه، فأخذ في أشدّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة»، وقالت أمُّ سلمة: «كان النَّبيُّ ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء؛ إلَّا قال: سبحان الله وبحمده، فذكرتُ ذلك له، فقال: **إنِّي أُمرتُ بذلك**، وتلا هذه السُّورة، وكان من عادته أن يعتكف في كلِّ عامٍ في رمضان عشراً، ويَعْرِضَ القرآنَ على جبريل مرّة؛ فاعتكف في ذلك العامِ عشرين يوماً وعرض القرآن مرَّتين، وكان يقول: «**ما أرى ذلك إلَّا لاقتراب أجلي**»، ثم حجَّ حجَّةَ الوداع، وقال: «**أيُّها النَّاس! إنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتِيَني رسول ربِّي، فأُجيب**»، ثمَّ أمر بالتَّمسُّك بكتاب الله، ثمَّ توفِّي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ.

إذا كان سيِّد المحسنين يُؤمرُ أن يختم عمرَه بالزِّيادة والإحسان، فكيف يكون حالُ المسيء؟! وفي الدُّعاء المأثور: «اللَّهمَّ ٱجعل خير عملي

خواتمَه، واْجعل خير عمري آخرَه، وخير أيَّامي يوم لقاك».

وكان السَّـلف الصَّالـح ـ مـع اْجتهادهـم فـي الصِّحَّـة فـي الأعمـال ـ يُجدِّدون التَّوبة والاستغفار، ويختمون أعمالهم بالاستغفار وكلمةِ التَّوحيد، وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند موته ـ: «أجلسـوني، فأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتنـي فقصَّرت، ونهيتنـي فعصيت؛ ولكن لا إلٰـه إلَّا الله، ثمَّ رفع رأسـه فأحدَّ النَّظر، فقالـوا: إنَّك تنظر نظراً شـديداً يا أميـر المؤمنين! فقال: أتاني حضرةٌ ما هم بإنسٍ ولا جنٍّ، ثمَّ قُبض رَحِمَهُ اللَّهُ»، وسُـمع تالياً يتلو: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فاتَّقوا الله ـ عبـاد الله ـ، والتَّوبةَ التَّوبةَ قبل أن يصلنـا من الموت النَّوبة، فيحصُلَ المفرِّط على النَّدمِ والخيبة.

والإنابةَ الإنابةَ قبل غَلْقِ بابِ الإجابة، والإفاقةَ الإفاقةَ قبل وقت الفاقة.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

بارك الله...

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه...

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

مبادرةُ الإنسان بالتَّوبة في حال صحَّته قبل نزول المرض به، هي أفضل أنواع التَّوبة، حتى يتمكَّن حينئذٍ من العمل الصَّالح، ولذلك قرن الله التَّوبة بالعمل الصَّالح في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن.

فالتَّوبةُ في الصِّحَّة ورجاءِ الحياة، تُشبه الصَّدقة بالمال في الصِّحَّة ورجاءِ البقاء، والتَّوبة في المرض عند حضور أمارات الموت، تُشبه الصَّدقة بالمال عند الموت، خرَّج ابن ماجه: من حديث جابر أنَّ النَّبيَّ ﷺ خطب فقال في خطبته: «**أيُّها النَّاس! توبوا إلى ربكّم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصَّالحة قبل أن تُشغلوا**» فأمر بالمبادرة قبل الموت.

وكلُّ ساعة تمرُّ على ابن آدم فإنَّه يمكن أن تكون ساعةَ موته؛ بل كلُّ نَفَس. وقال لقمان لابنه: «يا بنيَّ! لا تؤخِّر التَّوبة، فإنَّ الموت يأتي بغتة»، وقال بعض الحكماء: «لا تكن ممَّن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخِّرُ التَّوبة لطول الأمل»، وقال بعض السَّلف: «أَصْبِحوا تائبين، وامْسُوا تائبين». فمن أصبح أو أمسى على غير توبة فهو على خطر؛ لأنه يُخْشى أن يلقى الله

غيرَ تائـب فَيُحشـرَ فـي زمـرة الظَّالميـن، قـال تعالـى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١١].

تأخيرُ التَّوبة في حال الشَّباب قبيحٍ، ففي حال المشيب أقبح وأقبح، قال عمر بـن هانئ: «تقول التَّوبة للشَّـاب: أهلاً ومرحباً، وتقول للشـيخ: نقبلك على ما كان منك».

فاختمـوا ـ عبـاد الله ـ أعمالكـم اليوميَّـةَ بالتَّوبـة والاسـتغفار، فإن كان العمل سيِّئاً كان كفَّارة له، وإن كان حسناً كان كالطَّابعَ عليه[1].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) من (لطائف المعارف).

ميزان النَّاس

الحمـد لله الذي أوجـب الفـوز بالنَّجاة لمن شـهد له بالوحدانيَّة شـهادةً لم يبغِ لها عوجاً، وفاوت بيـن عباده في منازلِ العبوديَّة مـن الإنابة والمحبَّة والخوفِ والرَّجا.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةَ من أصبح قلبُه بالإيمان بالله وأسمائِه وصفاتِه مبتهجاً.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، هَدَى بـه من الضَّلالـة، وعلَّم به من الجهالة، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والتَّابعين لهم بإحسان.

أمَّا بعد: عباد الله:

إذا أراد المسـلمُ أن يُقَيِّـمَ نفسـه ويزنَها، ويعرفَ خسـرانها مـن ربحها، ويطمئنَّ عليهـا في سـيرها إلى ربِّهـا؛ فليعرضها علـى القـرآن الكريم، قال ٱبن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يسأل أحدٌ عن نفسه غيرَ القرآن»، وهذه ـ يا عباد الله ـ آيـة منـه، وهـي قولـه تعالـى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢]، جعل سـبحانه القائمين بهذا القرآن علماً وعملاً ثلاثة أنواع:

«ظالمٌ لنفسـه» وهو المفرِّط فـي بعض الواجبـات، أو المرتكبُ لبعض المحرَّمات.

الثَّانـي: «المقتصد» وهو المـؤدِّي للواجبات، التَّـاركُ للمحرَّمات، وقد يترك بعضَ المستحبَّات، ويفعلُ بعضَ المكروهات.

الثَّالـث: «السَّـابق بالخيرات» وهـو الفاعـل للواجبات والمسـتحبَّات، التَّاركُ للمحرَّمات والمكروهات وبعضِ المباحات.

وكلٌّ من هؤلاء الثَّلاثةِ مسافرٌ إلى ربِّه، ومدةُ سفره هو عمره الذي كُتب له، ثمَّ جُعلت الأيَّـامُ واللَّيالي مراحلَ لسـفره، فلا يزال يَطويهـا مرحلةً بعد مرحلةٍ حتى ينتهيَ السَّفر.

«فالظَّالم لنفسه» إذا ٱسـتقبل مرحلةَ يومِه: ٱستقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحركت جوارحَه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربِّه فتارة وتارة ـ فمرة يأخذ بالرُّخصة، ومرَّة بالعزيمة، ومـرَّة يقدم على الذَّنب وتركِ الحقِّ تهاونـاً ووعداً بالتَّوبة ـ؛ فهذا حال الظَّالم لنفسـه مع حفـظِ التَّوحيد، والإيمانِ بالله ورسوله واليومِ الآخر، والتَّصديقِ بالثَّواب والعقاب. فمرحلةُ هذا مقطوعةٌ بالرِّبح والخسـران، وهو للأغلب منهما؛ فـإذا ورد القيامةَ مُيِّز ربحُه مـن خسـرانه، وحُصِر ربحُه وحـده، وخسـرانُه وحـده، وكان الحُكم للرَّاجح منهمـا، وحكم الله من وراء ذلـك لا يُعدم منه فضلُـه أو عدلُه. هذا هو عمل الظَّالمِ لنفسه ومصيرُه.

أمَّـا «المقتصـدون» فـأدَّوْا وظيفةَ تلـك المرحلـةِ ولـم يزيـدوا عليها ولا نقصوا منهـا، فلا حَصَلوا على أرباح التُّجَّار، ولا بخسـوا الحـقَّ الذي عليهم، فإذا ٱسـتقبل أحدُهم مرحلةَ يومِه: ٱسـتقبلها بالطُّهور التّام، والصَّلاةِ التَّامة في وقتهـا بأركانها وواجباتها وشـرائطها، ثمَّ ينصـرف منها إلى مباحاته ومعيشـته

وتصرُّفاتِـه التـي أذن الله فيهـا، مؤدِّيـاً واجب الـرَّبِّ فيهـا، غيرَ متفـرِّغ لنوافل العبـادات وأوراد الأذكار، فـإذا حضرت الفريضة الأخرى: بـادر إليها كذلك، فـإذا أكملها ٱنصرف إلـى حاله الأوَّل، فهو كذلك سـائرَ يومه، فـإذا جاء اللَّيل فكذلك إلـى حينِ النَّـوم: يأخذ مَضْجِعَه حتى ينشـقَّ الفجرُ فيقـومَ إلى صلاته ووظيفته، فإذا جاء الصَّومُ الواجبُ: قام بحقِّه، وكذلك الزَّكاة الواجبة، والحجُّ الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسـط لا يظلمهم، ولا يترك حقَّه لهم. هذه حال المقتصد.

وأمَّا «السابقون بالخيرات» فهم نوعان: أبرار، ومُقرَّبون.

أمَّا الأبـرار: فقطعـوا مراحل سـفرهم بالاهتمـام بإقامة أمـر الله، وعقدِ القلب على تـرك مخالفته ومعاصيه؛ فهِمَمُهُم مصروفـةٌ إلى القيام بالأعمال الصَّالحة وٱجتنابِ الأعمالِ القبيحة.

فأوَّلُ ما يسـتيقظ أحدُهم من منامه: يسـبق إلى قلبه القيـامُ إلى الوُضوء التَّـامِّ والصَّلاةِ كما أمـره الله فـي أوَّل وقتها، فـإذا أدَّى فرض وقته: ٱشـتغل بالتِّلاوة والأذكار إلى حينِ تطلعُ الشَّمس، فيركع الضُّحى، ثمَّ يذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب.

فإذا حضـر فرض الظُّهر: بادر إلى التَّطهُّر والسَّـعي إلـى الصّفِّ الأوَّل من المسـجد عـن يمين الإمـام أو خلفِ ظهـره، فـأدَّى فريضته كمـا أُمر، مكمِّلاً لها بشـرائطها وأركانهـا وسـننها، وحقائِقها الباطنة ـ من الخشـوع والمراقبةِ والحضورِ بين يدي الرَّبِّ ـ فينصـرف من الصَّلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائرِ أحواله آثاراً تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود، والتَّجافي عن دار الغرور، وقلَّةِ التَّكالـب والحرص علـى الدُّنيـا وعاجلِها، قد نهتـه صلاته عن الفحشـاء

والمنكـر، وحَبَّبت إليه لقاءَ الله، ونفَّرته عـن كلِّ قاطع يقطعه عن الله، وهو مع ذلك مراعٍ لحفظ السُّنن لا يُخِلُّ منها بشيء.

ويأتي بعد الفريضة بالأذكار المشـروعة من التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل ثلاثاً وثلاثيـن، ويختم المئة بـ «لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، له الملك ولـه الحمد، وهو على كلِّ شـيءٍ قدير»، ومـن أراد المزيد قرأ آية الكرسـي والمعوّذتين.

فإذا كان قبل غروب الشَّمس: توفَّر على أذكار المساء الواردة في السُّنَّة، نظير أذكار الصَّباح الواردة في أوَّل النَّهار، لا يُخِلُّ بذلك أبداً.

فإذا أخذوا مضاجعهم: أخذوا بـأذكار النَّومِ الواردةِ في السُّـنَّة، من قراءة سـورة الإخلاص والمعوّذتيـن ثلاثاً، ثمّ يمسـحون بها رؤوسـهم ووجوههم وأجسـادهم ثلاثاً، ويقرؤون آيَةَ الكرسـي وخواتيمَ سـورةِ البقرة، ويُسـبِّحون ويحمدون ثلاثاً وثلاثيـن، ويُكبِّرون أربعاً وثلاثين، ثمَّ يقـولُ أحدُهم: «اللَّهمَّ إنِّي أسـلمت نفسـي إليـك، ووجَّهت وجهـي إليـكَ، وفوَّضت أمـري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت»، فلا يزالون يذكرون الله على فراشهم حتى يأخذَهم النَّوم.

وهـم مع هـذا قائمـون بحقـوق العباد ـ مـن عيـادة المرضى، وتشـييع الجنائـز، وإجابة الدَّعـوة، والمعاونـة لهم بالجـاه والبدن والنَّفـس والمال، وزيارتِهـم وتفقُّدِهـم ـ، وقائمـون بحقـوق أهلهـم وعيالهم. فـإذا وقع من أحدهم تفريط في حقٍّ من حقوق الله: بادر إلى الاعتذار والتَّوبة والاستغفار ومحوه، ومداواته بعملٍ صالح يُزيل أثره. هؤلاء هم الأبرار.

وأمَّـا السَّـابقون المقرَّبـون: فهـم قوم امتـلأت قلوبهـم مـن معرفة الله، وغُمِرَت بمحبَّته وخشيته وإجلاله ومراقبته...

فإذا ٱستيقظ أحدهم فأوَّلُ ما يبدأ به: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»، ثمَّ يقول بعدها: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰـه إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، ثمَّ يدعو ويتضرَّع، ثمَّ يقوم إلى الوضوء بقلبٍ حاضرٍ مستصحبٍ لما فيه.

ثمَّ يصلِّي ما كَتَب الله له صلاةَ محبٍّ ناصحٍ لربِّه، متذلِّلٍ منكسرٍ بين يديه، لا صلاة مُدْلٍ بها عليه، يرى من أعظم نعم الله عليه أن أقامه وأنام غيره، وٱستزاره وطرد غيره، وأهَّله وحَرَم غيره، يرى أن قرَّة عينِه وحياةَ قلبِه وجنَّةَ رُوحِه ونعمتَه ولذَّته وسرورَه في تلك الصَّلاة، فهو يتمنَّى طولَ ليلِه ويناجيه بكلامه، معطياً لكلِّ آية حظَّها من العبوديَّة؛ فتجذبُ قَلْبَه وروحَه إليه آياتُ المحبَّة والوِداد، والآياتُ التي فيها الأسماءُ والصِّفات، والآياتُ الَّتي تعرَّف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. وتُطَيِّبُ له السَّيْرَ آياتُ الرَّجاء والرَّحمةِ وسَعةِ البرِّ والمغفرة. وتُقلقُه آياتُ الخوفِ والعدلِ والانتقام وإحلالِ غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيرَه المائلين إلى سواه.

فإذا صلَّى ما كُتب له: جلس مُطْرِقاً بين يدي ربِّه هيبةً له وإجلالاً، وٱستغفره ٱستغفارَ من يتيقَّن أنَّه هالكٌ إن لَّم يَغفرْ له ويَرحمْه، فإذا قضى من الاستغفارِ وطراً ـ وكان عليه بَعْدُ ليلٌ ـ: ٱضطجع على شقِّه الأيمن مُجمّاً نفسَه، مريحاً لها، مُقويّاً لها على أداء وظيفة الفرض.

فإذا طلع الفجر: صلى السُّنَّة وٱبتهل إلى الله بينها وبين الفريضة، ويكثر من قول: «يا حيُّ يا قيُّوم لا إلٰه إلَّا أنت».

ثمَّ ينهض إلى صلاة الصُّبح قاصداً الصَّف الأوَّلَ عن يمين الإمام أو

خلفِ قفـاه، فإن فاته ذلك قَصَـد القُرْبَ منه مهما أمكن ـ فـإنَّ صلاة الفجر يشـهدها اللهُ ﷻ وملائكتُه شهادةً خاصَّة، وهي شـهادةُ حضورٍ ودنوٍّ متَّصلٍ بدنو الرَّبِّ ونزولِه إلى سماءِ الدُّنيا في الشَّطر الأخير من اللَّيل ـ.

فـإذا فرغ من صـلاة الصُّبـح: أقبـل بكُلِّيتـه على ذكـر الله والتَّوجُّـه إليه بالأذكار التي شُـرعت أوَّلَ النَّهار فيجعلُها ورداً له لا يُخِلُّ بها أبداً، ثمَّ يزيد عليها ما شـاء الله مـن الأذكارِ الفاضلةِ وتـلاوةِ القرآن حتَّى تطلعَ الشَّـمس، فإذا طَلَعتْ فإن شـاء ركع ركعتي الضُّحى وزاد ما شاء الله، وإن شاء قام من غير ركوع.

ثمَّ يذهب متضرِّعـاً إلى ربِّه سـائلاً له أن يكـون ضامناً عليـه متصرِّفاً في مرضاته بقيَّة يومه، فلا ينقلبُ إلَّا في شـيء يظهر له فيـه مرضاةُ ربِّه، وإن كان من الأفعال العادية الطَّبيعيَّة قَلَبَهُ عبادةً بالنِّيَّة وقصدِ الاسـتعانةِ به على مرضاة الرَّبّ.

فإذا جاء فرضُ الظُّهـر: بادر إليه، مُكمِّلاً له، ناصحـاً فيه لمعبوده، باذلاً مقدورَه كلَّه في تحسـينه وتزيينه وإصلاحِـه وإكمالِه، ليقع مَوْقعاً حسـناً من محبوبه، فينالَ به رضاه وقربَه منه، وهكذا صلاةُ العصرِ والمغربِ والعشاء.

فهذا سـلوكُ أهلِ النَّباهـة والحزم، وهـم أفرادٌ مـن العَالَم، وهـو طريقٌ سهلٌ قريبٌ موصِلٌ آمِن ـ أكثرُ السَّالكين في غفلةٍ عنه ـ.

أمَّـا «الأشـقياء» فقطعـوا تلـك المراحـلَ سـائرين إلـى دار الشَّـقاء، متزوِّدين غضبَ الرَّبِّ، مصحوبين بالشَّـياطين تسـوقهم إلى منازلهم سـوقاً حثيثـاً، وتُزْعجهم إلـى المعاصـي والكفـرِ إزعاجـاً ـ نعوذ بالله مـن حالهم ومصيرهم ـ.

فاتَّقـوا الله ـ عباد الله ـ فتقواه هـي النَّجاة، وأهل التَّقـوى هم أهل لا إلٰه إلَّا الله، روى الطَّبرانـي بسـنده: عن ابـن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ: **«ليس علـى أهل لا إلٰـه إلَّا الله وَحْشَـةٌ في المـوت، ولا في القبـور، ولا في النُّشـور، وكأنِّـي أنظر إليهـم عنـد الصَّيحـة يَنْفُضُون رؤوسـهم مـن التُّراب يقولون:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]».

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أفاض على خلقه النِّعمة، وكتب على نفسه الرَّحمة.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، من يُردْ هدايته يشرحْ صدره للإسلام.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـوله، أرسـله كما أرسـل الرُّسـل من قبله يدعون إلى دار السَّـلام، ويحذِّرون من المعاصي والآثام، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

السَّـائر إلى الله والـدَّارِ الآخرة لا يَتِمُّ سـيرُه ولا يصل إلـى مقصوده إلَّا بعلمٍ وعمل، فبالعلم يُبْصِرُ منازلَ الطَّريق، وبالعمل يسيرُ حقيقة، فكلَّما قطع منزلةً ٱسـتعدَّ لقطع الأخرى، وٱستشـعر القُرْب من المَنزلِ، فهان عليه مشقَّةُ السَّفر. وكلَّما كلَّت نفسه من السَّير وَعَدَها قربَ التَّلاقي وبَرْدَ العيش.

والدُّنيـا كلُّها كسـاعة من سـاعات الآخـرة، وعمـر الإنسـان دقائقُ من دقائق تلك السَّاعةِ أو أقلّ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخرة إلَّا كما يضع أحدكم أصبعَه في اليمِّ** ـ يعني: في البحر ـ **فلينظر بم يرجع؟!**».

فـالله اللهَ ـ عبـاد الله ـ لا ننقطـعُ في المفـازة، ولنُذكِّر أنفسـنا مـا أمامها

من الأحباب، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من الأعداء، وما لديهم من الإهانة والعذاب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٥ـ١٦][(١)].

إنّ أحسن الحديث كتاب الله...

(١) التِّبيان ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧١ ـ ٢٧٣.

اختلاف فصول السَّنة
تُذكِّر باللّٰه والدَّار الآخرة

الحمد لله الذي جعل في ٱختلاف فصول السَّنة دليلاً على عظمته الباهرة، ومذكِّراً بالدَّار الآخِرة، أحمده سبحانه على رحمته الواسعة، وأسأله الإعانة على حسن طاعته، والاستقامة على أمره، والتَّزوُّدِ من الأعمال الصَّالحة، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، فهو المَعَاذ والمَلاذ وحده، لا ملجأ منه إلَّا إليه في المُلِمَّات والعظائم القاهرة.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، كلُّ ما في الكون يُذكِّر بعظمته، ويُشوِّق إلى دار كرامته.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسولُه، القائلُ: «**ٱشتكتِ النَّارُ إلى ربِّها فقالت: أَكَلَ بعضي بعضاً، فأذِنَ لها بِنَفَسَيْن: نَفَسٍ في الشِّتاء، ونَفَسٍ في الصَّيف، فهو أشدُّ ما تجدون من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدون من الزَّمهرير**» أخرجه البخاري ومسلم.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه الذين روَّضوا أنفسهم وطوَّعوها حتَّى ٱستقامت على الأمر.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

ما رأى العارفون بالله شيئاً من الدُّنيا إلَّا تذكَّروا به ما وعد الله بجنسه في الآخرة، وعَلِمُوا أنَّ ذلك دليلاً يُعرِّفهم بخالقهم ﷻ وتقدَّست أسماؤه، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الصَّحابة يقولون: الحمد لله الرَّفيقِ الذي لو جعل هذا الخلقَ خلقاً دائماً لا يتصرّف لَقَالَ الشَّاكُّ في الله: لو كان لهذا الخلق ربٌّ لحادثه، وإنَّ الله قد حادث بما ترون من الآيات، إنَّه جاء بضوءٍ طَبَّق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهّاجاً، ثمَّ إذا شاء ذهب بذلك الخلقِ وجاء بظلمةٍ طبَّقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً ونجوماً وقمراً منيراً، وإذا شاء بنى بناءً جعل فيه المطرَ والرَّعدَ والبرقَ والصَّواعقَ ما شاء، وإذا شاء صَرَف ذلك الخلق، وإذا شاء جاء بِبَرْدٍ يُقَرْقِف النَّاس، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحرٍّ يأخذ بالأنفاس؛ ليعلمَ النَّاسُ أنَّ لهذا الخلقِ ربّاً يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدُّنيا وجاء بالآخرة».

وقال خليفة العبدي: «ما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خَلق لهم ربُّهم حتى أيقنت قلوبهم، وحتَّى كأنَّما عبدوا الله عن رؤيته، ما رأى العارفون شيئاً من الدُّنيا إلَّا تذكَّروا به ما وعد اللهُ به من جنسه في الآخرة من كلِّ خيرٍ وعافية، أو خلافِ ذلك».

فكلُّ ما في الدُّنيا يدلُّ على خالقه ويُذكِّرُ به، ويدلُّ على صفاته، فما فيها من نعيمٍ وراحة، يدلُّ على كرمِ خالقه وفضلِه وإحسانِه وجودِه ولطفِه بأهل طاعته. وما فيها من نِقْمةٍ وشدَّة وعذاب، يدلُّ على شِدَّة بأسِه وبطشِه وقهرِه وانتقامِه ممَّن عصاه، فنبات الأرض واخْضِرَارُها في الرَّبيع بعد مُحُولِها ويُبْسها في الشِّتاء، وإيناعُ الأشجار واخْضِرَارُها بعد كونها خشباً يابساً، يدلُّ على بعث الموتى من الأرض، قال أبو رَزين العُقَيْلِيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنَّبيِّ ﷺ: كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**هل مررتَ بوادٍ أُهلك**

مَحْلاً، ثمَّ مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟ قـال: نعم، قال: **كذلك يخرج الله الموتى، وذلك آيته في خلقه**» أخرجه الإمام أحمد. وقِصَرُ مدَّة الزَّرع والثِّمار، وعَوْدُ الأرض بعد ذلك إلى يُبْسـها، والشَّـجرِ إلى حالها الأوَّل، كَعَوْدِ ٱبن آدم بعد كونه حيّاً إلى التُّراب الذي خُلِقَ منه.

و«**فُصُول السَّنة**» تُذكِّر بالآخرة؛ فشدَّة حرِّ الصَّيف يُذكِّر بِحَرِّ جهنَّم وهو من سَمُومِها، وشدَّةُ بَرْدِ الشِّتاء يُذكِّر بزمهريرِ جهنَّم وهو من زمهريرها.

و«**الخريف**» يَكْمُل فيه ٱجتناء الثَّمرات، وكذلك ٱجتناء ثمراتِ الأعمالِ في الآخرة.

وأمَّا «**الرَّبيـع**» فهو أطيب فصول السَّـنة، وهو يُذكِّر بنعيـم الجنَّة وطِيب عيشـها. وينبغي أن يَحُـثَّ المؤمنَ علـى مواصلـة الاجتهادِ ـ يَطْلُـبُ الجنَّة بالأعمـال الصَّالحـة ـ. وكذلـك خَلْـقُ بعـضِ البلـدانِ البـاردة، والمطاعمِ والمشـاربِ اللَّذيذة، والملابـسِ الفاخرة، وغيـرُ ذلك من نعيـم الدُّنيا يُذكِّر بنعيم الجنَّة.

كان بعض السَّلف يخرج في أيَّام الرَّياحين والفواكه إلى السُّوق، فيقف وينظر ويعتبر، ويسأل الله الجنَّة. ومرَّ سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملوك جلوسٌ في مجالسهم في زينتهم فسـلَّموا عليه، فلمَّا بَعُد عنهم بكى وٱشتدَّ بكاؤه، وقال: «ذكَّرني هؤلاء شبابَ أهلِ الجنَّة»، تزوَّج صِلَةُ بنُ أَشيمَ بمعاذةَ العدويـة ـ وكان من كبار الصَّالحيـن ـ، فأدخله ٱبنُ أخيه الحمَّامَ المسـخنَ بالنَّـار، ثـمَّ أدخله علـى زوجته فـي بيت مطيَّـب مُنَجَّـد، فقامـا يصلِّيان إلى الصَّباح، فسـأله ٱبنُ أخيه عن حاله؟ فقـال: «أَدْخَلْتني بالأمس بيتـاً أَذْكَرَتْنِي به النَّار ـ يعني: الحمَّـامِ ـ، وأَدْخَلْتَني اللَّيلة بيتـاً أَذْكَرَتْنِي به الجنَّة، فلم يزل فكري في الجنَّة والنَّار إلى الصَّباح».

خرَّج الطَّبراني بإسناده: أن رجلاً في عهد النَّبيِّ ﷺ نزع ثيابه، ثمَّ تمرَّغ في الرَّمْضَاءِ وهو يقول لنفسه: ذوقي ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التّوبة: ٨١] جيفةٌ باللَّيل، بطَّالٌ بالنَّهار(١)، فرآه النَّبيُّ ﷺ فقال: يا رسول الله! غلبتني نفسي، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لقد فُتِحَتْ لك أبوابُ السَّماء، وباهى اللهُ بك الملائكة**».

وكان كثيرٌ من السَّلف يخرجون إلى الحدَّادين ينظرون إلى ما يصنعون بالحديد فيبكون، ويتعوَّذون بالله من النَّار. وكان بعضهم إذا رجع من الجمعة في حرِّ الظَّهيرة يَذْكُرُ انصرافَ النَّاسِ من موقف الحساب إلى الجنَّة أو النَّار؛ فإنَّ السَّاعة تقوم في يوم الجمعة، ولا ينتصف النَّهارُ حتى يَقِيلَ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّة، وأهلُ النَّار في النَّار، قاله ابن مسعود وتلا قولَه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

فينبغي لمن كان في حرِّ الشَّمس أن يتذكَّرَ حرَّها في الموقف؛ فإنَّ الشَّمس تدنو من رؤوسِ النَّاس يوم القيامة ويُزادُ في حرِّها، وليس هناك ظلٌّ إلَّا بالأعمال الصَّالحة.

وممَّا يدلُّ على الجنَّة والنَّار أيضاً: ما يُعجِّلُ الله في الدُّنيا لأهل طاعته وأهل معصيته؛ فإنَّ الله تعالى يُعجِّل لأوليائِه وأهلِ طاعته من نفحات نعيم الجنَّة ورَوْحها ما يجدونه ويشهدونه بقلوبهم ممَّا لا تحيط به عبارة، ولا تَحْصُره إشارة، حتى قال بعضهم: «إنَّه لتمرّ بي أوقاتٌ أقول: إن كان أهل الجنَّة في مثل ما أنا فيه، فإنَّهم في عيشٍ طيِّب»، قال أبو سليمان: «أهل اللَّيل في ليلهم، ألذّ من أهل اللَّهو في لهوهم»، وقال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: ٩٧] قال الحسن: «نرزقه طاعةً يجد لذَّتها في قلبه». أهل

(١) يلوم نفسه على عدم قيامها باللَّيل، وعلى ترك النَّوافل في النَّهار.

التَّقوى في نعيمٍ حيث كانوا ـ في الدُّنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة ـ.

وأمَّا أهل المعاصي والإعراض عن الله؛ فإنَّ الله يُعجِّل لهم في الدُّنيا من أُنموذجِ عقوباتِ جهنَّمَ ما يُعرف أيضاً بالتَّجربة والذَّوق، فلا تسأَلْ عمّا هم فيه من ضيق الصَّدر وحَرَجِه ونَكَدِه، ثمَّ ينتقلون بعد هذه الدَّار إلى أشدَّ من ذلك وأضيق، ولذلك يُضيَّق على أحدهم قبرُه حتى تختلفَ أضلاعه، ويُفتحَ له بابٌ إلى النَّار فيأتيه سَمُومها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ثمَّ بعد ذلك إلى جهنَّم وضيقها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفُرقان: ١٣].

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ واعتبروا بما تشاهدونه على ما غاب عنكم من نعيمٍ أو عذاب، وفي ذلك آيةٌ على وجود الخالق وعظمته، وباعثٌ على الاستمرار على القيام بحقِّه من مفروض ومندوب. واعلموا أنَّ النَّفس في كثيرٍ من الأحيان تحتاج إلى تربية.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسرَاء: ١٢]

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الَّذي يُرجى من كرمه أن يُحييَ القلوبَ الميِّتَةَ بالذُّنوب وطولِ الغفلة، بسماع الذِّكر النَّازل من السَّماء.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له في عبادته ـ لا من الأنبياء، ولا من الصُّلحاء، ولا من يُسمُّونهم بالأولياء ـ.

وأشهد أَنَّ محمَّداً عبده ورسوله، خير خلق الله من الأوَّلين والآخرين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

لا شكَّ أنَّ الله سبحانه خلق لعباده دارَين يجزيهم فيها بأعمالهم، مع البقاء في الدَّارين من غير موت، وخلق داراً معجَّلة للأعمال، وجعل فيها موتاً وحياة، وٱبتلى عباده فيها بما أمرهم به ونهاهم عنه، وجعل إحدى الدَّارين المخلوقتين للجزاء دارَ نعيمٍ محضٍ لا يشوبه ألم، والأخرى دارَ عذاب محض لا يشوبه راحة، وهذه الدَّار الفانية ممزوجةٌ بالنَّعيم والألم؛ فما فيها من نعيم يُذكِّر بنعيم الجنَّة، وما فيها من ألمٍ يُذكِّر بألم النَّار.

فاسألوه ـ يا عباد الله ـ الجنَّةَ وٱستعيذوا به من النَّار، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا كان يومٌ شديدُ الحرِّ فقال العبد: لا إلٰه إلَّا الله، ما أشدَّ حرَّ هذا اليوم! اللَّهمَّ**

أَجِرْني مـن حرِّ جهنَّم، قـال الله لجهنَّم: إنَّ عبـداً من عبادي قد ٱسـتجار بي منك وقد أَجَرْتُه. وإذا كان يومٌ شـديدُ البرد فقال العبد: لا إلٰه إلَّا الله ما أشدَّ بَرْدَ هذا اليوم! اللَّهمَّ أَجِرْني من زَمْهَرِير جهنَّـم، قال الله لجهنَّم: إنَّ عبداً من عبادي قد ٱستجار بي منك فأَجَرْتُه».

روى ٱبن أبي الدُّنيا بإسـناده: عن ٱبن مسـعود رضي الله عنه قال: «يُحشر النَّاسُ يومَ القيامة أعرى مـا كانوا قط، وأجوعَ مـا كانوا قط، وأظمأَ مـا كانوا قط، فمن كسـا لله عز وجل كسـاه الله، ومـــن أطعـــم لله أطعمـه الله، ومـن سـقى لله سقاه الله، ومن عفا لله أعفاه الله».

وقيـل لأبـي حـازمٍ الزَّاهد: إنـك لَتَشَـدَّدُ ـ يعنـي: فـي العبـادة ـ فقال: «وكيف لا أتشـدد وقد ترصَّد لي أربعةَ عشـر عدواً؟! قيل لـه: لك خاصَّة؟ قال: بل لجميع من يَعْقِل، قيـل له: وما هذه الأعداء؟ قال: أما أربعةٌ فمؤمن يحسـدني، ومنافق يبغضنـي، وكافـر يقاتلنـي، وشـيطان يُغْوِينـي ويُضِلُّني، وأما العشـرة: فالجوع والعطش، والحرُّ والبرد، والعـري والمرض، والفاقة والهرم، والموت والنَّار. ولا أُطيقهن إلَّا بسـلاح تامٍّ، ولا أجد لهنَّ سـلاحاً أفضلَ من التَّقوى».

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وحافظوا على أنفسـكم مـن أعدائكم، وجودوا على فقـراءِ المؤمنيـن، وعليكـم بالقـدوةِ الحسـنة الصَّحابـةِ والتَّابعين لهم بإحسان ـ خيرِ خلق الله بعد النَّبيِّين والمرسلين ـ.

إنَّ أحسن الحديث...

حال النَّاس في موقف القيامة

الحمد لله الَّذي خلق السَّموات والأرض بالحقِّ، ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يُظلَمون.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، خلق الثَّقلينِ ـ الجنَّ والإنسَ ـ لغايةٍ تُـرَاد منهم ـ وهـي أن يعرفوه ويعبدوه وحـده ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، وغايـةٍ تُراد بهـم ـ وهي الجزاء بالعـدل والفضل ـ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النّجم: ٣١].

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسوله وخليله، لا خير إلَّا دلَّ الأمَّة عليه، ولا شرَّ إلَّا حذَّرها منه. فصلَّى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

روى النَّسائي: عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ وبيده عصا، وقد علَّق رجلٌ قِنْواً من حَشَـفٍ، فجعل يطعن في ذلـك القِنْو، فقال: «**لو شـاء رَبُّ هـذه الصَّدقـةِ تصدَّق بأطيـبَ من هـذا، إنَّ ربَّ هـذه الصَّدقةِ يأكل حَشَـفاً يوم القيامة**» أخبر ﷺ أنَّ جزاءه يكون من جنس عمله، فيُجزى على تلك الصَّدقة بحَشَـفٍ من جنسها؛ ولهذا سُـمِّي يومُ القيامة يومَ الجزاء ويـومَ المعاد؛ فـإنَّ العبد يمـوت على ما عـاش عليه، ويبعث علـى ما مات عليـه، ويعود عليه عملـه بعينه، فينعمُ به ظاهـراً وباطناً، أو يُعـذَّبُ به ظاهراً

وباطناً؛ فيُورثُه عمله الصَّالح من الفرحِ والسُّرور، واللَّذَّةِ والبهجة، وقرَّةِ العينِ والنَّعيمِ في قلبه، وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذه عينه من سائر المشتهيات، ويكون تنوُّع تلك المشتهياتِ، وكمالُها، وبلوغُها مرتبةَ الحسن والموافقة، بحسب كمالِ عملِه ومتابعتِه فيه، وإخلاصِه وبلوغِه مرتبةَ الإحسان فيه.

فمن تنوَّعت أعمالُه المرضيَّةُ لله، المحبوبةُ له في هذه الدَّار؛ تنوّعت الأقسام الَّتي يتلذَّذ بها في تلك الدَّار، وتكثَّرت له بحسب تكثُّر أعماله هنا، وكان مزيده من تنوُّعها والابتهاجِ بها، والالتِذَاذِ بنيلها هناك، على حسب مزيده من الأعمال وتنوُّعِه فيها في هذا الدَّار، فليست لذَّةُ مَنْ ضرب في كلِّ مرضاة الله بسهم، وأَخَذَ منها بنصيب؛ كلذَّةِ من أنهى سهمَه ونصيبَه في نوعٍ واحدٍ منها، فلذَّاتُ أهلِ الجنَّة وما فيها من الطَّيِّبات أنواع. وكذلك تنوَّعت آلامُ أهلِ النَّار، فليس أَلمُ من ضرب في كلِّ مسخوطٍ لله بنصيب وعقوبتُه، كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه.

فالنَّاس يتفاوتون في أحوال المعاد وما يجري فيه من الأمور المتنوِّعة، فمنها:

خِفَّةُ حِمْلِ العبدِ على ظهره وثِقَلُه إذا قام من قبره؛ فإنَّه بحسب خِفَّة وِزْره وثِقَلِه ـ إن خفَّ خفَّ، وإنْ ثَقُل ثَقُل ـ.

ومنها: استظلاله بظلِّ العرش، أو ضحاؤه للشَّمس والحرِّ، إن كان له من الأعمال الصَّالحةِ والخالصةِ والإيمانِ ما يظلُّه في هذه الدَّار ـ من حرِّ الشِّرك والمعاصي والظُّلم ـ؛ استظل هناك في ظلِّ أعماله تحت عرش الرَّحمن. وإن كان ضاحياً هنا للمناهي والمخالفات والبدع والفجور؛ ضَحَى هناك للحرِّ الشَّديد.

ومنهـا: طـولُ وقوفه فـي الموقـف، ومشـقَّتُه عليـه، وتهوينُـه عليه. إن طال وقوفه في الصَّلاة ليـلاً ونهاراً لله، وتحمَّل لأجله المشـاقَّ في مرضاته وطاعته؛ خفَّ عليه الوقوف في ذلك اليوم وسَـهُلَ عليه، وإن آثر الرَّاحةَ هنا والدَّعَةَ والبطالـةَ والنِّعمةَ؛ طال عليه الوقوف هناك وٱشـتدَّت مشـقَّته عليه، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۞ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۞ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣ـ٢٧]، فمن سبَّح الله ليلاً طويلاً لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه؛ بل كان أخفَّ شيء عليه.

ومنها: ثِقَـلُ ميزانِـه هناك، بحسـب تحمله ثِقَـل الحقِّ في هـذه الدّار، لا بِحَسَـبِ مجرد كثرة الأعمال؛ وإنَّمـا يَثْقُل الميزان باتِّبـاع الحقِّ والصَّبر عليه، وبذلِه إذا سئل، وأخذِه إذا بُذل، كما قال الصِّدِّيق لعمر ﵄: «وٱعلم أنَّ لله حقًّـا باللَّيل لا يقبله بالنَّهـار، وله حقٌّ بالنَّهار لا يقبلـه باللَّيل، وٱعلم أنَّـه إنَّمـا ثَقُلَت موازيـنُ مَـنْ ثَقُلَـت موازينُـه، باتِّباعهم الحـقَّ، وثقل ذلك عليهم فـي دار الدُّنيا، وحُقَّ لميزانٍ يُوضَع فيه الحـقُّ أن يكون ثقيلاً. وإنَّما خفَّت موازينُ مَنْ خفَّت موازينُه يومَ القيامـة باتِّباعهم الباطلَ في دار الدُّنيا وخفَّتِه عليهم، وحُقَّ لميـزانٍ لا يُوضَـع فيـه إلَّا باطـلٌ أن يكـون خفيفـاً».

ومنهـا: أَنَّ ورودَ النَّـاسِ الحـوضَ وشـربَهم منـه يـوم العطـش الأكبر، بحسـب ورودهم سُـنَّةَ رسـولِ الله ﷺ وشـربِهم منها. فمن وردهـا في هذه الدَّار وشَـرِب منها وتضلَّع، ورَدَ هناك حوضَه وشَـرِب منه وتضلَّع؛ فله ﷺ حوضـان عظيمان: حوضٌ فـي الدُّنيا، وهو سـنَّته وما جاء بـه. وحوضٌ في الآخرة، فالشَّـاربون من هذا الحوض فـي الدُّنيا، هم الشَّـاربون من حوضه يوم القيامة، فشـاربٌ ومحـروم، ومسـتقِلٌّ ومسـتكثر. والَّذيـن يذودهم هو والملائكـةُ عـن حوضـه يـوم القيامـة، هـم الذيـن كانوا يـذودون أنفسَـهم

وأتباعَهم عن سنَّته، ويُؤْثِرون عليها غيرها، فمن ظَمأَ من سُنَّته في هذه الدُّنيا، ولم يكن له منها شرب؛ فهو في الآخرة أشدُّ ظَمأً وأحرُّ كَبِداً، وإنَّ الرَّجل ليلْقَى الرَّجُل فيقول: يا فلان! أشربتَ؟ فيقول: نعم واللهِ، فيقول: لكنِّي واللهِ ما شربت، وآ عطشاه.

ومنها: قسمة الأنوار في الظُّلمة دون الجسر. فإنَّ العبد يُعْطَى من النُّور هناك بحسب قوَّةِ نورِ إيمانه ويقينه وإخلاصه ومتابعته للرَّسول في دار الدُّنيا؛ فمنهم من يكون نوره كالشَّمس، ودون ذلك كالقمر، ودونه كأشدِّ كوكبٍ في السَّماء إضاءةً، ومنهم من يكون نوره كالسِّراج في قوَّته وضعفه، وما بين ذلك، ومنهم من يُعْطَى نوراً على إبهام قدمه، يُضيءُ مرَّة ويَطْفي أخرى، بحسب ما كان معه من نور الإيمان في دار الدُّنيا[1]، ولمَّا كان المنافق في الدُّنيا قد حصل له نورٌ ظاهرٌ غيرُ مستمرٍّ ولا متَّصلٍ بباطنه ولا له مادَّة من الإيمان: أُعطي في الآخرة نوراً ظاهراً لا مادَّة له ثم يُطْفَى عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أنَّ مشيهم على الصِّراط في السُّرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدُّنيا؛ فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك، وأبطؤهم هنا أبطؤهم هناك، وأشدُّهم ثباتاً على الصِّراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليبُ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ والبدعِ المضلَّة هنا، خطفته الكلاليبُ التي كأنَّها شوك السَّعْدانِ هناك، ويكون تأثير الكلاليب فيه هناك، على حسب تأثير كلاليب الشَّهوات والشُّبهات والبدع فيه هنا، فناجٍ مُسَلَّم، ومخزولٌ ـ أي: مُقطَّع بالكلاليب ـ مُكَرْدَسٌ في النَّار،

(١) فهو هذا النُّور بعينه، أبرزه الله لعبده في الآخرة ظاهراً يُرى عِياناً بالأبصار، ولا يستضيءُ به غيرُه، ولا يمشي أحد إلَّا في نور نفسه، إن كان له نور مشى في نوره، وإن لَّم يكن له نور لم ينفعه نورُ غيره.

كمـا أَثَّرت فيهم تلـك الكلاليب في الدُّنيـا ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النّبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلت: ٤٦].

ومن كان مستوحشـاً مع الله بمعصيتـه إيَّاه في هذه الدَّار، فوحشـته معه في البرزخِ ويومِ المعاد أعظمُ وأشدّ ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٧٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريَم: ٧٦].

فأوصيكـم وإيَّـاي ـ عبـادَ الله ـ بالتَّقـوى، وأن نُحاسِـبَ أنفسَـنا قبل أن نُحاسَـب، ونزنَها قبل أن نُوزَن، وأن نَتَأَهَّب للعرض الأكبر على الله الذي لا تخفى عليه خافية.

أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريَم: ٧١ـ٧٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، مالكِ يوم الدِّين.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، إلٰه الأوَّلين والآخرين.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسـولُه، الشَّـافعُ المشـفَّعُ في يوم المحشـر، اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّد، وعلى آلـه وأصحابه ومن تبعهم على الأثر.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

روى مسـلم في صحيحه: عن أبي الزُّبير: أنَّه سمع جابرَ بنَ عبدِ الله ﵄ يُسْـأَلُ عن الوُرُود فـي قولـه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١] فقـال: «نجيء نحن يـوم القيامـة على كَـوْمٍ فوق النَّـاس، قال: فتُدعـى الأمـم بأوثانها وما كانت تعبـد، الأوَّلُ فالأوَّل؛ ثـمَّ يأتينا ربُّنا بعـد ذلك فيقول: مـن تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربَّنا، فيقـول: أنا ربُّكم، فيقولون: حتَّـى ننظر إليك، فيتجلَّى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه، ويُعطى كلُّ إنسان منهم ـ منافقٍ أو مؤمنٍ ـ نوراً ثمَّ يتبعونه، وعلى جسـر جهنَّم كلاليبُ وحَسَـكٌ تأخذ من شاء الله، ثمَّ يُطفـأُ نورُ المنافقين، ثمَّ ينجو المؤمنـون، فتنجو أوَّلُ زمرةٍ وجوهُهم كالقمر ليلة البدر سـبعون ألفاً لا يحاسـبون، ثمَّ الذيـن يلونهم كأضوء نجم في السَّماء، ثمَّ كذلك، ثمَّ تَحلُّ الشَّفاعة، ويشفعون حتَّى يَخْرجَ من النَّار من

قال: «لا إلٰه إلَّا الله» وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شعيرة، فيُجعلون بفناء الجنَّة، ويَجْعَلُ أهلُ الجنَّة يَرشُّون عليهم الماءَ حتى ينبتوا نباتَ الشَّيء في السَّيل ويذهبُ حُرَاقُهُ، ثم يَسْأَلُ حتَّى جعَل لَه الدُّنيا وعشرةُ أمثالِها معها».

فتنبَّهوا ـ عباد الله ـ لما أمامنا في البرزخ، وفي القيامة، وفي داري الجزاء، وتفكَّروا في معاني هذا الحديث، وأنظروا معاملةَ الله ﷻ لأهل توحيده الذين عبدوه وحده ولم يُشركوا به شيئاً هذه المعاملة، ومعاملتِه أهلَ الشِّركِ به حيث ذهبت كلُّ أمَّة مع معبودها فانطلق بها وأتبعته إلى النَّار، وأنطلق المعبودُ الحقُّ وأتبعه أولياؤه وعابدوه، فسبحان اللهِ ربِّ العالمين الذي قرَّت عيونُ أهلِ التَّوحيد به في الدُّنيا والآخرة، وفارَقوا النّاس فيه أحوج ما كانوا إليهم[1].

إنَّ أحسن الحديث...

(١) البدائع جـ ٤/ ١٦٢، ٨٢، ٨٣. اجتماع الجيوش ص ٤ وقبلها وبعدها صحائف.

أحوال الإنسان
من حين يأتيه الأجل المحتوم
إلى أن يستقرّ في إحدى الدَّارين(١)

الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيء خلقه، وخلَقَ الإنسان في أحسن تقويم، أوجده وربَّاه بنعمه، وهداه إلى الطَّريق القويم.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، لا تحوُّل من حالٍ إلى حالٍ ولا قوّةَ على ذلك إلَّا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، نقله ربُّه درجةً بعد درجة، ومرتبةً بعد مرتبة، حتَّى انتهى إلى محلِّ القُرْب والزُّلفى من ربِّه الكريم.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه أهلِ العلم والعبادةِ والهجرةِ والجهاد، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم المعاد.

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۞ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۞ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق:١٦ـ٢٠] أقسم سبحانه بالشَّفق

(١) قلت: وهذه أشمل من كلِّ ما تقدم في هذا الموضوع، ومتَّصلةُ الحلقات.

الذي يتضمَّن إدبارَ النَّهار وإقبالَ اللَّيل ـ وهما آيتان من آيات الله ـ، وأقسم بالقمر واتِّساقه؛ فالهلال آية، واتِّساقه ـ وهو امتلاؤه نوراً ـ آية، ثمَّ أخْذُه في النَّقص آية، ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق:١٩] يعني: تَنَقُّلُ الإنسان حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأَمْراً بعد أمر.

عباد الله:

هذه الآيات التي حلف الله بها، والمحلوفُ عليه ـ وهو الإنسان ـ أدلَّةٌ على عظمة ربِّنا، وتغييرُه للعالم وتصريفُه إيَّاه كيف أراد، ونقله من حالٍ إلى حال، وهي من أعظم الأدلَّة على توحيده وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد، ولذلك قال عَقِبَه بقوله: ﴿**فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ**﴾ [الانشقاق: ٢٠].

فأوَّلُ أطباق الإنسان نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ جنيناً، ثمَّ مولوداً، ثمَّ رضيعاً، ثمَّ فطيماً، ثمَّ مميّزاً، ثمَّ يأخذ في بلوغ الأَشُدِّ والشَّباب إلى الأربعين، ثمَّ بعد الأربعين يأخذ في الكهولة إلى السِّتِّين، ثمَّ يأخذ في الشَّيخوخة، فإذا انحطَّت قواه فهو هَرِم، فإذا تغيَّرت أحواله وظهر نقصه فقد رُدَّ إلى أرذل العمر ـ وهي في جميع أطواره: إمَّا صحيح أو مريض، غنيّ أو فقير، معافى أو مبتلى إلى جميع أحوال الإنسان المختلفةِ عليه ـ.

فإذا بلغ الأجلَ الذي قُدِّر له واستوفاه: جاءته رسلُ ربِّه ﷻ ينقلونه من دار الفناء إلى دار البقاء، فجلسوا منه مدَّ البصر، ثمَّ دنا منه المَلَكُ الموكَّلُ بقبض الأرواح فاستدعى بالرُّوح، فإن كانت روحاً طيِّبة قال: اخرجي أيَّتها النَّفس الطَّيِّبة كانت في الجسد الطَّيِّب، اخرجي حميدة، وأبشري بَرَوْحٍ وريحان، وربٍّ غيرِ غضبان. فتخرجُ من بدنه كما تخرج القَطْرة من فِيِّ السِّقاء، فإذا أخذها لم يدعوها في يديه طرفة عين، فيحنطونها ويكفِّنونها

بحنوط وكفن من الجنَّة، ثم يصلُّون عليها، ويوجد لها كأطيبَ نفحةِ مِسْـكٍ وجدت على الأرض.

ثـمَّ يُصعدُ بهـا للعـرض الأوَّل على أسـرع الحاسِـبين، فيُنتهـى بها إلى السَّماء الدُّنيا فيُستأذنُ لها، فتفتحُ لها أبوابُ السَّماء، ويُصلِّي عليها ملائكتُها، ويُشيِّعها مقرَّبوها إلى السَّماء الثَّانية، فيُفعل بها كذلك، ثمَّ الثَّالثة، ثمَّ الرَّابعة إلـى أن يُنْتهى بها إلى السَّـماء التي فيها الله ﷻ؛ فتحيي ربّهـا تبارك وتعالى بتحيَّـة الرُّبوبيَّـة: «اللَّهمَّ أنت السَّـلام ومنك السَّـلام، تباركت يـا ذا الجلال والإكرام»، فإن شاء أذن لها بالسُّـجود. ثمَّ يَخْرجُ لها التَّوقيعُ بالجنَّة، فيقول الرَّبُّ ﷻ: ٱكتبوا كتابَ عبدي في علِّيِّين، ثمَّ أعيدوه إلى الأرض، فإنِّي منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أخرى.

ثمَّ ترجع رُوحه إلى الأرض، فتشـهد غسـلَه وتكفينَـه وحملَه وتجهيزَه، وتقول: قدِّموني قدِّموني.

فإذا وُضع في لحده وتولَّـى عنه أصحابُه: دخلت الـرُّوح معه، حتَّى إنَّه يسمعُ قرعَ نعالهم على الأرض، فأتاه حينئذٍ فتَّانا القبر، فيجلسانه ويسألانه: من ربُّك؟ ومـا دينك؟ ومن نبيُّك؟ فيقول: ربِّي الله، وديني الإسـلام، ونبيِّي محمَّد، فيصدِّقانه، ويبشِّـرانه بأنَّ هذا الذي عاش عليـه، ومات عليه، وعليه يُبعث. ثمَّ يُفسـح له في قبره مدَّ بصره، ويُفرشُ له خَضِراً، ويُقيَّضُ له شـابٌّ حسـنُ الوجـه والرَّائحـة، فيقـول: أبشـر بالـذي يسـرُّك، فيقول: مـن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملـك الصَّالح، ثمَّ يُفْتَحُ له طاقةٌ إلى النَّار، ويقول: ٱنظر ما صرف الله عنك، ثمَّ يُفْتَحُ له طاقةٌ إلى الجنَّة، ويقول: ٱنظر ما أعدَّ الله لك، فيراهما جميعاً.

وأمَّـا النَّفْـس الفاجـرة فبالضِّدِّ مـن ذلـك كلِّـه، إذا أذنـت بالرَّحيل نزل

عليها ملائكةٌ سُودُ الوجوه، معهم حَنوط من نار، وكفن من نار، فجلسوا منها مدَّ البصر، ثمَّ دنا المَلَك الموكَّل بقبض النُّفوس فاستدعى بها، وقال: اُخرجي أيَّتها النَّفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، أبشري بحميم وغسَّاق، وآخرَ من شكله أزواج، فتطاير في بدنه، فيجتذبها من أعماق البدن فتنقطع معها العروق والعصب، كما يُنتزع الشَّوك من الصُّوف؛ فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، ويوجد لها كَأَنْتَنِ رائحةِ جيفةٍ على وجه الأرض، فتُحنَّط بذلك الحَنوط، وتُلفُّ في ذلك الكفن، ويلعنها كلُّ مَلَك بين السَّماء والأرض.

ثمَّ يُصعد بها إلى السَّماء فيُستفتح لها فلا تُفتَّح لها أبواب السَّماء، ثمَّ يجيءُ النِّداء من ربِّ العالمين: اُكتبوا كتابه في سجِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فتطرحُ روحه طرحاً، فتَشْهدُ تجهيزه وتكفينَه وحملَه، وتقول ـ وهي على السَّرير ـ: يا ويلها! إلى أين يذهبون بها؟!

فإذا وُضع في اللَّحد: أعيدت إليه، وجاء المَلكان فسألاه عن ربِّه ودينه ونبيِّه، فيتلجلج ويقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت، ولا تليت، ثمَّ يضربانه ضربةً يصيح صيحة يسمعه كلُّ شيء إلَّا الثَّقلين، ثمَّ يُضَيَّقُ عليه قبرُه حتى تختلف أضلاعه، ثمَّ يفرشُ له نار، ويفتحُ له طاقة إلى الجنَّة فيقال: اُنظر إلى ما صرف الله عنك، ثمَّ يفتحُ له طاقة إلى النَّار، فيقال: اُنظر إلى مقعدك من النَّار، فيراهما جميعاً، ثمَّ يُقَيَّض له أعمى أصمُّ أبكم، فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالشَّرِّ، فيقول: أنا عملك السَّيِّء.

ثمَّ يُنَعَّم المؤمنُ في البرزخ على حسب أعماله، ويُعذَّب الفاجرُ فيه على حسب أعماله، ويختص كلُّ عضو بعذابٍ يليق بجناية ذلك العضو، فتقرض شِفاهُ المغتابين الذين يمزِّقون لحومَ النَّاس ويقعون في

أعراضهم بمقاريضَ من نار، وتسجَّرُ بطونُ أَكَلةِ أموال اليتامى بالنَّار، وتُلقم أكلةُ الرِّبا بالحجارة، ويَسْبَحون في أنهار الدَّم كما يَسْبَحون في الكسب الخبيث، وتُرضُّ رؤوس النَّائمين عن الصَّلاة المكتوبة بالحَجَر العظيم، ويُشقّ شِدقُ الكذَّابِ الكِذْبةِ العظيمةِ بكلاليبِ الحديد إلى قفاه، ومَنْخِرُه إلى قفاه، وعينيه إلى قفاه، كما شَقَّت كلمتُه النواحي، ويُعلَّق النِّساء الزَّواني بثديهنَّ، وتحبس الزُّناة والزَّواني في التَّنُّور المحمى عليه، فيُعذَّب مَحَلُّ المعصية منهم ـ وهو الأسافل ـ. وتُسلَّط الهموم والأحزان والآلام النَّفسانيَّة على النُّفوس البطالة التي كانت مشغولة باللَّهو واللَّعب والبطالة، فتصنع الآلامُ في نفوسهم كما تصنع الهوامُّ والدِّيدانُ في جسومهم، حتى يأذن الله تعالى بانقضاء أجل العالم وطيِّ الدُّنيا.

فتُمطِر الأرضُ مطراً غليظاً أبيضَ كمنيِّ الرِّجال أربعين صباحاً، فينبُتون من قبورهم كما تنبت الشَّجرةُ والعشب، فإذا تكاملت الأجنَّة وأقْرَبت الأمُّ وكان وقتُ الولادة: أمر الله سبحانه إسرافيلَ فنفخ في الصُّور نفخةَ البعث ـ وهي الثَّالثة، وقبلها نفخةُ الموت، وقبلها نفخةُ الفزع ـ فتشقَّقت الأرض عنهم، فإذا هم قيامٌ ينظرون، يقول المؤمن: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النُّشور»، ويقول الكافر: «يا ويلنا مَنْ بعثنا من مرقدنا».

فيُساقون إلى المحشر حفاةً عراةً، غُرلاً بُهْماً، مع كلِّ نفس سائقٌ يسوقها، وشهيدٌ عليها، وهم بين مسرور ومثبور، وضاحكٍ وباكٍ، حتَّى إذا تكاملت عِدَّتُهم وصاروا جميعاً على وجه الأرض، تشقَّقت السَّماء، وانتثرت الكواكب، ونزلت ملائكةُ السَّماء الثَّانية فأحاطت بملائكة السَّماء الدُّنيا، ثمَّ كلُّ سماء كذلك.

فبينما هـم كذلـك إذْ جـاء الله ربُّ العالميـن لفصل القضاء، فأشـرقت الأرض بنوره، وتميَّـز المجرمون مـن المؤمنين، ونُصب الميـزان، وأُحضر الدِّيوان، واُسـتدعي بالشُّـهود، وشـهدت يومئذٍ الأيدي والألسـنُ والأرجلُ والجلودُ.

ولا تزال الخصومة بين يدي الله سـبحانه حتى يختصم الرُّوح والجسد، فيقـول الجسـد: إنَّما كنتُ ميّتـاً لا أعقل ولا أسـمع ولا أبصـر، وأنتِ كنتِ السَّـميعةَ المبصرةَ العاقلة، وكنـتِ تُصرِّفيننـي حيث أردتِّ. فتقـول الرُّوح: وأنتَ الذي فعلتَ، وباشـرتَ المعصية، وبطشـت. فيرسـل الله إليهما مَلَكاً يحكـم بينهما فيقـول: مَثَلُكُمـا ـ مَثَلُ بصيـرٍ مقعد، وأعمـىً صحيح ـ دخلا بسـتاناً، فقـال المقعـد: أنـا أرى الثِّمـار ولا أسـتطيع أن أقـوم إليهـا، وقال الأعمى: أنا أسـتطيع القيام ولكن لا أرى شـيئاً، فقال المقعد: اُحملني حتَّى أتناولَ لي ولك، ففعـلا، فعلى من تكون العقوبة؟ فيقولان: عليهما، فيقول: فكذلك أنتما.

فيحكم الله سـبحانه بين عباده بِحُكْمـه الذي يحمده عليـه جميعُ أهلِ السَّـموات والأرض، وكلُّ برٍّ وفاجـرٍ ومؤمنٍ وكافر. ثمَّ ينـادي منادٍ: لتَتْبَعَ كلُّ أمَّة مـا كانت تعبد، فيذهبُ أهـلُ الأوثانِ مع أوثانهـم، وأهلُ الصَّليبِ مـع صليبهم، وكلُّ مشـرك مـع إلهِه الـذي كان يَعبـدُ لا يسـتطيع التَّخلُّف عنه، فيتسـاقطون فـي النَّار، ويبقـى الموحِّـدون، فيقال لهـم: ألا تنطلقون حيث اُنطلق النَّـاس؟ فيقولـون: فَارَقَنا النَّـاسُ أحوجَ ما كنَّـا إليهم، وإنَّ لنا ربّاً ننتظره، فيقال: وهل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولـون: نعم، إنَّه لا مِثْل له، فيتجلَّى لهم سـبحانه في غير الصُّورة التـي يعرفونه، فيقول: أنا ربُّكم، فيقولـون: نعوذ بالله منـك، هذا مكانُنا حتَّى يأتيَنا ربُّنـا فإذا جاء ربُّنا عرفناه، فيتجلَّى لهم سـبحانه في صورته التي رؤي فيها أوَّلَ مرَّة ضاحكاً،

فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: نعم، أنت ربُّنا، ويخرُّون لله سجداً، إلَّا من كان لا يُصلِّي في الـدُّنيا، أو يُصلِّي رياء، فإنَّه يُحَالُ بينه وبين السُّجود.

ثمَّ ينطلق سبحانه ويتْبَعُونه، ويُضرَبُ الجسر على وسط جهنَّم، ويُسَاقُ الخلق عليه، وهو دحْضُ مَزِلَّـة، مُظلمٌ لا يمكن عبوره إلَّا بنـور. فإذا ٱنتهوا إليه: قُسِـمت بينهم الأنوارُ على حسـب نور إيمانهم وإخلاصِهم وأعمالِهم في الدُّنيا ـ فنورٌ كالشَّمس، ونورٌ كالنَّجم، ونورٌ كالسّراج في قوَّته وضعفه ـ.

وتُرسـل الأمانةُ والرَّحِمُ على جَنْبَي الصِّراط فلا يجوزه خائن ولا قاطع، ويختلف مرورهم عليه بحسـب ٱختلاف ٱستقامتهم على الصِّراط المستقيم في الدُّنيـا ـ فمـارٌّ كالبـرق، وكالرِّيـح، وكالطَّيـر، وكأجاويدِ الخيل، وسـاعٍ، ومـاشٍ، وزاحفٍ، وحابٍ حَبْـواً ـ، وينصب على جنبه كلاليـبُ لا يعلم قدرَ عِظَمِهـا إلَّا الله ﷻ، تعوق مـن عَلَقت به عـن العبور، على حسـب ما كانت تعوقه الدُّنيا عن طاعة الله ومرضاته وعبوديَّته، فناجٍ مُسَلَّم، ومخدوشٌ مُسَلَّم، ومُقَطَّع بتلـك الكلاليب، ومُكَـرْدَسٌ في النَّـار. وقد طفأ نـورُ المنافقين على الجسر أحوجَ ما كانوا إليه.

فإذا جاوز المؤمنون الصِّراط ـ ولا يجوزه إلا مؤمن ـ: أَمِنوا من دخول النَّـار، فيُحبسـون هناك على قَنْطَـرةٍ بين الجنَّـة والنَّار، فيقتـصُّ لبعضهم من بعض مظالمَ كانـت بينهم في دار الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبـوا أُذِن لهم في دخول الجنَّة.

فإذا ٱسـتقرَّ أهـلُ الجنَّـة في الجنَّـة وأهلُ النّـار فـي النَّار: أُتـي بالموت في صورة كبـشٍ أملحَ فيُوقَـف بين الجنَّـة والنَّار، ثـمَّ يُقال: يا أهـل الجنَّة! فيطَّلعـون وَجِلِينَ، ثمَّ يُقال: يا أهـل النَّار! فيطَّلعون مستبشـرين، فيُقال: هل تعرفون هـذا؟ فيقولون: نعم، وكلُّهم قـد عرفه، فيُقال: هـذا الموت، فيُذبح

بين الجنَّـة والنَّار، ثـمَّ يُقال: يا أهـل الجنَّة خلـود ولا موت، ويا أهـل النَّار خلود ولا موت.

فاتَّقـوا الله ـ عبـاد الله ـ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله نحمده...

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

هـذه أحـوال النُّطفة التي هي مبدأ الإنسـان، ومـا بين هـذا المبدأ وهذه الغايـةِ أحوال وأطبـاق، قدَّر العزيـز العليم تنقُّلَ الإنسـانِ فيهـا، وركوبَه لها طبقاً بعـد طبق، حتى يصـلَ إلى غايته من السَّـعادة والشَّـقاوة، وهـي نتيجةُ الابتلاءِ والاختبـارِ في هذه الدّار ـ هـذا الاختبار العظيـم، والنَّتيجة الأعظم ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١].

فنسـأل الله العظيـم الجليـل الرَّحيـم أن يجعلنا مِـنَ الذين سـبقت لهم منه الحسـنى، ولا يجعلنا مِـنَ الذين غلبت عليهم الشَّـقاوة فخسـروا الدُّنيا والآخرة، إنَّه سميع الدُّعاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل(١).

إنَّ أحسن الحديث...

---

(١) ملخَّص من (تحفة الودود)، وكل ما ذكره معروفٌ في الأحاديث.

التَّحذير من النَّار

الحمد لله ذي العزِّ المجيد، المبدئ المعيد، المُكْرِمِ لمن خافه واتَّقاه بدارٍ لا يفنى نعيمها ولا يبيد، المنتقِم ممَّن عصاه بالنَّار بعد الإنذار بها والوعيد، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فُصّلَت: ٤٦].

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له ولا كفو ولا ضدَّ ولا نديد.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله السّاعي بالنُّصح للقريب والبعيد، المحذِّرُ للعصاة من نار تلظَّى بدوام الوقيد، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال على كَرِّ الجديدين في تجديد، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد:

فإنَّ الله سبحانه خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، ويحبُّوه، ويخافوه خوف إجلال، ونصب لهم الأدلَّة على عظمته وكبريائه ليهابوه، ووصف لهم شدَّةَ عذابِه ودارَ عقابه التي أعدَّها لمن عصاه ليتَّقوه بصالح الأعمال؛ ولهذا كرَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه ذكرَ النَّار، وما أعدَّه فيها لأعدائه من العذاب والنّكال، وما احتوت عليه من الزَّقُّوم والضَّريع والحميم والسَّلاسل والأغلال، إلى

غير ذلك ممَّا فيها من العظائم والأهوال. ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعةِ إلى امتثال ما يأمر به ويحبُّه ويرضاه، واجتنابِ ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه.

عباد الله:

مَنْ تأمَّل القرآنَ الكريمَ وأدار فكره فيه، وكذلك الأحاديثَ الصَّحيحةَ التي هي مفسِّرة للكتاب؛ وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك سِيَرَ السَّلفِ الصَّالحِ من أهل العلم والإيمان، من الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان ـ من تأمَّلهم ـ: عَلِمَ أحوالَ القوم وما كانوا عليه من الخشية والخوف والإخبات، وأنَّ ذلك هو الذي رقَّاهم المقاماتِ السَّنيَّاتِ من شدَّة الاجتهاد في الطَّاعات، والانكفاف عن دقائق الأعمال المكروهات، فضلاً عن المحرَّمات، ولهذا قال بعض السَّلف: «خوف اللهِ حَجَبَ قلوبَ الخائفين عن زهرة الدُّنيا وعوارضِ الشَّهوات».

عباد الله:

ذكر العلماء أنَّ النُّفوس ـ ولا سيَّما في هذه الأزمان وقبلها بأزمان ـ قد غلب على كثير منها الكسلُ والتَّواني، واسترسلت في شهواتها وأهوائها وتمنَّت على الله الأماني. والشَّهواتُ المحرَّمةُ لا يُذهبها من القلوب إلاَّ أحدُ أمرين: إمَّا خوفٌ مزعجٌ محرق، أو شوقٌ مبهجٌ مقلق، فذلك بمشيئة الله هو القامعُ للنُّفوس عن غيِّها وفسادها، والباعثُ لها على المسارعة إلى فلاحها ورشادها.

والخوف أفضل من الرَّجاء ما كان العبد صحيحاً، فإذا نزل الموتُ فالرَّجاء أفضل. والقَدْرُ الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإذا زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنُّفوس على

التَّشـميرِ في نوافل الطَّاعات، والانكفافِ عن دقائق المكروهات، والتَّبسُّطِ في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محموداً.

وقد ضمن اللهُ سبحانه الجنَّةَ لمن خافه من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦] قال مجاهد: «هو الرَّجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكر الله فيتركها»، وعن الحسن البصري قال: «قالت الجنّة: يا ربِّ! لمن خلقتني؟ قال: لمن يعبدني وهو يخافني»، وقال أبو سليمان الدَّاراني: «أصل كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة: الخوفُ من الله، وكلُّ قلب ليس فيه خوف الله؛ فهو قلبٌ خَرِب».

عباد الله:

وقد دلَّ القرآنُ الكريمُ والأحاديثُ والإجماعُ على وجود النَّار وأنَّها مخلوقةٌ الآن، قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطفّفين: ٧] وسجِّين: أسفل الأرض.

وجاءت أحاديثُ مبيِّنةً شدَّةَ حرِّها، وبُعْدَ قعرها، وسعتَها، وتعظيمَ خَلْقِ الكافرِ فيها، وأهونَهم عذاباً ـ أجارنا الله وإيَّاكم منها برحمته وكرمه ـ.

ومنها: ما رواه أنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ناركم هذه التي تُوقِدون، جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنَّم**، قالوا: والله إنْ كانت لكافيةً يا رسول الله! قال: **فإنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلُّها مثل حرِّها**» متفق عليه، وأخرج مسلم: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع وَجْبة ـ يعني: صوتاً ـ فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أتدرون ما هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **هذا حَجَرٌ أُرسل في جهنَّم منذ سبعين خريفاً** ـ يعني: سنة ـ **فالآنَ أنتهى إلى قعرها**»، وروى مسلمٌ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**ضِرْسُ الكافر ـ أو نابُ الكافر ـ مثلُ أحد، وغِلَظُ جلدِه مسيرةُ ثلاث**»، وروى مسلم أيضاً عنه: عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما بين مَنْكِبَي الكافرِ في النَّار، مسيرةُ ثلاثة أيامٍ للرَّاكب المسرع**»[١]، وروى البخاري ومسلم: عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أهون أهلِ النَّار عذاباً يوم القيامة: لرجلٌ يُوضع في أَخْمُصِ قدميه جمرتان يغلي منهما دماغُه كما يغلي المِرْجَل، ما يَرى أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنَّه لأهونهم عذاباً**».

وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أُمَّته النَّار، وبالغ في التَّحذير، وأكثر التَّعوُّذ منها، وأمر به، فمن ذلك: ما روى عديُّ بنُ حاتمٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا النَّار**، وأشاح، ثمَّ قال: **اتَّقوا النَّار**، ثم أعرض، وأشاح ـ ثلاثاً ـ حتى ظننَّا أنَّه ينظر إليها، ثمَّ قال: **اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة، فمن لَّم يجد فبكلمة طيِّبة**» أخرجاه في الصَّحيحين، وفي سنن أبي داود وابنِ ماجه والبزَّارِ: عن جابر رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجل: «**كيف تقول في الصَّلاة؟** قال: أَتَشَهَّد، ثمَّ أقول: اللَّهم إنِّي أسألك الجنَّة، وأعوذ بك من النَّار، أما إني لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النَّبيُّ ﷺ: **وهل أدندن أنا ومعاذ إلَّا أن نسألَ اللهَ الجنَّة، ونعوذَ به من النَّار؟!**».

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ أمَّتي؛ كمثل رجلٍ استوقد ناراً فلمَّا أضاءت ما حولها جعل الفَرَاشُ وهذه الدَّواب يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويَغْلِبْنه فيقتحمْن فيها، قال: فذلك مَثَلِي ومَثَلُكم، أنا آخذٌ بحجزكم هَلُمَّ عن النَّار، هَلُمَّ عن النَّار، فتغلبوني وتقتحمون فيها**»، وأخرج البزَّار وأبو يعلى من حديث

---

(١) وبقدر تعظيم جسم الكافر وكفره، يَعْظُمُ عذابه ـ والعياذ بالله ـ.

أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**ما اْستجار عبدٌ من النَّار ـ سبع مرات ـ إلَّا قالت النَّار: يا ربِّ! إنَّ عبدك فلاناً اْستجار منِّي فأجره، ولا سأل عبدٌ الجنَّة ـ سبع مرات ـ إلَّا قالت الجنَّة: يا ربِّ! إنَّ عبدك فلاناً سألني؛ فأدخِلْه الجنَّة**».

والصَّحابة رضي الله عنهم مع فضلهم، وكذا التَّابعون لهم بإحسان، يخافون من النَّار ـ والخوفُ منها سببُ النَّجاة ـ وكانوا يُربُّون أنفسَهم على الخوف منها؛ روى اْبنُ المبارك بسنده قال: «لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] ذهب الصَّحابيُّ عبدُ الله بنُ رواحة إلى بيته فبكى، وجاءت المرأةُ فبكت، وجاءت الخادمُ فبكت، ثمَّ جاء أهلُ البيت فجعلوا يبكون كلُّهم، فلمَّا اْنقضت عَبْرَتُه قال: يا أهلاه! ما يبكيكم؟ قالوا: لا ندري، ولكنَّا رأيناك تبكي فبكينا، قال: آيةٌ نزلت على رسول الله ﷺ ينبؤني فيها ربِّي أنِّي واردُ النَّار، ولم ينبئْني أنِّي صادرٌ عنها».

وروى الإمام أحمد بسنده: عن الحسن قال: «قال رجل لأخيه: قد جاءك عن الله أنَّك واردُ جهنَّم؟ قال: نعم، قال: فأيقنتَ بالوُرُود؟ قال: نعم، قال: فأيقنتَ وصَدَّقتَ بذلك؟ قال: نعم، وكيف لا أصدِّق وقد قال اللهَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟! [مريم: ٧١]، قال: فأيقنتَ أنَّك صادرٌ عنها؟ قال: والله ما أدري أأصدر عنها، أم لا؟ قال: ففيم التَّثاقل، وفيم الضَّحك، وفيم اللَّعب؟! قال: فما رُؤي ضاحكاً حتى لحق بالله».

وعُوتب يزيدُ الرَّقَّاشي على كَثْرة بكائه، وقيل له: «لو كانت النَّارُ خُلِقتْ لك ما زِدتَّ على هذا، فقال: وهل خُلقت النَّارُ إلَّا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجنِّ والإنس؟! أمَا تقرأ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؟، أمَا تقرأ:

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؟ فقرأ إلى قوله: ﴿ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرَّحمن: ٤٤]».

وقال الحسن: «كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه ربَّما تُوقَدُ له النَّار، ثمَّ يُدْني يديه منها، ثمَّ يقول: يا ٱبنَ الخطَّاب هل لك على هذا صبر؟!». وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح باللّيل فيضع أصبعه فيه، ثمَّ يقول: «حِسْ، حِسْ، ثمَّ يقول: يا حُنيف! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!». وخرَّج ٱبن أبي الدُّنيا: من رواية سعد بن الأخرم قال: «كنت أمشي مع ٱبن مسعود، فمرَّ بالحدَّادين، وقد أخرجوا حديداً من النَّار فقام ينظر إليه ويبكي».

هذا تفكير أولئك القوم، ومدى خوفِهم من النَّار التي تقدَّم وصفُها، وإنذارُ النَّبيِّ ﷺ عنها، وتأثُّرهم الشَّديدُ عند ذكرها.

اللَّهمَّ أجرنا من النَّار، وٱغفر لنا ذنوبنا يا غفَّار، وأدخلنا برحمتك دار النَّعيم، يا بَرُّ، يا رؤوفُ، يا رحيم.

وٱتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وٱتَّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۞ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ٩ ـ ١٩].

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أعدَّ الجنَّةَ لعباده المؤمنين نزلاً.

وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، نهى عن طاعة من أغفلَ قلبَه عن ذكر ربِّه واتَّبع هواه وكان أمره فرطاً.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، القائلُ: «**عجبت من الجنَّة كيف نام طالبها؟! وعجبت من النَّار كيف نام هاربها؟!**».

اللَّهمَّ صَلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا الله حقَّ معرفته، وقَدَرُوه حقَّ قدْره، وجعلوا الجنَّة والنَّار نصبَ أعينهم فاستقامت أعمالهم، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

روى البخاري ومسلم: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اشتكت النَّارُ إلى ربِّها فأذن لها بِنَفَسَيْن في كلِّ عام: نَفَسٍ في الشِّتاء، ونَفَسٍ في الصَّيف؛ فأشدُّ ما تجدون من الحرِّ من سَمُومها، وأشدُّ ما تجدون من البرد من زمهريرها**»، وفي رواية لمسلم: «**فما وجدتُّم من برد، أو زمهرير؛ فمن نَفَسِ جهنَّم، وما وجدتُّم من حرٍّ، أو حَرُور؛ فمن نَفَسِ جهنَّم**» فشدَّة الحرِّ وشدَّة البرد يذكِّران بحرِّ

النَّـار وزمهريرها؛ لنتقيَها عنـد كلِّ عملٍ وقولٍ مفـروض أو محرَّم ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ﴾ [الواقِعَة: ٧٣].

وأكثروا ـ عباد الله ـ من الاستعاذة بالله من النَّار، قال عطاء الخراساني: «مَنِ ٱستجار من جهنَّم ـ سبع مرات ـ قالت جهنم: لا حاجة لي فيك».

وقال تعالى في وصف عباد الرَّحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر أَنَّ من دعائهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

وعن معاذ بنِ جبل رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ المؤمن لا تسكن روعته، ولا يأمنُ ٱضطرابه، حتى يُخلِّفَ جسر جهنَّم خلف ظهره**»(١).

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ، وٱعلموا أنَّ أحسن الحديث...

(١) ملخَّصة من كتاب (التَّخويف من النّار) لابن رجب، وطريق الهجرتين ص ٦٨، والتِّبيان ص ٣١.

وصف الجنَّة
ومن يستحقّ البشرى بها؟

الحمد لله الـذي جعل جنَّةَ الفـردوس لعبـاده المؤمنين نُزُلاً، ويسَّـرهم للأعمـال الصَّالحـةِ الموصلةِ إليها فلم يتَّخذوا سـواها شُـغُلاً، وسـهَّل لهم طُرُقَها فسـلكوا السَّـبيلَ الموصلـةَ إليها ذُلُـلاً، خلقها لهم قبـل أن يخلقَهم، وحفَّها بالمـكاره وأخرجهم إلـى دار الامتحان ليبلوهم أيُّهم أحسـن عملاً، وجعل ميعـادَ دخولِها القدومَ عليه، وضـرب مدَّةَ الحياةِ الفانيـةِ دونه أجلاً، وبشَّرهم بأصنافِ النَّعيم التي أعدَّ فيها، وكمَّل لهم البشرى بكونهم خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً.

أحمده سبحانه بعث الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، وعمر دارين؛ فهذه لمن أجاب الدَّاعي، ولم يبغِ سـوى ربِّه الكريم بدلاً، وتلك لمن لم يجب دعوته ولم يرفع بها رأساً، ولم يعلِّق بها أملاً.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك له، شـهادةَ مـن لا مطمعَ له في الفوزِ بالجنَّة والنَّجاةِ من النَّار إلَّا بعفوه ومغفرته.

وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، الدَّاعي إلى الله وإلى جنَّته.

اللَّهمَّ صلِّ وسـلِّم على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلى آلـه وأصحابه وأتباعِه السَّالكين على أثره.

أمَّا بعد: فيا عباد الله:

إنَّ الله تبارك وتعالى لم يَخْلقِ الخلقَ عبثاً، ولم يتركْهم سدى؛ بل خلقهم لأمر عظيم وخَطْبٍ جسيم، عُرِضُ على السَّموات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ وأشفقن منه، وقلن: ربَّنا إنْ أمرتنا فسمعاً وطاعة، وإنْ خيَّرتنا فعافيتُك لا نبغي بها بدلاً، وحَمَله الإنسانُ على ضعفه وعجزه عن حمله، وباء به على جهله وظلمه، فألقى أكثرُ النَّاس الحملَ عن ظهورهم لثِقَلِه، ولشدَّة مؤنته عليهم؛ فصحِبُوا الدُّنيا صحبةَ الأنعامِ السَّائمة، لا ينظرون في معرفة مُوجِدهم وحقِّه عليهم، ولا في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدَّار، التي هي معبرٌ وطريق إلى دار القرار، ولا يتفكَّرون في قلّة مُقامهم في الدُّنيا الفانية، وسرعة رحيلهم إلى الدَّار الباقية.

أمَّا الموفَّقون ـ يا عباد الله ـ فلمَّا علموا ما خُلقوا له، وما أريد بإيجادهم: رفعوا رؤوسهم، فإذا عَلَمُ الجنَّةِ قد رُفع لهم فشمَّروا إليه، وإذا صراطُها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا بعين البصيرة مُلْكاً كبيراً لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزَّوال، ونعيماً مقيماً في جوار الكبير المتعال في روضات الجنَّات يتقلَّبون، وعلى أَسِرَّتها يجلسون، وعلى الفُرُش التي بَطَائِنُها مِنِ إستبرقٍ يتَّكئون، وبالحور العين يتنعَّمون، وبأنواعِ الثِّمار يتفكَّهون؛ وسمعوا الرَّبَّ الكريمَ تبارك وتعالى يدعو إلى دار السَّلام ـ التي سَلِمت من كلِّ بليَّة ومكروه ـ فأجابوه، والرَّسولُ ﷺ يقول: «**أطلبوا الجنَّة جُهْدَكم، وأهربوا من النَّار جُهْدَكم؛ فإنَّ الجنَّة لا ينام طالبُها، وإنَّ النَّار لا ينام هاربُها**»، ويقول: «**لا تنسوا العظيمتين**، قلنا: وما العظيمتان يا رسول الله؟ قال: **الجنَّةُ والنَّار**».

عباد الله:

والجنَّـة ذاتُها تسـألُ اللهَ تعالـى أن يُعَجِّلَ إليها بسـكَّانها، وتذكرُ شـوقَها إليهم، وتشـفعُ فيهم إلى ربِّها؛ ففي الحديث المرفوع: «**ما من يومٍ إلَّا والجنَّةُ والنَّارُ يسـألان، تقـول الجنَّة: يـا ربِّ! قـد طاب ثمـري، واطَّـردت أنهاري، واشْـتَقْتُ إلى أوليائـي، فعجِّل إلـيَّ بأهلي، وتقول النَّار: اشـتدَّ حـرِّي، وبَعُدَ قعري، وعَظُم جَمْري، فعجِّل إليَّ بأهلي**»، وروى الحسـن بن سفيان بسنده: عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**أكثـروا من مسـألةِ اللهِ الجنَّة، واسـتعيذوا به من النَّار، فإنَّهما شـافعتان مشـفَّعتان، وإنَّ العبدَ إذا أكثر مسألةَ اللهِ الجنَّةَ قالت الجنَّة: يا ربِّ! عبدُك هذا سألنيك فأسكنه إيَّاي، وتقول النَّار: يا ربِّ! عبدُك هذا استعاذ بك منِّي فأعذه**».

والجنَّـة ـ يـا عباد الله ـ : اسـم شـامل لجميـع ما حوتـه من البسـاتين، والمسـاكنِ والقصـور، وجميعِ ما تشـتهيه الأنفـس، وتلذُّ الأعين، ويُشَـنِّفُ الأسـماع، ويطيِّب المشـام، وهي جنات كثيرة، ففي المسـند: عن النَّبيِّ ﷺ قـال: «**الجنَّـة مئة درجة مـا بيـن كلِّ درجتين مسـيرة مئة عام** ـ وقـال عفَّان: كمـا بيـن السَّـماءِ والأرض ـ، **والفـردوس أعلاها درجـة**» وفي لفـظ: «**إنَّ في الجنَّـة مئةَ درجة، ما بيـن كلِّ درجتين كما بين السَّـماء والأرض، أعدَّها الله للمجاهديـن في سـبيله**»[١]، وروى البخاري في صحيحـه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ أمَّ حارثةَ بنِ سراقةَ رضي الله عنهما أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا نبيَّ الله! ألَا تحدِّثُنـي عن حارثـة ـ وكان قتل يوم بـدر ـ فإنْ كان فـي الجنَّة صبرت، وإنْ كان غيـر ذلك اجتهـدتُّ في البكاء؟ قـال: «**يا أمَّ حارثـة! إنَّها جنان في الجنَّة، وإنَّ ابنَكِ أصاب الفردوس الأعلى**».

---

(١) وشيخ الإسلام رحمه الله يرجح هذا اللفظ.

والجنَّة نوعان، في الصَّحيحين: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**جنَّتان من ذهب آنيتُهما وحليُّهما وما فيهما، وجنَّتان من فضّة آنيتُهما وحليُّهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلَّا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنَّة عدن**»، وروى ابن ماجه في سننه: عن أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألَا هل من مشمِّر إلى الجنَّة؟ فإنَّ الجنَّة لا خَطَر لها** ـ أي: لا عوض لها ولا مِثْل ـ **هي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانةٌ تهتز، وقصرٌ مَشِيد، ونهرٌ مطرد، وثمرةٌ نضيجة، وزوجةٌ حسناءُ جميلة، وحُلَلٌ كثيرة، ومَقَامٌ في أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخُضْرة، وحَبْرة ونِعْمة، في محلة عالية بهيَّة**، قالوا: نعم يا رسول الله! نحن المشمِّرون لها، قال: **قولوا: إن شاء الله**، قال القوم: إن شاء الله».

ومن سعة الجنَّة: أَنَّ عرض الباب الواحد من أبوابها كما بين مكَّةَ والأحساء، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده! إنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنَّة، لَكَمَا بين مكَّة وهجر**» متَّفق عليه، وفي حديث آخر: «**وليأتِيَنَّ عليه يوم وهو كَظِيظٌ من الزِّحام**».

وريحها يوجد من مسيرة مئة عام، قال ﷺ: «**من قتل نفساً معاهَدةً بغير حقِّها؛ لم يَرِحْ رائحة الجنَّة، وإنَّ ريح الجنَّة تُوجَد من مسيرة مئة عام**» رواه الطَّبراني في الأوسط.

والجنَّة بعضها أعلا من بعض، في الصَّحيحين: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أهل الجنَّة ليتراءون الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكبَ الدُّريَّ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**، قالوا: يا رسول الله! تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: **بلى، والذي نفسي بيده! رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**».

وبعض الجنان غَرَسَـها الله بيده زيادةً في كرامتهـا وتفضيلِ أهلها، روى ٱبن أبي الدُّنيا بسنده: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله جنَّةَ عدن بيده: لبنةً من درَّةٍ بيضاء، ولبنةً من ياقوتةٍ حمراء، ولبنةً من زُبَرْجَدَةَ خضراء، مِلاطُها المسك، وحَصْبَاؤُها اللُّؤلؤُ، وحشيشُها الزَّعفران، ثمَّ قال لها: ٱنطقي، قالت:** ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، **فقال الله** عَزَّوَجَلَّ: **وعزَّتي وجلالي لا يجاورني فيكِ بخيل**، ثمَّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]».

أمَّا أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلة، فروى مسلم في صحيحه: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**سأل موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **ربَّه: ما أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلة؟** ـ وفي رواية: **عن أخسِّ أهل الجنَّة منها حظّاً** ـ، **قال: رجل يجيء بعد ما دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّة، فيقال له: ٱدخل الجنَّة، فيقول: ربِّ كيف وقد نزل النَّاس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتِهم؟! فيقال له: أَلَا ترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدُّنيا؟ فيقول:** رضيت ربِّ، **فيقول: لك ذلك، ومثلُه ومثلُه ومثلُه، فقال في الخامسة:** رضيت ربِّ، **فيقول: لك هذا وعشرةُ أمثاله، ولك ما ٱشتهت نفسك ولذَّت عينك، فيقول:** رضيت ربِّ...» الحديث.

وروى الطَّبراني: عن ٱبن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً: «**إنَّ أدنى أهلِ الجنَّة منزلة: لَرجلٌ ينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يَرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وسُرُرِه وخدمه**...» الحديث.

وفي الصَّحيحين: عن ٱبن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لَأَعلمُ آخرَ أهلِ النَّار خروجاً منها، وآخرَ أهلِ الجنَّة دخولاً الجنَّة؛ رجل يخرج من النَّار حَبْواً، فيقول الله له: ٱذهب فادخل الجنَّة، قال: فيأتيها فيُخيَّلُ إليه أنَّها مَلْآ، فيرجع فيقول:** يا ربِّ! وجدتُّها مَلْآ!! **فيقول الله له: ٱذهب**

فادخـل الجنَّة، قـال: فيأتيهـا فيُخيَّل إليـه أنَّها مَـلآ، فيرجع فيقـول: يا ربِّ! وجدتُّهـا مَلْآ!! فيقـول له: اذهب فادخـل الجنَّة، فـإنَّ لك مِثْلَ الدُّنيا وعشـرَ أمثالهـا، قـال: فيقول: أتسـخر بي وتضحـك بي وأنـت المَلِك؟! قـال: لقد رأيت رسـول الله ﷺ يضحـك حتى بدت نواجـذه، قال: فـكان يقول: **ذلك أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلة**».

وأهل الجنَّة يستوعبون كثيراً ممَّا أُعدَّ لهم من النَّعيـم؛ لكمال حياتهم، وضخامـةِ أجسـامهم، وتوافرِ قواهم، ومـع ذلك لا يبولـون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخطـون، ولا يُمْنـون، روى الحاكـم بسـنده في صحيحه قـال: «أتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فقال: يا أبا القاسـم! ألسـت تزعم أنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها ويشـربون؟ ـ ويقول لأصحابه: إن أقر لـي بهذا خصمته ـ فقال رسـول الله ﷺ: **بلى، والذي نفسُ محمَّد بيـده! إنَّ أحدهم ليُعطَى قـوَّةَ مئةِ رجلٍ في المطعم والمشرب والشَّهوة والجماع**، فقال له اليهودي: فإنَّ الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسـول الله ﷺ: **حاجتهم عَرَقٌ يفيض من جلودهم مثلُ المسـك، فإذا البطن قد ضمـر**»، وروى الإمام أحمد: عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**يدخل أهـلُ الجنَّةِ الجنَّـة جُرداً، مُرداً، مكحَّلين، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثين، وهم على خلقِ آدمَ ستُّون ذراعاً**»[١].

ولأهـل الجنَّة طَـرَبٌ ولذَّةٌ حين يسـمعون غنـاءَ الحور العين بالتَّسـبيح والتَّمجيـد والتَّقديـس والثَّنـاء علـى الـرَّبِّ عز وجل، وأكملهـم فيـه أصونهـم لنفسـه في هذه الدَّار عـن الحـرام، روى التِّرمذي: عن علـيٍّ رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنَّـة لمُجتمعاً للحـور العِين، يَرْفَعْـنَ بأصواتٍ لم يَسـمع الخلائقُ بمثلها، يَقُلْنَ: نحنُ الخالداتُ فلا نبيدُ، ونحن النَّاعماتُ فلا**

(١) هذا الطُّول. وجاء أنَّ العرضَ سبعة أذرع.

نبأسُ، ونحنُ الرَّاضياتُ فلا نسخطُ، طوبى لِمَنْ كانَ لنَا وكنَّا لهُ».

وروى ابن المبارك: عن يحيى بن أبي كثير «إنَّ الحورَ العينَ يتَلقَّين أزواجهنَّ عند أبواب الجنَّة، فيقُلْن: طال ما انتظرناكم، فنحن الرَّاضياتُ فلا نسخط، والمقيماتُ فلا نضعن، والخالداتُ فلا نموت، بأحسنِ أصواتٍ سُمعت، وتقول: أنت حِبِّي وأنا حِبُّك، ليس دونك مَقْصَر، ولا وراءك مَعْدِل»، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبدٍ يدخل الجنَّة، إلَّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين، يغنِّيانه بأحسن صوت سمعه الإنسُ والجنّ، وليس بمزامير الشَّيطان**»، وروى ابن أبي الدُّنيا بسنده: عن محمد بن المُنْكِدر، قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا يُنزِّهون أسماعهم وأنفسَهم عن مجالس اللَّهو ومزامير الشَّيطان، أسكنوهم رياضَ المسك، ثمَّ يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي».

ولهم سماعٌ أعلا من هذا، يضمحلُّ دونَه كلُّ سماع، وذلك حين يسمعون كلامَ الرَّبّ جل جلاله، وخطابَه، وسلامَه عليهم، ومحاضرتَه لهم، ويقرأُ عليهم كلامَه، فإذا سمعوه منه فكأنَّهم لم يسمعوه من قبل.

وأهل الجنَّة يتزاورون فيها، ويستزير بعضُهم بعضاً، وبذلك تَتِمُّ لذَّتهم وسرورهم؛ ولهذا قال حارثة رضي الله عنه للنَّبيِّ ﷺ وقد سأله: «**كيف أصبحتَ يا حارثة؟** قال: أصبحتُ مؤمناً حقّاً، قال: **إنَّ لكلِّ قول حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟** قال: عَزَفَتْ نفسي عن الدُّنيا فأسهرتُ ليلي، وأَظْمَأْتُ نهاري، وكأنِّي أنظر إلى عرش ربِّي بارزاً، وإلى أهل الجنَّة يتزاورون فيها، وإلى أهل النَّار يُعذَّبون فيها، فقال: **عبدٌ نورَّ الله قلبه**»، وفي حديث أبي أيَّوب رضي الله عنه: «**أنَّهم يتزاورون على النَّجائب**».

ومنتدى أهلِ الجنَّة ومتحدثُهم تحت شجرةٍ يسير الرَّاكبُ في ظلِّها مئةَ عام لا يقطَعها.

ولهم زيارة أخرى أعلا من هذه وأجلّ، وذلك حين يزورون ربَّهم تبارك وتعالى فيُريهم وجهه، ويُسمعهم كلامه، ويُحلُّ عليهم رضوانه.

والجنَّةُ فوقَ السَّموات تحت العرش، عرضها كعرض السَّماء والأرض لو وُصِلَت إحداهُما بالأخرى.

عباد الله:

هذا وصف الجنَّة التي جعلها الله مقرّاً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمَها بالفوز العظيم، ومُلْكَها بالملك الكبير، وأودعها جميعَ الخير بحذافيره، وطهَّرها من كلِّ عيبٍ وآفةٍ ونقص.

وأهل البشرى بها: هم أهل الإيمانِ والتَّقوى، والعملِ الخالصِ لله الموافقِ للسُّنَّة ـ إخلاصٌ في طاعة الله، وإحسانٌ إلى خلقه ـ، وهم أربعة أصناف من الرِّجال والنِّساء، ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أخبركم برجالكم من أهل الجنَّة؟ النَّبيُّ في الجنَّة، والصِّدِّيق في الجنَّة، والشَّهيد في الجنّة، والرَّجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلَّا لله في الجنَّة، ونساؤكم من أهل الجنَّة الودودُ الولودُ، التي إذا غَضِبَ أو غَضِبت جاءت حتَّى تضع يدَها في يد زوجها، ثمَّ تقول: لا أذوق غَمْضاً حتَّى ترضى**» أخرجه النَّسائي وباقيه على شرطه.

فاتَّقوا الله ـ عباد الله ـ وأكثروا من سؤال الله الجنَّة، واعملوا لها أعمالَها

من واجبٍ واجتناب محرَّم، واسألوه الفردوسَ منها، فإنَّه أعدلُ الجنَّة، وأعلا الجنَّة، وفوقَه عرشُ الرَّحمن، ومنه تَفجَّر أنهارُ الجنَّة. واسألوه تعالى العون على أعمال أهل الجنَّة.

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي رضـيَ من عباده باليسـير من العمل، وتجـاوز لهم عن الكثير مـن الزَّلل، أحمده سـبحانه أفاض عليهـم النِّعمة، وكتب على نفسـه الرَّحمة.

وأشـهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شـريك لـه، دعا عباده إلى دار السَّـلام، فعمَّهم بالدَّعـوة حجَّةً منه عليهم وعدلاً، وخصَّ بالهداية والتَّوفيق من شـاء نعمةً منه وفضلاً.

وأشـهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، بشَّـر وأنذر، ودعا وحذَّر، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّدٍ وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعد: عباد الله:

إنَّ الله تبـارك وتعالـى الـذي أخبـر عمَّا فـي الجنَّة مـن أنـواع الأطعمة والأشـربة، والمـلاذِّ المتنوِّعـة، قـد أشـهد عبـادَه فـي هـذه الـدَّار مـن آثار الجنَّة وأُنموذجـاً منها ـ من الرَّائحـة الطَّيِّبة، واللَّـذَّاتِ المُشْـتهاة، والمناظرِ البهيَّـة، والفاكهـةِ الحسـنة، والنَّعيـمِ والسُّـرور، وقُـرَّةِ العيـن ـ، وقـد روى أبو نعيـم: عن جابـر رضي الله عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: «**يقـول الله عز وجل للجنَّة: طيبي لأهلك، فتزداد طيباً، فذلك البَرْد الذي يجده النَّاسُ بالسَّحر من ذلك**».

كمـا جعل سـبحانه نـارَ الدُّنيـا وآلامَهـا وغمومَهـا وأحزانَها تُذكِّـر بنار الآخـرة، وأخبر النَّبيُّ ﷺ: «**أنَّ شـدَّة الحرِّ والبَرْد من أنفـاس جهنَّم**»، فلا بدَّ أن يَشْهدَ عبادُه أنفاسَ جنَّته، وما يذكِّرهم بها، مع أنَّه ليس في الدُّنيا ممَّا في الآخرة إلَّا الأسماء، وأمَّا المُسمَّيات فبينها من التَّفاوت ما لا يعلمه البشر.

فاشـكروه ـ تعالى ـ أَنْ أوضح لكـم الجنَّة وجَلّاها، حتَّـى كأنَّكم ترون نعيمهـا وحلاهـا، واجتهـدوا فـي العمـل لها رجـاء أن تكونـوا مـن أهلها، واعلموا أنَّه ليس بعد الموت من دارٍ إلَّا الجنَّةُ أو النَّار[١].

إنَّ أحسن الحديث كتاب الله...

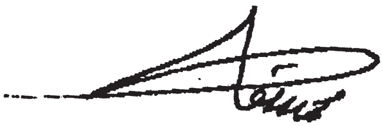
---

(١) ملخَّصة من (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١/ ٧/ ١٤١٩هـ)

وكتبه بخطه



محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

فهرس الكتاب

لطلب الكميات والتوزيع
٠٥٠٥٣٠٣١٣٩
٠٥٣٣٨٠٨٠٨٠

ISBN 978-603-00-9274-1
9 786030 092741